FIFA WORLD CUP
Qatar2022
12.12.2022

آليس ووكر

قصص

لن تثني عزيمة
امرأة طيبة



ترجمة: كنان الشحف

آليس ووكر

لن تثني عزيمة امرأة طيبة

ترجمة : كنان الشحف

مراجعة : زياد عبد اللّٰه

لن تثني عزيمة
امرأة طيبة

قصص

Author: **Alice Walker**	اسم المؤلف: آليس ووكر
Title: **You Can't Keep a Good Woman Down**	عنوان الكتاب: لن تثني عزيمة امرأة طيبة
Translated by: **Kenan Al-Shahf**	ترجمة: كنان الشحف
Reviewed by: **Ziad Abdullah**	مراجعة: زياد عبد الله
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2019**	الطبعة الأولى: **2019**

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

أهدي هذا الكتاب إلى معاصراتي

أشكر شقيقتي روث على ما ترويه من قصص

أشكر بيسي هيد؛ آما آتا أيدو؛ بوتشي إميشتا؛ وا ثيونغو نغوغي؛ أوكوت بيبتيك؛ وأُسمان سيمبين على ما يؤلفون من قصص.

أشكر جلوريا ستاينم؛ جوان إدغار وسوزان براون ليفاين من مجلة «إم إس»، اللواتي استقبلن العديد من القصص التي نشرتها المجلة من هذه المجموعة بحماس وترحيب أخويين.

أشكر ما رايني؛ بيسي (يصعب العثور على رجل صالح) سميث؛ مامي سميث وبيري (لن تثني عزيمة رجل طيب) برادفور؛ وغيرهم من معاصريهم لإصرارهم على قيمة وجمال الأصالة.

مقدمة

عبر سطور هذه المجموعة القصصية، تروي آليس ووكر الحائزة على جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب الوطني عن روايتها الشهيرة «اللون أرجواني»، 14 حكاية لنساءٍ تخضن معاركهن على جبهتين: أولاهما الصورة النمطية عن المرأة، وثانيتهما العنصرية. وبأسلوب محفز تشوبه روح الدعابة، تسرد بطلات ووكر حكاياتهن المفعمة بالأمل عن الحب والرغبة والشهرة والسرقة الثقافية وبهجة الالتقاء بعشاق جدد وإعادة سبر أغوار شخصيات الأصدقاء، لتخرجن من رحم هذه القصص بعزيمةٍ قوية عجز الاضطهاد عن كسرها.

وإضافة إلى تسليط الضوء على معاناة النساء السود في مجتمع تحكمه العنصرية، تستعرض ووكر، الناشطة الحقوقية والنسوية، ما لاقته المرأة البيضاء أيضاً من عنفٍ وتمييز من بعض الرجال السود خلال الحركات المناهضة للعنصرية.

في جعبة آليس ووكر أكثر من ثلاث عشرة رواية ومجموعة قصصية وعشرة مجموعات شعرية والعديد من المقالات والأعمال الفكرية، نشرت منها دار المدى مؤخراً روايتي «اللون أرجواني» و«امتلاك سر البهجة».

«إنّ قتل ما هو حي روحياً لأشدُّ صعوبةً من إحياء الميت».

• هِرمان هيسه

ألف وتسعمائة وخمسة وخمسون

1955

لعدّة مرات، عبرت أمام المنزل تلك السيارة الحمراء الجديدة كلياً من طراز «ثندربيرد»، بسقف متحرك، وها هي الآن تبطئ سرعتها بشدة لتتوقف بمحاذاة الرصيف. ومن الجهة المجاورة للمنزل، يترجل «جنتلمان»، مسنٌ بثياب تشبه ثياب كاهن المعمودية، بينما يترجل من مقعد القيادة شابٌ يافع يبدو في السادسة عشر تقريباً. كلاهما من البيض، وأتساءل ما الذي يفعلانه في هذا الحي بحق السماء.

«حسناً»، أخاطب جيه-تي، «ارتدِ قميصَك بكافة الأحوال، ودعني أرفع هذه الكؤوس عن الطاولة».

كنا نشاهد مباراة في كرة القدم على التلفاز. لم أكن متابعة بالفعل، بل كنت غارقة فيما يشبه أحلام اليقظة، واضعة قدمَيَّ في حضن جيه-تي.

رأيتهما يصعدان الممشى برشاقة كأنهما قادمان لعرض سلعة ما، ثم قرعا الجرس. رفض جيه-تي ارتداء قميصه، ومضى عوضاً عن ذلك ليتوارى في غرفة النوم حيث التلفاز الثاني. أخفضت صوت التلفاز في غرفة المعيشة، ظنّاً بأنني سأتملص من هذين الرجلين بسرعة وسيكون بوسع جيه-تي الخروج مجدداً.

«أأنتِ غريس ماي ستيل؟»، سأل الرجل المسن عندما فتحت الباب ووضعت يدي على القفل داخل الشبك.

قلت: «ولست بحاجة لشراء شيء».

«ما الذي دفعك للاعتقاد بأننا بائعان؟»، سألني بتلك اللكنة الجنوبية المرحة التي تدمع مقلتيّ.

إذاً، دلفا المنزل بطريقة أو بأخرى، وأول ما فعله الشاب كان رفع صوت التلفاز بضع درجات. يقارب طوله خمس أقدام وتسعة إنشات، بمسحة أنثوية بعض الشيء، ببشرته البيضاء الداكنة وفمه الأحمر المتجهِّم. شعرُه أسود مجعّد ويشبه المستوطنين المولودين في لويزيانا.

«فيما يخصّ إحدى أغنياتك»، قال كاهن المعمودية. لعلّه في الستين من عمره، بشعر ولحية بيضاوين وقميص حريري أبيض وبذلة سوداء من الكتّان وربطة عنق وحذاء أسودين، وعينين رماديَّتين قاسيتين يبدو كأنهما تتعرَّقان.

«إحدى أغنياتي؟».

«يعشق ترواينور هذا أغنياتك. أليس كذلك يا ترواينور؟»، ينكز ترواينور بمرفقه. يرمش ترواينور ويقول شيئاً عجزت عن فهمه بنبرة لم أسمعها جيداً.

«تعلم الفتى الغناء والرقص بينما ترعرع وسطكم في الريف. في الواقع، لقد تعلم منكم كل شيء».

يرفع ترواينور نظره نحوي ويعضّ إبهامه.

أضحكني ذلك.

حسناً، لقد غادرا بعد موافقتي على تسجيلهم لواحدة من أغنياتي. حرر لي الكاهن شيكاً بقيمة خمسمائة دولار، وهمهم الصبي بالموافقة. عدت إلى جيه-تي ضاحكة من رأسي حتى أخمص قدمي.

وبينما كنت أستلقي بجواره وأحتضنُه، سمعت جرس الباب يقرع مرة أخرى.

«ربما نسي قبعته؟»، يسأل جيه-تي.

قلت: «لا آمل ذلك».

يقف الكاهن متكئاً على إفريز الباب، وأعود مرة أخرى للتفكير بمظهر مقلتيه المتعرّقتين متسائلة ما إذا كان العرق يضفي على المقلتين لوناً وردياً، لأن مقلتيه كانتا ورديتين من دون شك. ورديتان ورماديتان، وأدرك فجأة أنني لست معنية البتّة بمعرفة الشخص المختبئ خلفهما.

قال بنبرة لطيفة: «لقد نسيت شيئاً صغيراً. نسيت إبلاغك أنني وترواينور نرغب بالاستحواذ على كافة التسجيلات السابقة للأغنية. الحق أقول لك، إننا نعشقها».

حسناً، سواء كانا يعشقانها أم لا، لست غبية لدرجة السماح لهما بذلك بلا مقابل. فقلت له: «حسناً، سيكون ذلك مكلفاً». لأنه، وفي واقع الأمر، لم تحقق الأغنية مبيعات جيدة بذلك القدر على الإطلاق، فسررت لأنهما سيستحوذان عليها. ومن جهة أخرى، فاستماعهما لأغنيتي بمفردهما من دون أن يتسنَّى لغيرهما سماعها دفعني إلى التريُّث.

وعليه، أوضح لي الكاهن بشكل أو بآخر، بأنني المستفيدة من كل الصفقات التي اقترحها حتى الآن. سألني:

«أما دفعت لك خمسمائة دولار؟ أي رجل أبيض - ناهيك عن الملون - سيدفع لك مبلغاً أكبر؟ وباستحواذنا على كافة تسجيلاتك لتلك الأغنية بالتحديد: أولاً، ستحصلين على العائدات. دعيني أسألك، ما السعر الذي حصلت عليه لقاء تلك الأغنية في المقام الأول؟ خمسون دولاراً؟ أعتقد مائة. من دون أية عائدات منها، أليس كذلك؟ حسناً إذاً، ستحصلين على العائدات لدى استحواذنا على كافة التسجيلات. وهذا من شأنه أن يدفع جميع متاجر التسجيلات الإفريقية إلى التنبّه والالتفات إلى غريس ماي ستيل، وستسارع إلى إبراز جميع تسجيلاتك الأخرى المتوفرة لديها، وستصبحين من دون شك واحدة من الأسماء اللامعة بين الفنانين الملونين أصحاب الأعمال المسجلة. وعندها يمكننا أن نعرض عليك خمسمائة دولار أخرى لقاء السماح لنا بفعل كل هذا لأجلك. وأقسم بالله، ستعيشين عيشة هانئة! وستكونين حينها قادرة على الخروج

لشراء ثيابٍ تليق بالنجوم، والكثير من الأزرار البراقة وأمتار من الحرير الأحمر».

كنت قد فتحت الشبْك عندما رأيت أنه بوسعي تحصيل المزيد من النقود منه. وها أنا الآن أمسك به مفتوحاً على مصراعيه بينما كان يحشر نفسه عبر الفتحة بيني وبين الباب. أخرجَ ورقة أخرى وذيّلتها بتوقيعي.

مضى إلى السيارة بخطوات أشبه بالهرولة، وانزلق راكباً بجوار ترainor الذي يرخي رأسه على المقعد.

انطلقا بدورة كاملة أمام المنزل ثم اختفيا.

وعندما عدت إلى الغرفة، كان جيه-تي يرتدي قميصه وقال: «هزم فريق «يانكيز»، خصمه «أوريولز»، بنتيجة 10 مقابل 6. أعتقد أنني سأخرج بالسيارة إلى بحيرة «باسكال»، لصيد السمك. أترغبين بمرافقتي؟».

وبينما كنت أرتدي سروالي، كان جيه-تي يحمل الشيكّين.

قال: «كم أفتخر بامرأة قادرة على كسب النقود من دون مغادرة المنزل». همهمت لسماعي ذلك، فقد التقينا في أولى الحانات الصغيرة الوضيعة التي كنت أتنقل بينها للغناء، وأكسب أحياناً عشرة دولارات لنفسي في الليلة إذا حالفني الحظ، وأحياناً أعود خالية الوفاض إلى المنزل، لا شيء معي سوى حياتي. وقد أحبّ جيه-تي تلك الأيام، وسرعتي وقدرتي على لفت الأنظار واستعدادي الدائم للتنقل من بلدة إلى أخرى. أحبّ أيضاً كيف كان غنائي يُبكي المزارعين المعدمين كالأطفال ويدفع النساء إلى الصراخ قائلات «عزيزي، صه! فهذا طبع الرجال، يحبّون أي نمط تعوّدينهم عليه».

1956

ذات ليلة، هاتفتني حفيدتي الصغيرة: «أمي الصغيرة، أمي الصغيرة، هناك رجلٌ أبيض يغني إحدى أغانيك على التلفاز! شاهدي القناة الخامسة».

يا إلهي، إنه ترابنور لا غيره. ما زال يبدو نصف نائم من عنقه فما فوق، لكنه يقظٌ نوعاً ما وبطريقة فاحشة من الخصر فأسفل. أدى أغنيتي بصورة لا بأس بها، لكن زعيق الجمهور وصراخه لم يكن بسبب الأغنية وحسب، بل بسبب تلك الحركة الصغيرة الفاحشة من خصره وما دون.

قلت وأنا أصيخ السمع إليه: «حسناً، يا إلهي ارحمْنا برحمتك». ولو أغمضت عيني، لخيّل إليّ أنني أنا الواقفة هناك. فقد اقتبس كل منعطفات صوتي، وكلّ ما مر عليه من شوارع جانبية وجادات وإشارات ضوئية وتحويلات القطارات وكل ما فيه. اقشعرّ بدني لذلك.

وأينما حللت، سمعت ترابنور ينشد أغنيتي، وجميع الفتيات البيض الصغيرات يلُكْنَها. لم تسبق لي رؤية هذا العدد من تسريحات ذيل الفرس على مدّ نظري طيلة حياتي. لقد كنّ في غاية *الفخر*. وكان هو *عبقرياً*.

لقد أمضيت ذلك العام بطوله أحاول إنقاص وزني، وقد شغلني هذا كثيراً إلى جانب ارتفاع ضغط الدم والسكّر. لقد حقّق ترابنور نجاحاً مدوّياً من إحدى أغنياتي، وما زلت أمتلك سبعمائة دولار من أصل ألف دولار في البنك، ولو كان بمقدوري فقط إنقاص وزني، لأصبحت الحياة جميلة.

1957

تخلَّصت من عشرة أرطال في عام 1956، تلك هي هديتي لنفسي في عيد الميلاد. وكنت برفقة جيه-تي والأولاد وأصدقائهم وأحفادهم بمختلف فئاتهم، قد فرغنا للتو من تناول طعام العشاء – الذي استعدت بسببه تسعة أرطال ونصف من أصل العشرة التي كنت قد خسرتها – ومن عساه يظهر عند الباب الأمامي حينها سوى ترابنور. «أمي الصغيرة، أمي الصغيرة! إنه ذلك الرجل الأبيض الذي يغني...». لم يعد الأطفال ولا غيرهم يسمّونها أغنيتي. حدث ذلك بطريقة مضحكة، فصحيح أن ترابنور والكاهن استحوذا على كافة تسجيلاتي، لكنه كتب على أغنيته المسجلة

«كلمات غريس ماي ستيل». لكن ذلك كان مجرد اسم آخر على الغلاف، تماماً مثل «إنتاج تسجيلات آبيكس».

على التلفاز، كان ميّالاً إلى ارتداء الثياب وفقاً لتوجيهات الكاهن، لكن مظهره مقبول الآن.

قال: «عيد ميلاد مجيد».

«لك أيضاً يا بني».

أجهل لماذا ناديته «بني». حسناً، جميعهم أبناؤنا بشكل أو بآخر، فالشرط الوحيد لذلك هو أن يكونوا أصغر منّا سناً. لكن ترainor بدا كأن العمر يتقدم به مع كل دقيقة تمضي.

قلتُ: «تبدو مرهقاً. ادخلْ لتناول كأسٍ من شراب عيد الميلاد».

طوال حياته، عجز جيه-تي عن التعامل بلباقة مع رجلٍ أبيض غير ربّ عمله، لكنه سكب لترainor كأساً من البوربون والماء، ثم اصطحب جميع الأطفال والأحفاد والأصدقاء وغيرهم إلى الحجرة الصغيرة. وبعد قليل، تناهى إلى مسامعي صوت ترainor يشدو بالأغنية وهي تصدح من جهاز «الستيريو». وكانت تلك هدية ظريفة لعيد الميلاد في نظر أطفالي.

نظرت إلى ترainor بتواطؤ. لكن مظهره أوحى لي أنها آخر شيء في العالم قد يرغب بسماعه. كان رأسه يتدلّى إلى الأمام فوق حضنه، ويداه تمسكان بالكأس ومرفقاه على ركبتيه.

قال: «أشعر كأنني غنَّيتُ هذه الأغنية مليون مرة هذا العام. فقد غنَّيتها في برنامج «جراند أولي أوبري»، وفي برنامج «إد سوليفان»، وبرنامج «مايك دوغلاس»، وفي ملعب «كوتون باول»، وملعب «أورانج باول». غنيتها في المهرجانات والمعارض، وغنيتها خارج البلاد في روما بإيطاليا، ومرة في غواصة تحت سطح البحر. غنَّيتها وغنَّيتها، وأكسبُ منها أربعين ألف دولار يومياً، أتعلمين ماذا؟ ليست لديَّ أدنى فكرة عمّا تعنيه الأغنية».

«ما الذي تعنيه بسؤالك عمّا تعنيه؟ إنها تعني ما تقوله كلماتها». جلّ ما

أمكنني التفكير به: هذان الأحمقان يجنيان من أغنيتي أربعين ألفاً في *اليوم الواحد* وسيعودان الآن ليحاولا الاحتيال عليّ وسلبي الألف الأولى.

قلتُ بحذر: «إنها مجرَّد أغنية». وتابعت باستهجان: «لو تسكّعت مثلي وقتاً طويلاً برفقة الكثير من الرجال عديمي الشأن، لغنّيت الكثير منها».

قال: «أوه، حسناً». وبدأت أساريره بالانفراج. «مررتُ وحسب لإبلاغك بأنني أراكِ مغنِّيةً رائعة». لم يتورَّد خدَّاه خجلاً لقوله ذلك، بل قاله بصراحة وحسب.

«ابتعتُ لك هدية صغيرة بمناسبة عيد الميلاد أيضاً. إليك هذا الصندوق الصغير، احتفظي به لحين ابتعادي بالسيارة. ثم احمليه خارجاً تحت أول عمود إنارة في الشارع الخلفي بعيداً أمام ذلك المنزل الأخضر. افتحي الصندوق وسوف ترَين... حسناً، سوف ترَين وحسب».

أيّ شيء استحوذ على هذا الفتى، أتساءل الآن بينما أحمل الصندوق. وفي اللحظة المناسبة، نظرتُ من النافذة لأرى رجلاً أبيض آخر يقترب ليستقلّ السيارة برفقته، وخلفه تنطلق سيارتان أخريان تكتظان بالرجال البيض. كانوا جميعاً في سيارات سوداء طويلة وكأنها موكب جنازة.

«ماما الصغيرة، ماما الصغيرة، ما الهدّية؟»، أقبلت إحدى حفيداتي راكضة وبدأت بجذب الصندوق المغلف بورق أعياد الميلاد الملوَّن، ذلك النوع الثخين باهظ الثمن الذي يصعب تخيّل أنّهم صنعوه فقط ليكون مصيره إلى النفايات.

تبعني جيه-تي وبقية الحشد خارج المنزل، إلى أعلى الشارع وصولاً إلى عمود الإنارة أمام المنزل الأخضر. خلا الشارع إلا من سيارة «كاديلاك»، بيضاء بشبك أمامي ذهبي، جديدة كلياً وتخطف الأنظار، استغرقنا جميعاً في التمعُّن بها حتى أنني كدتُ أنسى الصندوق الصغير في يدي. وبينما انشغل الآخرون بالإعجاب بها، نزعت بحذر الورق والشريط وطويتهما لأضعهما في جيب سروالي. فماذا وجدت سوى زوج من المفاتيح الأصلية الذهبية لسيارة الكاديلاك.

وبكل زهو، لوّحت بالمفاتيح أمام الجميع وفتحت قفل السيارة، أشرت إلى جيه-تي أنْ «اصعدْ من الجانب الآخر»، ثم انطلقنا وبقينا خارج المنزل ليومين.

1960

حسناً، كان الفتى قد اكتسب شهرةً جيدة بحلول هذا اليوم. ورغم أنه ما زال ذلك المخلوق الصغير الخجول في العشرينيّات من عمره، إلا أن الجميع أصبحوا يلقّبونه «إمبراطور الروك أند رول».

وماذا عساه يحدث الآن سوى التجنيد الإلزامي.

حسناً، يقول جيه-تي، ها هو عالَم إمبراطور الروك أند الرول يمضي من دون رجعة.

لكن الفتيات التصقن به كجلده حتى في الجيش، كما شاهدنا في نشرات الأخبار.

كاتَبَني من ألمانيا:

عزيزتي غريس ماي،

كيف حالك؟ آمل أن تكوني بخير كحالي عند إرسالي هذه الرسالة. قبل التحاقي بالجيش، كنت قد اكتسبت كثيراً من الوزن وتحولت إلى إنسان عصبي يغضبه القيام بكل تلك الحركات الغبية. لكنني الآن أمارس الرياضة وأتناول طعاماً صحياً وأحظى بقسط كبير من الراحة. وأشعر بيقظة لم أعهدها طوال عشرة أعوام.

أتساءل ما إذا كنت تكتبين مزيداً من الأغاني؟

المخلص،

ترانيور

أجبته قائلة:

بنيّ العزيز،

جميعنا بخير بنعمة من الله ونأمل أن تصلك هذه الرسالة وأنت في حال مماثل. أمضي مع جيه-تي ساعات الليل والنهار خارجاً في تلك السيارة التي أهديتني - وتعلم أنه ما كان لزاماً عليك فعل ذلك. ثم أنني ممتنة أيضاً لمعطف الفرو والفرن الجديد ذاتي التنظيف. أما إذا أرسلتَ مزيداً من الطعام من ألمانيا، فسوف أضطر إلى فتح متجر في الحي فقط لأتخلص منه. حقيقةً، لدينا ما يكفي ويزيد من كل شيء وقد أغدق الله علينا فبتنا لا نشتهي شيئاً.

سعيدةٌ لسماع أنك بخير وتحظى بقسط كافٍ من الراحة، وما من شيء يساعد إلى جانب ذلك أفضل من الرياضة. أمضي مع جيه-تي بعض ساعات النهار في التمرين، فلا نذهب لاصطياد السمك في الحديقة.

حسناً، إلى اللقاء أيها الجندي.

المخلصة،

غريس ماي

كتب قائلاً:

عزيزتي غريس ماي،

آمل أن يكون المحراث الكهربائي الذي كلّفت أحد المتاجر في الوطن بإرساله إليكم قد نال إعجاب جيه-تي وإعجابك. فقد تصفحت تلالاً من الكتالوجات بحثاً عنه، رغبة بشيء تستطيع حتى المرأة استخدامه.

أفكر منذ فترة بتأليف بعض الأغاني بنفسي، لكنني كلما أنهيت واحدة منها شعرت أنها لا تتحدث عن أي شيء عايشته شخصياً بالفعل. يرسل لي وكيل أعمالي باستمرار أغانٍ كتبها آخرون لكن وقعها سخيف وحسب لدرجة أنني أواجه صعوبة في إنهائها من دون الشعور بالغثيان.

ما زال الجميع يعشق أغنيتك تلك ويسألونني دائماً عمّا تعنيه برأيي، الحق أقول لك. أقصد أنهم يرغبون بمعرفة ما أرغب بمعرفته تماماً. من أين جادت بها حياتك؟

المخلص،

ترائينور

1968

لم أرَ ذاك الفتى لمدة سبعة أعوام، بل ثمانية. لأن الجميع تقريباً كانوا قد قضوا نحبهم عندما رأيته مجدداً. مالكوم إكس؛ كينغ؛ الرئيس وشقيقه؛ وحتى جيه-تي الذي قضى جَرَّاء نزلة برد استقرت في رأسه ككتلة جليد فشلت كل جهودنا في تحريكها حتى جاء يومٌ رفع فيه ظهره عن السرير ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

ساعدني صديقه الوفي هوراس في دفنه، ثم بدأت بمواعدة هوراس بعد عام من ذلك. كنا جالسين على أرجوحة الشرفة الأمامية ذات ليلة صيف في ظلام ساعة الغسق، وشاهدت حينها موكباً مهيباً من الأضواء يوشك علِى التوقف.

«يا توليدو المقدسة!»، قال هوراس (يمتلك صوتاً مغرياً فعلاً مثل راي تشارلز[1]). انظري إلى ذلك! قاصداً الخط الطويل من السيارات اللامعة والرجال البيض يقفزون من الأبواب الجانبية ويصطفون متأهبين ببذلاتهم الصيفية البيضاء. لظننتهم ملائكة لو ارتدوا معها الأجنحة، أو عصابة «كلان»[2] لو ارتدوا معها القلنسوات.

1- راي تشارلز (1930 - 2004): مغنٍ ومؤلف موسيقي أميركي شهير، ويعتبر من رواد موسيقا «السول».

2- كو كلاكس كلان: الحركة العنصرية الأمريكية التي نادت بتفوق البيض ومناهضة السود والمهاجرين.

أقبل تراينور متبختراً على الممشى.

أدركتُ فجأة الالتباس الذي قد تسببه هيئته، فقد يظنه بعضهم رجلاً عربياً كأولئك الذين تراهم في كتب الحكايات، بدينٌ وغضّ ولا يلقي لوزنه بالاً على الإطلاق. ومن سيعنيه ذلك طالما يمتلك هذا المقدار من المال؟ يرتدي تراينور أيضاً ملابس تشبه شخصيات كتب الحكايات إلى حد ما. أقسم أنه يتزين بقرابة عشر قلائد وطقمين من الأساور على ذراعيه، وخاتماً على الأقل في كل إصبع، ونوعاً من الأبازيم على حذائه، لدرجة أن الأنوار المتلألئة تلمع أمام عينيك إذا ما رأيته يمشي.

«غريس ماي»، ناداني وهو في طريقه ليعانقني، «جيه-تي؟».

شرحت له أن جيه-تي قد فارق الحياة. وأن هذا هو هوراس.

«هوراس!»، يقول بنبرة حائرة لكنها لبقة، تتملّكه الدهشة إلى حدٍّ ما، «هوراس!».

انتهى دور هوراس هنا، إذ دخل المنزل دون رجعة.

«كلانا كسبنا بعض الوزن على ما يبدو»، أقول له.

يضحك. للمرة الأولى في حياتي أسمعه يضحك. ليست ضحكة بكل معنى الكلمة ولست على يقين أنها أفضل من عدمها.

يوشك بالتأكيد على التحول إلى شخص بدين، لكنه ما زال رشيقاً مقارنة بي، إذ لن أعود بحياتي إلى وزن 300 رطل وقلت لنفسي للتو، ليذهب ذلك إلى الجحيم. استغرقت بالتفكير في الموضوع ذات يوم فوجدت: عدا عن حقيقة ما يتداولونه حول أضرار البدانة على الصحة، لكنها لم تكن مشكلة بالنسبة لي مطلقاً، إذ لطالما كنت محبوبة لدى الرجال، ولم يتذمر أطفالي من ذلك إطلاقاً. ثم أنهم بدناء أيضاً. وكوني بهذه البدانة يعني أنني صاحبة مظهر مميز، تراني مقبلة فتتبين وجودي.

يقول: «غريس ماي، جئتك بدعوة شخصية لتناول العشاء في منزلي غداً». صدرت منه ضحكة عجزت عن تشبيه الصوت الذي رافقها.

سألني: «أترين أولئك الرجالِ في الخارج؟ لقد سئمت وتعبت من تناول الطعام برفقتهم. ليس لديهم ما يتحدثون عنه، ولهذا أفرط في الطعام. أما إذا أتيتِ للعشاء غداً، بوسعنا التحدث عن الأيام الخوالي، وبوسعك إخباري عن المزرعة التي ابتعتها لك».

قلت: «لقد بعتها».

«حقاً؟».

قلت: «أجل، بعتها. فمجرد قولي إنني أحب ممارسة الرياضة بالعمل في الحديقة لا يعني أنني رغبت بخمسمائة فدّان. بالأحوال كافة، لقد أصبحتُ فتاة مدينة. صحيح أنني ترعرعت في الريف، فقيرة معدمة بكل معنى الكلمة، لكن ذلك أصبح شيئاً من الماضي».

«حسناً»، يقول، «لم أتعمّد إهانتك».

جلسنا لبضع دقائق ننصت لأصوات الجداجد.

ثم قال: «كتبت كلمات تلك الأغنية بينما كنت تعيشين في المزرعة، أليس كذلك؟ أم كان ذلك بعد رحيلك عنها مباشرة؟».

«أكلّفت أحدهم بالتحرّي عني؟» - سألته.

قال: «خضتِ وبيسي سميث عراكاً بسببها ذات مرة».

«كنتَ تتحرى عني».

قال: «لكنني أجهل سبب العراك. تماماً كما أجهل ما حلّ بزوجك الثاني. قضى زوجك الأول نحبه إعداماً على الكرسي الكهربائي في تكساس. أكنتِ على علم بذلك؟ كان زوجك الثالث يضربك، وسرق أزياءك الخاصة بالجولات الموسيقية وسيارتك ثم تقاعد بصحبة إحدى فتيات الكورس في توسكيجي وما زال هناك حتى اليوم»، قال ضاحكاً.

غضبت، لكنني استعدت هدوئي فجأة. كان ترواينور يتحدث بنبرة حالمة واستطعت رغم الظلام تمييز شيء غير طبيعي في عينيه. كأن شيئاً ما يجلس هناك ويحادثني ولكن ليس بالضرورة أن شخصاً ما يقبع وراءه. ضحك مجدداً وقال: «لقد تخليتِ عن فكرة الزواج وتبدين أكثر

سعادة بذلك. أما أنا فتزوجت، لكن الأمور سارت عكس ما ينبغي وعجزت كلياً عن حشر حياتي في الموضوع أو إخراجها منه. كان ذلك أشبه بأحدٍ يغني أغنية غيره، لقد قلّدت الأسلوب اللازم بحذافيره، لكنني بقيت على جهل مطلق بمعنى الزواج».

«اشتريت لها خاتم ألماس كبير بحجم قبضة يدك، اشتريت لها الملابس، وشيّدت لها قصراً. لكنها سرعان ما رغبت برحيل الفتيان بحجة أنهم يملؤون الطابق الأول بدخان سجائرهم. يا للجحيم، هناك خمسة طوابق أخرى».

قلت: «لا داعي للحزن. لا داعي. كثيرات هنّ أمثالها».

رفع رأسه: «هذا شيء مما تعنيه الأغنية، أليس كذلك؟ أنّ لا داعي للحزن. فمهما كان السبب، هناك الكثير غيره».

قلت: في واقع الأمر، لم أكن على قناعة بذلك مطلقاً يوم كتبت تلك الأغنية. فكل ما حولي كان محض خداع. والخدعة تكمن في أن تعيش العمر الكافي ليتسنى لك الاستفادة من حيلك. ولو قدّر لي أن أغني هذه الأغنية اليوم لاغرورقت عيناي بالدموع. «لأني عشت ما يكفي لأعرف أنها الحقيقة». تلك الكلمات قد تسندني.

قال: «لم أبلغ ذلك العمر بعد».

«تبدو في طريقك إلى ذلك»، قلتُ له. «أجهل لماذا، لكن الفتى بدا بحاجة إلى بعض التشجيع. ولا أعلم أيضاً، لماذا بطريقة أو بأخرى يبدو أن أي حديث تخوضه مع الفتيان البيض يفضي بك إلى التربيت على أكتافهم وطمأنة نفوسهم. لكن ليذهب ذلك إلى الجحيم، فأنا الآن أكنّ لهذا الفتى شيئاً من المشاعر. وما كنت لأنام بمفردي في سريره ليلة واحدة مهما كان المقابل، فما من سوء يضاهي أن تجتاح شهرتك العالم لشيء تعجز حتى عن فهمه. وهذا ما حاولت قوله لبيسي التي رغبت بتلك الأغنية ذاتها. فبعد سماعي أثناء التدرب عليها، قالت ويداها على فخذيها: غرايس ماي، سأغني أغنيتك هذه الليلة، إنها تعجبني».

«شفتاك منتفختان أكثر من اللازم لغنائها»، قلت لها. لئيمة كانت وقوية، لكنني أطحت بها.

«ألا تكفيك شهرتكْ بأغانيك الخاصة؟ دعيني وشأني»، قلت لها. لكنها شكرتني لاحقاً. ففي ذلك الحين، أصبح العالم يعرفها باسم الآنسة بيسي سميث، وبقيت أنا الآنسة غرايس ماي النكرة من نوتاسولجا.

في اليوم التالي، وصلت سيارات الليموزين هذه كلها لاصطحابي؛ خمس سيارات واثنا عشر حارساً شخصياً. انتقى هوراس صبيحة ذاك اليوم للبدء بطلاء المطبخ.

قلتُ: «دعك من طلاء المطبخ أيها الأحمق. فالسبب الوحيد لرغبة صبيّنا الغبي برؤيتي لقصره هو عزمه على إهدائنا منزلاً جديداً».

«وماذا ستفعلين بالمنزل الجديد؟»، سألني بينما وقف يرتدي قميصاً بأكمام قصيرة ويحرك الطلاء.

«سأبيعه. سأعطيه للأولاد. أسكنه في عطلات نهاية الأسبوع. ليس مهماً ما سأفعله، فهو لا يبالي بالتأكيد»، وقف هوراس قبالتي يهزّ رأسه، «فتاتي، تبدين جميلة من دون شك»، يقول، «أيقظيني عند عودتك».

«أحمق»، قلت وأنا أربت على باروكتي قبالة المرآة.

«منزل الفتى كان شيئاً من خارج هذا العالم. فأولاً، تصل إلى هذا الجبل ثم تتابع طريقك في القيادة لصعود هذا الطريق المحاط بشجيرات الماغنوليا. أتنمو الماغنوليا على الجبال؟» تساءلت، «ثم تصادفك البحيرات والبرك وغزالٌ وبعض الخرفان. وأخمن أنّ هذين يمثلان إنجلترا وويلز، أو شيئاً آخر من أوروبا. ولا تنفك الأشياء تصادفك، وكلها جميلة. إلا أن الرجل الذي يقود السيارة لا يلتفت إلى شيء عدا الطريق».

«أحمق. وأخيراً، وبعد كل هذا الزمن، تبدأ بصعود الممر حيث المزيد من الماغنوليا، لكنها ليست على ما يرام. فالطقس على هذا الارتفاع

أقرب للبرودة ولا أعتقد أنها ستبقى على قيد الحياة. ثم يقع نظري على مبنىً جدير باسم «فندق تارا»، لو كان له اسم، لما فيه من أعمدة وأدراج وثريّات خارجية وكراسٍ هزازة».

«كراسٍ هزازة؟ وليكن، وذاك هو الفتى على الأدراج بجاكيت حريرية خضراء داكنة تشبه تلك التي تراهم يرتدونها على شاشات التلفاز آخر الليل، بمظهرٍ يشبه دراكولا؛ بدين وخلفه يشمخ ذلك المنزل الضخم، وبجواره تقف صورة الحُسن البيضاء الصغيرة تلك التي يعرفني عليها بأنها زوجته».

متوتراً كان عندما عرَّفنا على بعضنا بعضاً، وقال لها: «هذه هي غريس ماي ستيل. أودّ أن تعرفيني أكثر. أقصد...»، وتحدجه بنظرة تستعر لهيباً يقلي اللحم.

«هلّا تفضلت بالدخول»، غريس ماي، تخاطبني، وكانت تلك آخر مرة أراها فيها.

يفتش حوله عن شيء يقوله أو يفعله، ويقرّر اصطحابي إلى المطبخ. نمضي عبر المدخل مروراً بالردهة وغرفة الفطور وغرفة الطعام وممرّ الخدم ووصلنا أخيراً إليه. وأول ما لفت انتباهي، وجود خمسة مواقد ويبدو أنه على وشك أن يحدّثني عن أحدها.

«مهلك»، قلت له، «لا تعنيني المطابخ بشيء، لنذهب للجلوس في الشرفة الأمامية».

إذاً، قفلنا راجعين وجلسنا على كرسيَّين هزَّازين حتى حان موعد العشاء.

«غريس ماي»، يقول وهو جالس في الطرف الآخر من الطاولة يتناول قطعة دجاج مقلية من المرأة الواقفة بجواره: «أخبِّئ لكِ مفاجأة صغيرة».

«منزل، أليس كذلك؟»، سألتُ غارزة شوكتي في قطعة نقانق.

«قد أفرطت في دلالك»، يقول. ويلفظ عبارة أفرطت في دلالك على نحو مضحك. قالها مغمغماً فبدا من وقعها أنّ لسانه أثخن بكثير من أن

يتسع له فمه. وبسرعة فرغ من تناول قطعة الدجاج وها هو الآن يلتهم النقانق وضلع الخنزير. أفرط في دلالي أنا، أفكر بيني وبين نفسي.

«لديّ منزل بالفعل.ٌ وهوراس يقوم بطلاء المطبخ في هذه اللحظة. لقد اشتريت ذلك المنزل، وأطفالي مرتاحون في ذلك المنزل».

«لكن المنزل الذي اشتريته لكِ يشبه منزلي تماماً، إلا أنه أصغر قليلاً».

«لست بحاجة إلى منزل. ومن سيقوم بتنظيفه بكافة الأحوال؟».

تعتريه الدهشة.

«حقاً، أعتقد أن بعضهم يتقدمون ببطء شديد».

«لم يخطر لي ذلك. ولكن ما المانع، سأدع أحدهم يسكنه».

«لا أرغب بسكنى أناسٍ لا أعرفهم حولي، فهذا يثير أعصابي».

«لا؟ حقاً؟».

«ولمَ سأرغب بالاستيقاظ لرؤية أناس لا أعرفهم حتى؟».

في الطرف الآخر من الطاولة، يجلس محدِّقاً إليّ ويقول: «تحمل الأغنية شيئاً من ذلك الشعور، أليس كذلك؟ لا الكلمات، بل الشعور. لمَ سأرغب بالاستيقاظ لرؤية أناس لا أعرفهم؟ لكنني أرى في اليوم عشرين شخصاً لا أعرفهم، بمن فيهم زوجتي».

«ليس من السوء الاستيقاظ لرؤية هذا الطعام»، قلت، «فقد عثر الفتى على داهيةٍ في تحضير خبز الذرة».

صوّب نحوي نظرة في غاية العمق. ضحك ضحكة قصيرة: «يرغبون بما بحوزتك لكنهم لا يرغبون بكِ». يرغبون بما بحوزتي لكنه ليس ملكي، وهذا سبب تعطشهم لغنائي الذي يمنحهم نكهة شيء ما، لكنهم لا يحصلون على الشيء ذاته. إنهم أشبه بقطيع كلاب تلهث لازدراد رائحة ما.

«أتتحدث عن معجبيك؟».

«صحيح. صحيح»، يقول.

«لا تقلق حيال معجبيك»، أقول، «فهم عاجزون عن التفريق بين ثقوب مؤخراتهم وثقبٍ في الأرض. أشك بوجود إنسان صادق واحد بين هذا الرهط».

«هذا مقصدي بالتحديد. سحقاً، هذا مقصدي بالتحديد»، يضرب الطاولة بقبضته. إنها صلبة ومتينة حتى أنها لا تهتز قيد شعرة. «تحتاجين جمهوراً صادقاً، لا أناساً جلّ همهم الكذب في وجهك».

«أجل»، أقول، «كان جمهوري صغيراً مقارنة بجمهورك، لكنه كان جمهوري. كنت سأدفع عمري لأغنّي لهم أغانٍ تخصّ غيري من دون أن أعلم عنها شيئاً».

لا بدّ أنه ضغط زرّاً ما تحت الطاولة، إذ ظهر أمامنا واحد من خدّامه فجأة كأحد الزومبي الأموات الأحياء.

«استدعِ جوني كارسون»، يقول.

«على الهاتف؟»، يسأل الزومبي.

«على الهاتف»، يقول ترواينور، «وماذا ظننتني أقصد، آت به من على الشرفة الأمامية؟ هيا حرّك مؤخرتك».

إذاً، ها نحن بعد أسبوعين ضيوفٌ على برنامج جوني كارسون.

يرتدي ترواينور صدرية جميلة ويبدو بديناً بعض الشيء لكنه أنيق في الغالب، بينما تتعالى من حولنا صيحات جميع النساء المعجبات به وبأغنيتي. يقول ترواينور: «تتواجد معنا الليلة مؤلفة كلمات أغنيتي الأولى التي حقّقت نجاحاً ساحقاً، وقد وافقت على غنائها لنا جميعاً، تماماً كما غنّتها منذ أربعة وخمسين عاماً خلتْ. سيداتي وسادتي، إليكم العظيمة غريس ماي ستيل».

حسناً، حاولت التخلص من بضعة أرطال بنفسي، لكن فشلي في ذلك اضطرني لتفصيل فستان ضخم. وهكذا تدحرجتِ نوعاً ما إلى جوار ترواينور الذي ظهر بجانبي كالقزم، حتى أن محاولاته لإحاطتي بذراعه وعناقي بدت مضحكة للجمهور الذي بدأت ضحكاته تتعالى بالفعل.

أدرك أن هذا يثير حنقه، لكنني أقابلهم بابتسامة. تخيلوا أنكم تنتحبون لمدة عشرين عاماً من دون معرفة ما الذي يدفعكم إلى الانتحاب؟ ويغيب عنكم الشعور بالنهايات والبدايات، تماماً كما يغيب عن الخنازير البرية.

«لا عليك يا بني»، أقول. «لا تغتظْ لأجلي».

أشرع بالغناء. وغنائي... رائع. فالقدرة على الغناء الجيد لا تقتصر على امتلاك صوت جميل وحسب. صحيح أن الصوت الجميل يساعد، لكن النشوء مثلي في كنيسة «هارد شيل بابتيست»، يعني أن تفهم مبكراً أن المغني هو الذي يغني بالفعل، وأن الذين ينتظرون البرامج والترتيبات والرسائل من الوطن ليسوا إلا أصواتاً جميلة تحتلُّ مساحة جسدية.

هناك كنتُ، أشدو بأغنيتي الخاصة، بطريقتي الخاصة. أمنحها كل ما أوتيت وأستمتع بكل لحظة منها. وعندما فرغت، كان ترواينور واقفاً هناك يصفّق ويصفّق، يصوّب نظرات دافئة حنونة نحوي أولاً ثم نحو الجمهور، كأنني أمه بالفعل. صفَّق الجمهور بأدب لمدة ثانيتين تقريباً.

بدا تراينور مشمئزاً.

اقترب مني وحاول عناقي مجدداً. تعالت ضحكات الجمهور.

يناظرنا جوني كارسون كائنين من غرباء الأطوار.

تراينور يستعر غضباً كالجحيم. كان من المفترض أن يغني ما يعرف باسم أنشودة غرام، لكنه بدلاً من ذلك، أخذ الميكروفون واستدار نحوي قائلاً: لِنَرَ الآن إن كانت نسختي المقلدة قادرة على المضاهاة. يبدأ بغناء الأغنية ذاتها، *أغنيتنا*، وأستغرق بالتفكير بينما أنظر إلى جمهوره الأخرق. يؤدي الأغنية تماماً كما اعتاد أداءها، بصوتي، بنبرتي، بانحناءاتي، بكل شيء. لكنه ينسى بعض العبارات وتبدأ الصيحات النسائية بالتعالي حتى قبل انتهائه.

يجلس بجواري منهكاً كالمهزوم.

«لا عليك يا بني»، أقول بينما أربت على يده. «هؤلاء غرباء عنك. حاول أن تسعد المقربين منك».

«هل هذا في الأغنية؟»، يسألني.

قلت: «ربما».

1977

بقينا على تواصل لبضعة أعوام، ثم انقطعت أخباره نهائياً. لكن محاولتي للتخلص من وزني الزائد استحوذت على كامل الاهتمام الذي تسنى لي تخصيصه، وقررت أخيراً مواجهة حقيقة أن بدانتي هي الجرح الذي رفضت الإقرار به حتى لنفسي، وأنني سعيت جاهدة لدفنه مذ يوم مولدي. وفي الحقيقة، تصبح البدانة مسألة لا تبعث على السرور مع تقدم الإنسان بالعمر، إذ تتحول إلى شيء متكتِّل ومترهِّل. بل مقرف. وهكذا، قلت لهوراس في أحد الأيام: «سأزيل عني طبقات الخراء هذه».

التزم هوراس بالبرنامج كالمعتاد، والله أعلم بذلك الموكب الذي انهال عليّ من أصناف السَّلطة وجبن القريش وعصير الفواكه!

حلمت ذات ليلة أن ترواينور انفصل عن زوجته الخامسة عشرة. قال: «ألتقيهن من دون سبب. أواعدهن من دون سبب. وأتزوجهن من دون سبب. أفعل ذلك كله، لكنني أشعر والله كأن أحداً غيري يفعل ذلك. أشعر أنني عاجز عن تذكر الحياة».

«الفتى في ورطة»، قلت لهوراس.

«لطالما قلتِ ذلك»، قال هوراس.

«حقاً؟».

«أجل. لطالما قلت إنه يبدو نائماً. كيف للإنسان أن يستمتع بحياته إذا أمضاها نائماً؟».

«لست على ذلك القدر من الحماقة في نهاية المطاف»، قلت بينما أستعين بعكازتي للنهوض وأعرج باتجاهه. «دعني أجلس في حضنك بينما تفعل السلطة التي تناولتها مفعولها».

علمنا صباحاً أن ترااينورِ قضى نحبه. بعضهم قال جَرّاء البدانة، بعضهم قال مرض القلب، آخرون قالوا المشروبات الكحولية، وغيرهم قالوا المخدِّرات. هاتفتْني إحدى فتياتي من ديترويت قائلة: «معجباته الحمقاوات في ثورة بكاء، عليك أن تشاهدي التلفاز».

لكنني لم أرغب برؤيتهن يبكين ويبكين من دون حتى معرفة سبب بكائهن. ستصبح هذه البلاد مثيرة للشفقة يوماً ما، فكَّرت بيني وبين نفسي.

كيف أفلتُّ من العقاب
لقتلي أحد ألمع المحامين في الولاية؟
الأمر بمنتهى السهولة

ولدْتُ لوالدين غير متزوجين، ولم أعرف أبي البتّة. لا بدّ أن أمي كانت تعشقه لأنها لم تذكره بسوء مطلقاً أثناء طفولتي، كأنه لم يعش على وجه هذه الأرض. بيتنا كان في شارع الدواجن، ولماذا أسموه شارع الدواجن؟ هذا ما لم أعرفه قط. أعتقد أن مصنعاً للدجاج كان قائماً هنا في يوم من الأيام. كان الشارع مجاوراً لمركز البلدة تماماً فأتاح لي بلوغ مبنى البلدية مشياً خلال أقل من عشر دقائق، كما تمكنت من رؤية قبة مبنى البلدية - كان لونها ذهبياً - من الساحة الأمامية. وببريقها المتلألئ في الأعالي، لطالما ظننتها مصنوعة من الذهب الحقيقي عندما كنت طفلة صغيرة، ثم جاؤوا بمجسم نسر ووضعوه على القمة، لكنني عجزت عن رؤية قمة المبنى من الأرض عندما كنت أمشي باتجاهه، فقد كان شاهقاً، واعتدت حينها أن أنحني لأمرر يدي فوق العشب. كان العشب شبيهاً بسجادة، نديّاً وحريرياً وعميقاً، وكانت لديهم تلك الأشجار القديمة الضخمة أيضاً؛ أشجار البلوط والماغنوليا. لطالما ظننت أن أشجار الماغنوليا جميلة، حتى أنني ذات ليلة تسلقت إحداها وقطفت منها زهرة متفتحة أخذتها معي إلى البيت، لكن الهواء أتلفها وتحوّل لونها إلى البني لحظة أدخلتها البيت فتساقطت بتلاتها.

عملت ماما في المنازل الخاصة. هكذا اعتادت أن تصف عملها

لمنحه وقعاً ألطف: «أعمل في المنازل الخاصة»، كانت تقول، وكان لذلك وقعٌ ألطف برأيها من «أنا خادمة».

أحياناً، كانت تجنيْ ستة دولارات في اليوم من عملها في اثنين من المنازل الخاصة. لكنها في معظم الأحيان لم تكن تجني ذلك المقدار. وبعد دفع الإيجار وشراء الموز والحليب، لم يكن يتبقّى مما جنتْه شيء.

اعتادت أحياناً تركي بمفردي لعدم وجود من يبقيني لديه، ثم اعتنت بي لفترة سيدة عجوز تقطن في آخر الشارع، أصبحت بالنسبة لي أماً أكثر من ماما، حتى وافتها المنية. فقد كانت ماما تصل البيت وقد نال منها التعب، وقلّما تسنَّت لي فرصة التحدث إليها. وأحياناً، كانت تخرج ليلاً أو تأتي بالرجال إلى المنزل، لكنهم لم يفكروا بالزواج منها إطلاقاً. وحتماً كان شأني لا يعنيهم. أعتقد أن معظمهم كانوا مثل أبي، رزقوا بطفل في مكان ما وتخلّوا عنه، ثم جاؤوا إلى ماما التي وقعت في هواهم كل مرة. أعتقد أيضاً أنها أجهضت عدة مرات على غرار بعض النسوة اللواتي عجزن عن إطعام المزيد من الأفواه. لكنها حاولت.

على أي حال، كانت امرأة عصبية، وأعتقد أنها كانت تعاني من نوبات أو شيء من هذا القبيل لأنها كانت منهكة للغاية. لكنني حينها لم أكن أفقه شيئاً عن الإرهاق والقلق ونقص التغذية المناسبة، وظننت أنها كانت ترغب بالعمل فقط لتبتعد عن المنزل. لم أَلُمْها على ذلك، فالناس حول مسكننا اعتادوا أحياناً إلقاء قطع الأثاث التي لا يريدونها فوق السياج فتناثرت قطع الزجاج المكسور والخرق البالية من حولنا. كان المكان مقرفاً، خاصة في فصل الصيف، حيث الأطفال وصراخهم الدائم والرجال وشتائمهم المتواصلة والنساء وزعيقهن المستمر لسبب من الأسباب... وتعرض فتاة أو امرأة للاغتصاب في هذا الوسط، أمرٌ غير ذي أهمية. فأنا نفسي تعرضت للاغتصاب عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، ولم تعرف ماما بذلك قَطّ ولا أخبرت أحداً بذلك مطلقاً. فما عساهم يفعلون؟ إنه مجرد صبي، عابر سبيل، قريب أحدهم من الشمال.

ذات مرة، كانت ماما تزاول عملها اليومي في أحد المنازل الخاصة وأخذتني معها. كأنني ذهبت إلى بلاد العجائب، كل ما فيها جديدٌ ونظيف حتى قبل شروع ماما بالتنظيف. التقيت المرأة في المنزل ولعبت مع أطفالها لكنني لم ألمح الرجل رغم وجوده هناك في مكان ما بينما كنت في الحديقة مع الأطفال. كنت في الرابعة عشرة، لكنني أعتقد أنني بدوت كامرأة ناضجة، أو ربما في الرابعة عشرة، لا أدري. على أي حال، أقلّني في اليوم التالي أثناء عودتي من المدرسة بناءً على طلب ماما حسب قوله. ركبت السيارة برفقته... أخذني إلى مكتب المحاماة الخاص به، مكتبٌ كبير وسط البلدة، وبدأ يوجه لي أسئلة حول «كيف تعيشين؟»، و«في أي صفٍ أنتِ؟»، وأشياء من هذا القبيل. ثم بدأ بملامستي، فانكمشت مبتعدة. لكنه واصل ملامستي وكنت فزعة... اغتصبني. ثم قال لي أنه لم يغصبني، وأنني شعرت بشيء تجاهه، وأعطاني بعض المال. غرقت في البكاء وأنا أنزل الدرج. وددت لو قتلتُه.

أخفيت الموضوع عن ماما تماماً، ظنّاً مني أنه انتهى عند هذا الحد. لكنه عاد بعد يومين وأوقف سيارته على طريق عودتي من المدرسة، فركبت معه. تلك المرة، ذهبنا إلى منزله وكان الجميع في الخارج، وأجبرني على الاندساس في سرير زوجته. وبعد نحو ثلاثة أسابيع واصلنا فيها القيام بذلك، أخبرني أنه يحبّني. لم أكن أحبه، لكنه بدأ ينظر إليّ نظرة أفضل. أعتقد أن نظافته الشديدة كانت هي السبب، فقد كان كثير الاستحمام وللأمانة لم تصدر عنه حتى رائحة تدلُّ على أنه حيّ. أو ربما كان المال الذي اعتاد إعطائي إياه أو الهدايا التي اشتراها. أخبرت ماما أنني وجدت عملاً كجليسة أطفال بعد المدرسة وكانت مسرورة لتمكّني من شراء احتياجاتي المدرسية، بينما كان كل شيء منه هو.

أمضينا عامين على هذا الحال، حرص خلالهما على ألَّا أحبل، هكذا قال، وهذا ما حصل. وعادةً ما كنت أستلقي على سرير زوجته مستغرقة

في حل مسائل الجبر أو في التفكير بأشياء جديدة سأشتريها. ولكن في اليوم ذاته، وصلت البيت وكانت ماما قد سبقتني ورأتني أترجَّل من سيارته، فأدركتُ عندما انطلق مبتعداً أنني سأنال عقابي.

سألتني ماما أما فهمتُ أنه رجلٌ أبيض؟ أما علمتُ أنه رجلٌ متزوج وأبٌ لطفلين؟ ألا أمتلكُ عقلاً واعياً؟ أتعلمون بماذا أجبتها؟ قلتُ لها إنني أحبّه. حينها، كانت ماما تبكي وتصلّي في الوقت ذاته. وسمع الجيران صراخنا وبكاءنا لأن ماما ضربتني حتى أوشكتُ على الموت بالسلك الذي انتزعته من المكواة الكهربائية التي بقيت على لوح الكوي. ضربتني حتى عجزتْ عن رفع ذراعها ثم باغتَتْها إحدى نوباتها فأصبحت تنتفض وتتعرَّق محاولةً التشبُّث بالأرض، وهذا ما أخافني أكثر من الضرب. حدثتني في تلك الليلة عن شيء قلّما انتبهت له من قبل؛ قالت: «فوق ذلك كلّه، يطلّ والد ذلك الرجل على التلفاز كل ليلة ويقول إن مَن مثلنا ليسوا بشراً حتى. ووالده هو الذي وقف في باب المدرسة قائلاً إن طفلاً أسود لن يدخل مدرسة للبيض إلا على جثّته».

وهل تعتقدون أن ذلك منعني؟ بالطبع لا. بل كنت أشاهد والده على التلفاز يرغي ويزبد واصفاً الدمج بالمؤامرة الشيوعية، وأفكّر في مدى اختلاف ابنه بوبا عن والده! أتفهمون قصدي؟ اعتقدت أنه يحبّني، وكان لذلك معنىً في نظري. وما عساي أعرف عن «حقوق المساواة»؟ ما شأني وشأن «الدمج»؟ فقد كنت في السادسة عشرة من عمري! أحتاج أحداً يقول لي إنني جميلة، وهذا ما كان يسمعني إياه طوال الوقت. حتى أنني ظننته *شجاعاً* للخروج برفقتي. التاريخ؟ وماذا عساي أعرف عن التاريخ؟

بدأ الكره لماما يتسلّل إلى قلبي وأصبحنا نتشاجر بشأن بوبا طيلة الوقت، لأشهر. وواظبت رغم ذلك على التسلل خارجاً للقائه لأن ماما كانت مضطرة للعمل. حدَّثته كيف ضربتني وعن مدى ازدرائها له – امتقع حنقاً لتجرُّؤ أيّ إنسان أسود على ازدرائه – وحدّثته عن النوبات التي كانت تباغتها.

... حسناً، في اليوم الذي بلغتُ فيه السابعة عشرة، في يوم ميلادي السابع عشر ذاته، وقَّعتُ أوراقاً في مكتبه وأودعت أمي مصحّةً للمجانين.

«بعد قضائها ثلاثة أشهر في مصحّة قرطاج للمجانين، تدبّرتْ ماما الحصول على محامٍ بشكل من الأشكال. رجلٌ مسنٌ أقرع يدخن السيجار الأسود الضخم، يسخر منه الناس لعدم امتلاكه مكتب محاماة، لكنه كان المحامي الوحيد الذي وافق على تولي القضية، لأن والد بوبا كان رجلاً عظيم الشأن. اجتمعنا كلنا في مكتب القاضي - لأنه رفض السماح لهذه القضية بالخروج إلى العلن. أتتخيلون ما الذي كان سيحدث لو خرجت بالفعل؟ وأخبر محامي ماما القاضي عن محاولة والد بوبا رشوته. ونهض بوبا وأقسم أنه لم يلمسْني البتّة. ثم نهضت وقلت إن ماما مجنونة. أتعلمون ماذا؟ لقد أمسى ذلك حقيقة دامغة. كانت ماما مجنونة بحقّ وقد فارقَها عقلُها تماماً. فقد أخضعوها للعلاج بالصدمات أو شيء ما... والله أعلم ماذا أيضاً. لكنها كانت خاويةً كمِحجَر عينٍ فارغ، تجلس هناك محدودبة، وقد أبيضَّ شعرها.

وبعد ذلك كله، رغب بوبا باستمرار علاقتنا، إذ شعر أن ماما كانت مجرَّد عقبةٍ أزالها من طريقه. لكنني فجأة - بطريقةٍ لا أودّ حتى التظاهر أنني أفهمها - صحوتُ لنفسي. كأن كل ما حدث حتى هذه اللحظة كان مجرد حلم. وأخبرته أنني أود إخراج ماما. لكنه رفض ذلك؛ واستمر في محاولة إقناعي بالذهاب معه. وفي بعض الأحيان - بحكم العادة ربما - ذهبتُ. فقد فعل جسدي ما يفعله لقاء الدفع. وقضت ماما نحبها. وأنا قتلتُ بوبا.

كيف أفلتُّ من عقاب قتلي أحد ألمع المحامين في الولاية؟ الأمر بمنتهى السهولة. اعتاد الاحتفاظ بمسدس في درج طاولته في المكتب وأخرجته ذات ليلة وأرديته قتيلاً. أطلقت عليه النار بينما كان يرتدي معطفه الشتوي السميك، كي لا أضطر لمشاهدته ينزف. لكنني أعتقد أنني لم آخذ الوقت الكافي لمسح بصمات أصابعي، لأنني، ولأكون

صادقة، عجزت عن تحمل دقيقة واحدة إضافية في ذلك المكان. لم يلاحقني أحد، وقرأتُ في صحيفة اليوم التالي أنه لقي حتفه على يد اللصوص. لعلهم ظنّوا أن «اللصوص»، قد سرقوا كل الأموال التي احتفظ بها بوبا في خزنته – لكنها كانت بحوزتي. فإحدى الجزرات التي اعتاد بوبا تدليتها أمامي كانت عزمَه على إرسالي إلى الجامعة: لم أعلم ما الذي منعه عن ذلك.

أغرب ما حصل أن زوجة بوبا جاءتني المنزل لتسألني إن كان بمقدوري الاعتناءُ بالأطفال أثناء ذهابها إلى جنازة بوبا. وهذا ما فعلته بالضبط، فقد خشيت إثارة شكوكها حيال شيء ما في حال رفضي. وهكذا، في اليوم الذي ووري فيه الثرى، كنتُ في منزله جالسةً على سرير زوجته برفقة أطفاله، أتناول الدجاج المقلي الذي طهتْه زوجتُه جولي.

اليثيا

رسمت تجربة معينة غريبة ملامح حياة إليثيا، لتفضي إلى حقيقة مفادها أنها اعتادت على الدوام حمل مرْطَبَان صغير يملؤه الرماد.

عاش في مسقط رأسها رجلٌ امتلك أسلافه مزرعة كبيرة زرعوا وصنعوا فيها كل ما جادت به الطبيعة. اكتظّت المزرعة بالعبيد، ورغم انقضاء عصر العبودية، إلا أن حفيد مُلَّاك العبيد السابقين كانت لديه وجهة نظر غريبة نحو التملك فيما يخصّ الملوَّنين. كان يحبهم بالطبع. لا في الحاضر - كما كان معروفاً - بل في تلك الأيام، فقد توقف زمان جدّه، خارج حدود ذاكرته وحسب.

افتتح هذا الرجل الذي لم تَرَه إليثيا في حياتها، مطعماً في أحد الشوارع المزدحمة بالقرب من وسط البلدة، أسماه «مطعم العم العجوز ألبرت»، وحقَّق شهرة. وأطلَّ من نافذة المطعم تمثالٌ محشوٌّ يشبه العم ألبرت بذاته، دمية بنّية صغيرة شمعية البشرة بعينين سوداوين براقتَين. شفتاه تبتسمان بحدّة وأسنانه المستعارة تلمع، بينما يحمل بإحدى يديه صينية مغطاة رفعها إلى مستوى كتفه، وعلى ذراعه الأخرى منديلٌ أبيض.

لم يكن بمقدور السود تناول الطعام في مطعم العم ألبرت، رغم عملهم فيه، في المطبخ طبعاً. لكن حشداً منهم اعتاد أيام الآحاد أن يتجمهر للنظر إلى «العم ألبرت»، لمناقشة مدى تشابه الدمية مع الإنسان الحقيقي. تمكَّن الكَهَلة فقط من تذكُّر ألبرت بورتر، بأبصارهم التي ما كانت أفضل من ذاكرتهم. ورغم ذلك، ساد بينهم شيءٌ من الراحة لمعرفة أن شبيه ألبرت

يقف أمامهم يومياً، وإذا كان مبتسماً بطريقة غير معهودة عنه كإنسان، فهذا يعني ربّما، أنّ كلّاً من الذاكرة والبصر على خطأ.

شعر المسنّون بالامتنان للثَّرِيّ صاحب المطعم لمنحهم نفحةً من الشهرة غير المباشرة. فقد كان بوسعهم المرور بجوار النافذة اللامعة حيث وقف العم ألبرت كأنه يهمّ بالقفز إلى الأمام وصينيَّته في يده، عارفين أنه رغم كون الزنوج ممنوعين من الدخول من الباب الأمامي، إلا أن العجوز ألبرت كان بالفعل في الداخل، تغمره البهجة بذلك حتى أذنيه.

أما في نظر إليثيا، فقد تجسد سحر العم ألبرت في أظافره ولطالما تساءلت كيف حصل عليها صانعه، كما تساءلت عن الشعر الأبيض اللامع بسطوع قوي تحت الأضواء. وذات صيف، عملت في تحضير السلطات بمطبخ المطعم، وكانت هي من اكتشفت حقيقة العم ألبرت. لم يكن دمية، بل كان محنطاً. مثل طائر، مثل رأس أيل، مثل سمكة قاروص ضخمة. كان محطنّاً.

وفي إحدى الليالي بينما كان المطعم مغلقاً تسلَّل أحدُهم وسرق العم ألبرت نفسه. كانت تلك إليثيا وأصدقاؤها، الصبيان في صفها بالمدرسة، الذين نادوها «ثيا»، الصبيان الذين اعتادوا شراء ألواح شوكولاتة «ثندربيرد»، وتقاسمها معها. الصبيان الذين غرقوا في الضحك على نكاتها لدرجة أنهم قلَّما تذكَّروا مدى ظرافَتِها. أولئك كانوا أصدقاءها المقرَّبين. وبعناية، أحرقوا العم ألبرت حتى صار رماداً في المحرقة بمدرستهم الثانوية، واحتفظ كلٌّ واحدٍ منهم بزجاجة معبَّأة برماد جسده. وبالنسبة لكلٍّ واحد منهم، كان للسر الذي عرفوه وردّ الفعل الذي اتخذوه، تأثيرٌ في غاية العُمق.

قوَّضت التجربة كافّة الأساسات المتينة التي افترضت إليثيا أنها تستند إليها، إذ تحولت إلى شخص كتومٍ وقلق، يتلفَّت حوله لسماع أدنى نأمة. ارتادت متاحف كافة المدن التي زارتها، باحثة عن بقايا الهنود، التي

توفرت بكثرة أينما ذهبت، واكتشفت أن عدداً من المحاربين والعذارى الهنود في المتاحف كانوا أيضاً أناساً حقيقيين محنطين، مطليين ومكسيين وعلى رؤوسهم شعر مستعار، كالشخصيات التي تحدَّثت عنها قصة «جرائم شارع مورغ». كثيرٌ كان عددها في واقع الأمر، لدرجة عجزت بالتأكيد عن سرقتها وحرقها، ناهيك عن أنها تجهل ما إذا كانت هذه التماثيل بعيونها الزجاجية المحدّقة، ترغب بالفعل بالاحتراق.

لكنها شعرت بأنها عرفت رغبة العم ألبرت بذلك.

فأيُّ نوع من الرجال كان العم ألبرت؟

حسناً، تناقل المسنُّون أنّه لم يكن عمّ أحد ولم يكن يتقبَّل مطلقاً أن يدعوه أحدهم بذلك.

«والسبب»، قال كهلٌ آخر ممن عاصروا ألبرت، «أذكر اليوم الذي علَّقوا فيه الأعضاء الخاصة لأحد الصبيان على عمود في آخر شارعٍ اعتاد السود ارتياده للتسوُّق، فقط ليبعثوا الخوف في قلوبنا، كما تعلم، وكان ألبرت بورتر لا غيره هو الذي أنزلها ودفنها. بيد أننا لم نعثر إطلاقاً على بقية جثّة الصبي. وكما جرتْ العادة دوماً، يرمونك في النهر مربوطاً بجذع شجرة أخضر عتيق لتغرق إلى الأعماق».

وتابع قائلاً:

«ولد ألبرت عبداً وبقي في ذاكرته أن أباه وأمَّه لم يعلما بانتهاء عهد العبودية منذ قرابة عشر سنوات، فقد حرص السيّد الكبير على إبقائهما جاهلين بالقانون، كما تعلم. ولذلك أصابه الجنون عند اكتشافه للأمر. فقد اعتادوا ضربه بشدّة محاولين دفعه إلى نسيان الماضي والتكشير عن أنيابه والتصرُّف كزنجي. (كلّما رأيتَ أحدهم يتصرف كزنجي، كما قال ألبرت، فإن بوسعك التأكد أنه نسي ماضيه بالكامل). لكن ألبرت لم ينسَ مطلقاً، ولا حتى وافق على العمل داخل المنزل الكبير كرئيسٍ للخدم، ودائماً ما كان يكسر الأغراض. وفي تلك الفترة دائماً ما كان السيّد يضيّق عليه ويناكده، إذ يبدو أنه كان يكره ألبرت أكثر من كرهه لأي شيء آخر –

لكنه منعه من الحصول على عمل في مكان آخر. وبقي ألبرت في المنزل ولم يغادره مطلقاً. ما أعْنَدَهُ».

«عنيدٌ بالفعل. أشهدُ على ذلك»، قال آخر. لهذا السبب يبدو غريباً بالفعل رؤية تلك الدمية المفروض أنها العجوز ألبرت بفمه المفتوح. وأسنانه كلها موجودة. يا للجحيم، فأسنان ألبرت سقطت كلها قبل بلوغه.

سافرت إليثيا للالتحاق بالجامعة بينما التحق أصدقاؤها بالخدمة العسكرية بسبب فقرهم المدقع وهكذا سارت الأمور. اكتشفوا نسخاً أخرى عن العم ألبرت في جميع أنحاء العالم. وخابت آمال إليثيا على وجه الخصوص لعثورها على نسخ من العم ألبرت في كُتُبها وعلى صفحات الجرائد وشاشات التلفاز.

وأينما وقع نظرها، وجدت أمامها نسخة من العم ألبرت (وبطبيعة الحال، كثيراً من نسخ العمة ألبيرتا).

لكنّ جرَّتها المليئة بالرماد كانت بحوزتها، وانتهت من تدوين ذكريات الكَهَلَة الذين عاصروا تلك الفترة، وأصدقائها الذين كتبوا لها أنهم يتعلمون في الجيش مهارات ستتيح لهم اجتياز ما هو أكثر من نافذة زجاجية.

وبصرف النظر عن جاذبية الموضوع، حرصت من وجهة نظرها على أن وجود تماثيل محنطة مثل العم ألبرت أمرٌ مرفوض كليّاً.

العشيق

إلى جوان

رغب زوجها بطفل، فأنجبت له واحداً كهدّية لأنها ودّت زوجها وقدّرته كثيراً. لكن ذلك استدعى منها جهداً كبيراً ولا سيّما على صعيد الاستجابة الجنسية، إذ لم يكن توقها إليه متّقداً على وجه الخصوص ولا حتى خلال سنوات زواجهما الأولى، وكان الأمر بالنسبة إليها أقرب إلى الارتياح الجنسي. وبعد ولادة الطفل، توقفت ببساطة عن التفكير به بشكل جنسي نهائياً، وافترضت رغم ذلك أن علاقتهما الزوجية كانت أفضل من أغلب العلاقات. عمل مدرساً في إحدى الجامعات المجاورة لمنزلهما في الغرب الأوسط وكان يولي طلابه قدراً كبيراً من الاهتمام، الأمر الذي قرّبه من قلبها، خاصة وأنها تتلمذتْ على يد العديد من المدرِّسين المستهترين بها وبعملها: إنه الشعر الذي نظمته بنجاح ليتناسب مع موسيقا الجاز، وأبدى هو تجاهه أعلى درجات التفهُّم والاحترام.

غابت لمدة شهرين في مخيم للفنانين في «نيو إنغلاند»، حيث التقت إليس الذي سرعان ما أسمته «العشيق»، بمجرد تجاوزها لفكرة شبهه بالذئب بسبب شفته العليا التي ترتفع قليلاً عن نابه الأيمن عندما يبتسم. ذات مساء، التقيا قبل وجبة العشاء بينما كانت منهمكة في تجاهل الهراء المنمّق لأحد زملائها الشعراء السود، الذي كان يكبرها بسنوات عديدة

وافتقر بالكامل لأي مفهوم للضجر الذي قد ينتاب الآخرين. فقد أمضى ساعة وأكثر يثرثر عن نفسه واضطرت في البداية للإنصات له من باب الاحترام، لكونها تلك الإنسانة التي يعكس سلوكها الراشد ما تلقَّتْه من تعليمات أثناء طفولتها في أوضاع مشابهة. فعندما كانت طفلة، تم تلقينها التحلّي بالأدب.

لطالما ورّطت نفسها في أحاديث أحادية الجانب من هذا النمط، ويبدو أن محادثيها افترضوا أنها تحسن الإصغاء، وهذا صحيح بالفعل إلى حد ما، إذ كانت تولي اهتماماً أصيلاً بالفنانين الأكبر سناً على وجه الخصوص واعتادت مجالستهم بافتتان بينما يقصُّون عليها قصصاً عاشوها بين الفنّ والشهوة قبل أربعين عاماً خلت، فالثرثرة بحد ذاتها كانت لذيذة رغم أن الدهر أكل عليها وشرب.

قلّة كانوا الفنانين الذين أصغت إلى حكاياتهم حتى النهاية. فما إن تقحم في المحادثة نفحة تبجح كأحد الأسماء المشهورة أو قائمة طعام أحد المطاعم الباريسية باهظة الأسعار، وخاصة أسماء الكتب المهملة بالنسبة للفنان العجوز وإحدى المناسبات التي وجّه فيها هذا المخلوق البائس إهانة إلى أحد الزعران البيض، كان ذهنها يلتفُّ على نفسه حتى يفرز أحدَ بنات أفكارها لتحلّ مكان الهراء الذي يتدفّق إلى داخله.

وهذا بالضبط ما شهدته تلك الأمسية قبيل العشاء. فالشاعر العجوز الذي كانت أعماله عادية إلى أبعد درجة واقتصرت جاذبيته في نظرها على سنّه وسخريته اللاذعة، كان قد ثبّت عليها عينيه السوداوين المحمرَّتين اللتين قرأت فيهما يأساً وابتهالاً لغواية سهلة، وأجبرها على صرف انتباهها إلى كلماته عن كثب. وعلى غرار الكثيرات من بَنات جيلها اللواتي كرهن التصرف بفظاظة وامتلكن أيضاً قدراً عالياً من الحرص على الذات، لأن الشاعر العجوز بحسب ظنها كان على أبواب الشيخوخة وما زال شخصية مؤثرة في أوساط السود الأدبية ولم يمانع مطلقاً استغلال نفوذه الملحوظ لإجهاض مسيرة المواهب الشابة،

كانت قد أتقنت لعبة الاحتفاظ بحيوية تعابير وجهها وإدارته بشكل كامل نحو المتحدِّث، بينما كانت ربما في خيالها بصدد تجربة ألوان الطلاء المناسبة لتحسين الإضاءة في منزلها. وفي واقع الأمر، بدا تركيزها مكثَّفاً لدرجة ظهرت كأنها تقرأ شفتَي المتحدث.

وكان إليس، الذي سيصبح عشيقها لاحقاً، قد دخل الغرفة وجلس على كرسي بجوار النار. ورغم أن تلك الفترة كانت منتصف فصل الصيف، إلا أن النار كانت ضرورية لاتقاء البرد في أمسيات «نيو إنغلاند»، المعروفة ببردها.

سألها: «هل طال انتظارك؟».

فأدركت فجأة أن انتظارها طال بالفعل.

«لكن بالتأكيد»، أجابت بشرود بينما لاحظت تلك الابتسامة المائلة التي ذكّرتها بذئب مزمجر لكنه ليس منفّراً، واستدارت إلى الخلف بينما مدّ الشاعر العجوز يده بحركة تملؤها الغيرة لاستعادة انتباهها إلى نهاية قصته التي كانت مدهشة في نظره. ضحكت وضربت بكفها على ركبتها في إيماءة تعكس ألفةً مخادعة لدرجة أنها سرعان ما أصبحت تضحك من قلبها. وبينما لفت ترفيهها عن نفسها بتلك الطريقة أنظار إليس، لاحظت حينها بريقاً تمكّنت من تمييزه على الفور.

«عشيقي»، قالت لنفسها بينما لاحظت للمرة الأولى رأسه المكسو بالشعر الأجعد الأسود المزرق، وعينَيه البنيَّتَين كنهر الميسيسبي، وبشرتَه الملوَّحة بسُمرَةٍ مضطربة كان بوسعها أن تكون أكثر تجانساً. طويلاً كان ونحيلاً، يتلاشى فخذاه تماماً في سرواله البيج المصنوع من الجينز القطني.

جلسا سويّةً على مائدة العشاء، يتأمّلان جبال «نيو إنغلاند الزرقاء»، في الأفق البعيد بينما تركت الشمس الغاربة خيوطها الذهبية والوردية على صفحة السماء الزرقاء الشاحبة. وكان قد تنامى إلى مسامعه أنها فازت بإحدى الجوائز - كانت جائزة مرموقة - تكريماً لأشعارها

«المتناغمة مع موسيقا الجاز»، كما وصفها، بطريقة دفعتها إلى تصويب نظرة فاحصة إلى أصابعه الطويلة الملتفّة حول كأس النبيذ، متسائلة ما إذا كانت ستعامل بشرتها بالحساسية نفسها التي يوحي بها مظهرها. لم تكن قد سمعت به مطلقاً، رغم أنها تكتمت على ذلك، ربما لأنه سبقها إلى قول ذلك. تحدّث كثيراً عن نفسه - ببساطة وفي وقت أبكر مما اعتادت - وكانت مسترخية تماماً، بل ومستمتعة، في دورها كمنصتة.

تساءل عمّا يمتلكه الشعراء الشباب مثلها، هذا إذا كانوا يمتلكون شيئاً، فالإنسان في رأيه لا يكتسب كثيراً من خبرات الحياة إلا بعد منتصف عمره. كان هو في الأربعينيّات. لم يكن مظهره يوحي بذلك بالتأكيد، لكنه قال إنه أكبر منها بكثير وإن عدم تمتعه بشهرة أوسع سببه عجزه عن إيجاد ناشر لروايتين من تأليفه (ما زالتا غير منشورتين بالمناسبة - في حال عرفت أي ناشرين قد يساعدونه) ولا لأشعاره التي شبَّهها أحدُ معارفه بأشعار مونتين بشكل أو بآخر.

«أنتِ جميلة»، قالها قاطعاً الصمت الوجيز.

«وتبدو لمّاحاً»، أجابت تلقائياً.

كانت قد توقفت عن الإنصات إليه مذ أتى على ذكر روايتيه غير المنشورتين. وعندما شرع بالتذمّر من المعاملة المتحيزة التي يلاقيها أبناء الأقليات والنساء من الناشرين حالياً، كانت على وشك البدء بالتثاؤب أو توزيع نظراتها الكسلى على أرجاء الغرفة. لكنها امتنعت عن كلا الفعلين لسبب في غاية البساطة: فهي عندما رأته للمرة الأولى - بعد تجاوزها لمسألة شبهه بالذئب - كانت قد قالت لنفسها «عشيقي»، وأعجبها الوقع المحرّم لتلك الكلمة في أعماقها. لم تعاشر عشيقاً طيلة حياتها، وسيكون هو الأول وستصبح بعدها امرأة تنتمي بحق لبنات جيلها. أضف إلى ذلك أن استجابتها لشعره الأجعد وفخذيه النحيلين لدرجةٍ من التلاشي انطوت على قدر مفاجئ من الشغف.

كانت امرأةً قد بلغت - بعد المحن العديدة في حياتها والتي نادراً ما

ناقشتها مع صديقاتها المقربات - مرحلةً من الرضا العام عن نفسها. وقد تجلَّى قبول الذات هذا في عينيها الواسعتين الداكنتين والصافيتين اللّتين كانتا في أغلب الأحيان على استعداد للتبسّم. ورغم أنها ليست طويلة، أوحت وقفتها بطول وهمي عززته أيضاً صنادلها ذات الكعب الطويل والمنتقاة بعناية وشعرها بطوله الطبيعي الذي شمخ بتسريحة إفريقية أنيقة تتلألأ في أعلاها سبع خصلات فضّية بالعدد، افتخرت بها بشدة رغم أنها كانت في الواحدة والثلاثين من عمرها. اعتادت ارتداء تنانير طويلة مزركشة بالألوان، تنفتح أثناء مشيها على طول الجانب لتكشف عن جزء من فخذها البنّي الفاتح وساقين قويتين رشيقتين. وإذا ما وصلت قاعة الطعام متأخِّرة ووقفت عند العتبة لبرهة أطول من اللازم بحثاً عن مجلسٍ لها وصينية طعامها بين يديها، صمتتْ لوهلة تلك الأصوات الصادرة عن أدوات المائدة المستخدمة.

والأشياء التي شغلت بال الآخرين في المعسكر - سواء كثرةُ الضفادع في بركة الضفادع (كانت تستخدم للسباحة) أو قلّةُ النبيذ المقدَّم مع لحم العجل (دارت أحاديث حول تقليص كمية النبيذ مع جميع الوجبات، وبالتالي إنهاء أحد تقاليد الرفاهية العريقة في المعسكر) - يبدو أنها لم تكن تُلقي لها بالاً. بدت منفتحة ولمّاحة وساهمة أحياناً، لكنها جاهزة دوماً بأذنٍ تحسن الإصغاء وأحياناً بدعابة طريفة من دعابتها حتى لو كانت قديمة (روتها رغم ذلك بظرافة وكانت مضحكة في نظرها لأنها كانت تستغرق في الضحك عليها بصرف النظر عن ردود فعل المستمعين). ولم يظهر عليها مطلقاً أي توتر حيال عملها ولا تذمرت البتة حيال تقدمه أو انقطاعه، كأنها عملت لنفسها فقط، لمتعتها بمفردها (أو خلاصها)، واحتفظت بهدوئها تجاه الموضوع سواء كانت تعمل أو ببساطة تفكّر بالعمل.

وحتى الإلهاء الذي نجم عن ولادة طفلها كانت جاهزة بالكامل لدفع ثمنه. لم تكن تعتزم إنجاب طفل ثانٍ، لأن ذلك سيكون في منتهى

الغباء، ثم إن الطفل الحالي سيكبر على غفلة منها ليصبح في سنٍّ مناسبة للالتحاق بالمدرسة.

ولكي تنعم بفسحتها الوجيزة من الحرية خلال فصل الصيف بقدر ما تأمّلت التنعُّم بحرّيتها المستقبلية الأطول بقاءً، عاجلت بإلقاء نفسها في أحضان العلاقة المؤقتة مع إليس، العشيق المتمرّس للفنانات الأكبر سناً بصورة رئيسة، اللواتي يقصدن المخيم سنوياً بغرض العمل واللهو.

أما إليس، اليهودي من نيويورك بسحره الأخّاذ ووضاعته الفكرية وعشقه العميق ضعيف الذائقة لكل الأشياء الأوروبية لدرجة أن الإنسان يحسبه مرضاً ألمّ به (يمقت بروكلين مسقط رأسه ووالديه والثقافة اليهودية وكل ما وقعت عليه عيناه من سلوك السود في نيويورك) فقد رأى في الصمت المصغي للمرأة السوداء الداكنة - كما اعتاد تسميتها تحبباً - ترياقاً شافياً بعد الأماسي السرمدية التي أمضاها مع نساء ثرثارات يكتبن لمجلة «إسكواير»، وصحيفة «نيويورك تايمز». وقد أتاحت له النساء على هذه الشاكلة الانضمام إلى مباريات التنس اللائقة وحفلات السباحة في المخيم، وفيها أمل الالتقاء بمعارف قد يساعدون مسيرته المهنية في المضي قدماً، لكنّهن كنّ أيضاً ميّالات إلى انتقاد بعضهن والتعبير عن أفكارهن بأعلى الصوت. وكان عليه هو أن يلقي الأذن الصاغية بما أنهن نجحن قبله بشقّ طريقهن وكنّ مرتاحات لإفشاء نقاط ضعفهن الساحرة أمامه، بينما عجز هو، لكونه لم ينجح بعد، عن إفشاء أيّ شيء قد يثبّط رغبتهن بمساعدته.

فقد أسعدته وسحرتْ لبّه «الشرارة»، التي كاد يسمع صوتها عند التقاء عينيه بعيني شاعرة الجاز. «الجنس»، فكر بنفسه، ثم «الراحة».

لكنه بالطبع أساء تقدير ماهيّتها.

وعقب جلوسها أمام البيانو لساعات في مواءمة إحدى قصائدها مع الموسيقى، كانت تفتح باب مقصورتها على مصراعيه وتلوّح له أثناء ذهابه إلى البحيرة أو عودته منها. كان بصدد تأليف رواية قصيرة

عن زوجته السابقة، كتبها بخطّ يده بجوار البحيرة (قال مازحاً: كي ألقي بنفسي في البحيرة إذا ما سئمت منها) ثم مضى بها إلى الاستديو لطباعتها. اعتادت مناداته، شعرها مسدول وثيابها محلولة، وتغريه لدخول مقصورتها بوعود التعاطف ونصف وجبة غدائها.

خاب أملها عندما مارسا الحب، إذ بدا غير مؤمن بالمتعة المتأنّية، واعتقد أن الأشياء التي اقترحت عليه فعلها لإمتاعها غريبة ومحرجة على أقل تقدير. لكن ذلك قلّما كان مهمّاً، فالأهم هي حقيقة وجود عشيق في حياتها. أحبّت التوغل في حضنه، وتقبيله على طول جانبي وجهه - كان خدّاه قد شرعا بالترهُّل لكنهما سيبقيان صالحين لبضعة أعوام - وأحبَّت مكاتبته برسائل سخيفة تلتهب شغفاً ووعوداً خليعة، ما جعلها تبدو غارقة في الحب حتى أذنيها. أمتعتها كتابة الرسائل لأنها استمتعت بشعورها بأقصى طاقتها ولأطول فترة ممكنة بالنشوة المترافقة مع وجود عشيق، ذلك النوع من النشوة الذي اجتاحها منذ سنوات طويلة، أيام المدرسة الثانوية وربما مرتين أيام الجامعة (مرة عندما وقعت في حب أحد الطلاب، ومرة عندما أغواها - بمساعدتها ورضاها - أحد المدرِّسين)، وعرفته كشعور جدير بالمتعة بكل ما فيه. شعرت بجسدها يتلظَّى وقلبها يقفز بين ضلوعها ونبضها يتسارع، فأدركت للمرة الأولى منذ سنوات حاجتَها الفعلية إلى ممارسة الحب.

بدأ يفكر بضرورة صدّها ولو قليلاً، زاعماً أن عواطفها كانت جياشة أكثر من اللازم. لم يكن لديه الوقت لعلاقات تحكمها العواطف الجياشة، ولهذا السبب وافق أخيراً على الانفصال عن زوجته. ثم إنه كان بصدد تأليف قصيدة عظيمة بدأها في عام 1950 ويأمل الآن - بما أنه في المخيم - أن يتمكن من إكمالها. وعليها أيضاً أن توجِّه تركيزها نحو عملها الخاص إن كانت تأمل بحصد المزيد من الجوائز. وهي ترغب بحصد المزيد، أليس كذلك؟

ضحكت عليه، لكنها كتمت عنه السبب. بل حاولت وبغاية الرقة

(بينما جلست في حضنه وصدرها يقابل وجهه بأمومة) إخباره بأنه أساء فهمها وأنها لم تطلب منه أكثر من إحساس الحب نفسه. (حدّق فيها بنظرة فارغة في بادئ الأمر، تحولت إلى ساخرة عند سماعه ذلك). أما بالنسبة لعملها، فكانت تزاوله بطريقة مختلفة عن طريقة مزاولته لعمله، إذ لم يكن عملها يحمل في نظرها المعنى الذي اعتقد أنه يحمله. فعملها لم يعترض طريق حياتها مثلاً، وإن حدث وفعل ذات مرة، كانت واثقة من قدرتها على تنحيته جانباً. جميلة هي الجوائز، خاصة إن ترافقت بمبالغ مالية قد يستخدمها الشخص حينها لاستكشاف باربادوس أو الصين أو موزامبيق، لكنها لم تكن جوائز بوسعها الاعتماد عليها. أما حياتها من الجهة الأخرى، فكانت جائزة بوسعها الاعتماد عليها. (أفقده ذلك الشرح صبره وأثار غضبه إلى حدٍّ ما).

كان ذلك أول شجار يخوضانه.

وعندما التقيا مرة أخرى، كانت قد أمضت عطلة نهاية الأسبوع (التي أتت بعد شجارهما) بالقرب من بوسطن.

بدت مبتهجة وسعيدة ومسترخية. ومن رسائلها التي اعتبرها شهوانية وتكشف عن مكنونات نفسها إلى حد الإحراج، رغم أنها أشعرته بالإطراء بالطبع، كان قد افترض أنها بلغت مرحلة البوح بحبها الأبدي وعن رغبتها بالفرار معه. لكنها عوضاً عن ذلك، رحلت لمدة يومين من دون إبلاغه. وقالت إنها ذهبت بمفردها.

خففت عنه قدر استطاعتها. كذبت، وهذا أكثر ما كانت تمقت، بخصوص عملها. تذمَّرتْ قائلة: «إنه يسير ببطء شديد» (تركت الكلمات في فمها مذاقاً لاذعاً مريراً) «كل ما في الأمر أنني عجزت عن تحمُّل المكوث هنا لا أفعل شيئاً رغم الظروف الشاعرية المواتية للعمل!». بدا أنّ السكينة حلّت عليه إلى حدٍّ ما. وفي واقع الأمر، كان عملها يسير على أكمل وجه وكانت قد أرسلت لناشريها كتاباً جاهزاً من القصائد ومقطوعات الجاز المناسبة – وكان هذا بالضبط الغرض من قدومها إلى

المخيَّم. «ثم إن عملك مضى سابحاً إلى قاع البحيرة»، قهقهت قائلة، «ولم أشأ إزعاجك».

لكن علامات الانزعاج بدت واضحة عليه.

إذاً أخفتْ عنه عودتَها إلى بيتها.

كان دائم السؤال عن بلدتها، ومنزلها وطفلها وزوجها. ووجدت نفسها تصف زوجها كمن تصفه لعروس محتملة، إذ تأنت في وصف خيوط شعره البرونزية وأسنانه المصفوفة، عينيه السوداوين الفاحمتين، الوقعَ المذهل لصوته العميق. بدا صوته لها الآن عذباً بشكل استثنائي لدى استماعها لصوت إليس الأشبه بالنحيب. «ولكن مهلاً»، فكرت من جديد، «ربما ما من شيء خاصّ في صوته».

ليلاً، وبعد أمسية من الهيجان الذي افتقر للإشباع مع إليس، حلمت بزوجها يمارس معها الحب على أرضية المطبخ في منزلها وأشعة الشمس ترسم شكل بركة تحت النافذة، واستلقتْ في سريرها اليوم التالي تحلم بكل البلدان البعيدة والمغامرات الجريئة والعشاق الشغوفين الذين ستصادفهم في مُقبِل الأيام.

زهور البيتونيا

تلك هي السطور التي قرؤوها في الصفحة ما قبل الأخيرة من دفتر اليوميات الذي عثروا عليه بعد مصرعها في الانفجار:

مذ ترجل ابني من الحافلة قادماً من فيتنام، أدركت أنه بات مختلفاً عن عهدي به. قال لي: «ماما، سأعلمك كيفية صناعة القنابل»، ثم رافقني إلى المنزل وأنا أفكّر أن الموضوع برمَّته مزحةٌ كبيرة. وضع كافة المستلزمات في خزانته الشخصية وأودع حقيبته القماشية العسكرية بين ثيابه؛ كي لا تختلط ببعضها بحسب وصفه.

قلت له: «بنيّ، أعتقد أنني لا أرغب بوجود هذه الأشياء في منزلي».

لكنه اكتفى بالضحك وقال: «دعينا نحدث ضجة في ترانكويل، ميسيسبي».

أمضينا حياتَنا بأكملها في ترانكويل حيث كانت جدّة أبي عبدة في مزرعة تيرسلي. نبشوا قبرها عندما بدأت أنشط في الحراك وعثرت ذات صباح على تراب قبرها منثوراً فوق حوض نباتات ساق الحمام بينما سقطت عظمة ساق متمزقة بين زهور البيتونيا.

الفراق
على هيئة مقدمة عن لورد، وتيش، وجاردنر

تلقيت في عام 1979 دعوةً من لورا ليدرير لكتابة مقدمة لفصل «نساء العالم الثالث»، من كتابٍ كانت حينها تعمل على تحريره عن الإباحية تحت عنوان «استرداد الليل». وعندما وافقْتُ على كتابتها، أرسلت إليّ ثلاث مقالات من كتابة أودري لورد؛ لويزا تيش؛ وترايسي إيه. جاردنر[1]. لامست المقالات قلبي ونتجت عنها «المقدمة» التالية التي نشرتها مجلة «إم إس»، تحت عنوان «حكاية من وحي الخيال»، قبل صدور الكتاب.

أعتقد أنّ «حكاية من وحي الخيال»، مناسبة كقصة في كتاب «استرداد الليل»، وفي واقع الأمر، تبدو لي كذلك أكثر من كونها مقدمة. من جهة أخرى، لو كنت أساساً قد كتبتها على هيئة قصة واختلقت كافة الأجزاء بنفسي أو اخترت الرواة، لجاءت تحليلاتي لجذور المعاملة الإباحية الوحشية التي لاقتها النساء البيض من الرجال البيض مختلفة إلى حد ما، وبمنظور تاريخي أكثر اتساعاً.

وبينما لا أنكر الروابط الواضحة بين الإعدام التعسفي للرجال والنساء من السود (الذي ساد فقط بعد الحرب الأهلية كما تقول

1- Audre Lorde (1934 – 1992): تصف نفسها بأنها «سوداء ومِثليّة وأمّ ومناضلة وشاعرة»، كرّست حياتها وموهبتها الإبداعية لمواجهة ومعالجة مظالم العنصرية، والتمييز على أساس الجنس، والطبقة، ورهاب المثلية. Luisah Teish: كاتبة ومعلمة عُرفت بكتابها «جمبالايا: كتاب المرأة الطبيعية عن السحر الشخصي والطقوس العملية».

جاردنر)، والإساءة الإباحية للنساء البيض، لكنت قد حاججت أن الجذور الأقدم للإباحية الحديثة يمكن ملاحظتها في المعاملة الإباحية شبه الدائمة للنساء السود اللواتي تعرَّضن منذ لحظة دخولهن العبودية، حتى في أوطانهن الأصلية، للاغتصاب الذي كان نقطة التقاء «منطقية»، للجنس والعنف، أي الاجتياح بالمختصر.

لعقودٍ طويلة، شكَّلت المرأة السوداء «منفساً» إباحياً رئيساً للرجال البيض في أوروبا وأميركا. ما علينا إلا التفكير بالنساء السود اللواتي تم استخدامهن للاستيلاد وتعرَّضن للاغتصاب لمتعة ومنفعة مالكيهن. وما علينا إلا التفكير بالصلاحيات التي تمتع بها «سيّد» النساء من العبيد. ولكن للحصول على الصورة الأوضح ككل، ما علينا إلا دراسة مجتمعات العبيد القديمة في الجنوب للوقوف على المعاملة الساديّة على يد «النبلاء» البيض لـ«الجميلات الهجينات بين العرقين الأبيض والأسود»، اللواتي أصبحن (وتمّ عمداً استيلادهن ليصبحن كذلك) أكثر قابلية للتمييز عن النساء البيض، وكانت أثمانهن الأعلى كعشيقات من العبيد لهذا السبب.

ورغم أن هذه «الحكاية من وحي الخيال»، أو «القصة»، أو «المقدمة»، صُنّفَت بحد ذاتها كإباحيّة فاحشة وتمّ حظرها مؤقتاً في واحدة من مقاطعات المدارس الأمريكية على الأقل، أعتقد أن كتابة القصص هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها مواجهة الإباحية بعلنيّة وصراحة تتيحان للكتّاب المساهمة بطريقتهم الخاصة في صراع محتوم.

يدخل رجل في أواسط عمره المنزل بعد يوم عمل طويل، تستقبله زوجته عند الباب وتعلمه أن العشاء جاهز. يعرب عن امتنانه. لكنه بداية بحاجة إلى دخول الحمام. في الحمام، بينما يجلس على المقعدة، يفتح مجلة «جايفبوي»، أحضرها معه في حقيبته، وفيها صور بوضعيات تثير فيه الرغبة على وجه الخصوص. يتمحّص الفتيات اليافعات –

الشقراوات (ربما كانت البلاد كلها مهووسة بهن)، بخصورهن اللينة وعيونهن المغرية - ويداعب قضيبه. وفي الوقت ذاته، تمور أحشاؤه بالرغبة بالتغوّط. يمضي في الحمام عشر دقائق مترَعَة بالمتعة، ثم يخرج خائر القوى، مسترخياً، جائعاً، وجاهزاً لتناول طعام العشاء.

لدى دخولها الحمام لاحقاً، تعثر زوجته على المجلة الرطبة قليلاً. تلقطها بينما ينتابها مزيجٌ من أحاسيس مشوشة. هي، امرأة بنية البشرة وشعرها أسود وعيناها أيضاً. تعاين الشقراوات والسمراوات من البيض وتتساءل: أيفكر بهن أثناء ممارسته الحب معي؟

«ما حاجتك بهن؟»، تسأله.

يجيبها: «ليس لهن أي معنى».

تقول: «لكنهن يجرحنني بطريقة ما».

يقول: «تتصرفين: أ) بسذاجة، ب) بتزمت، ج) بسخافة. تعلمين أنني أحبك».

تعجز أن تقول: لكنهن نساء أخريات، غيري. وتعجز عن إخباره بغيرتها من صورٍ على صفحة ما. وأنها تشعر بنفسها لا مرئية. منبوذة. مهملة. وبدلاً من ذلك، تحادث نفسها: إنّه محقّ. سأتصرَّف برشد. سأتأقلم. سأسبح مع التيار.

يعتقد أنه يفهمُها، يفهم ما كانت تحاول قوله. إنها مجلة «جايفبوي»، يفكر بينه وبين نفسه؛ النساء البيض.

في اليوم التالي، يأتي بمجلة «جايفرز»، إلى المنزل، مجلة للسود مليئة بصور نساء بشراتهن برونزية وبلون العسل. يمضي في الحمام عشر دقائق أخرى مترعة بالمتعة.

تقف حاملةً المجلة: على الغلاف صورة ساقين وحذاء لرجل أسود بثياب أنيقة، يحمل حقيبة وصحيفة «وول ستريت جورنال»، ملفوفة بيد واحدة. وعند قدميه - تقلب غلاف المجلة رأساً وعقباً تحاول فهم

الوضعية - هناك امرأة بيشرة بنّية مثلها، جسدها متقوّس ومنثنٍ بطريقة يختفي فيها رأسها. ويظهر فقط جسدها اللامع - ظهرها ومؤخرتها - لتبدو ككتلة من الخَراء البشري عند قدمي الرجل.

ذهب في رحلة عمل إلى نيويورك واصطحب زوجته. ها هو الآن يدلّها بحماس على الشارع 42. يقول: «انظري! كم كل شيء ينعم بالحرية! كم هو مختلف عن بولتون» (بلدتهما الصغيرة). تبهجه رؤية العاهرات الشقراوات المنتشيات يملأن الشارع برفقة قوّاديهن السود. تبهجه الفساتين القصيرة التي ترتديها العاهرات السود، وشعورهن الطويلة الشقراء المستعارة حتماً. تتخلّف عنه بضع خطوات ليتسنّى له رؤية هذه العجائب أولاً، حتى أنه لم يلحظ أنها توقّفت أمام نافذةٍ لفتت انتباهها إلّا لدى انعطافه عند الزاوية. وبينما وقفت تنظر بمفردها، سألها قوّادان إلى أيّ ماخور تتبع، أو إن كانت بالفعل تتبع لماخور ما. أو ببساطة: «أتعملين؟».

يعود نحوها متبختراً ويتأبّط مرفقها. يبحث بمشقّة عن المجاملة المكنونة في تلك الأسئلة، ثم يشاركها مع زوجته: «تعلمين أنك مثيرة!».

جمدت في مكانها، تعلو وجهها أمارات المعاناة والتعجُّب. «لكن انظر»، تقول بينما تشير بيدها. أربع دمىً بلاستيكية كبيرة، تجسد الأولى «فرح فاوست»، نحيلة (أو هكذا بدت لها الدمية) في وضعية جاهزة للفحص الشرجي، والثانية فتاة شرقية عيناها مغمضتان على نحو مريب، لكن فمها مفتوح على هيئة كوب امتصاص أحمر نافر، والثالثة امرأة ضخمة من الأسكيمو يحيط الفراء بعنقها وكاحليها وفرجها، وامرأة سوداء ترتدي جلد الفهد بالكامل، مع الذيل أيضاً. كانت الدمى بحجم الإنسان الحقيقي، توضح بطاقة مرئية عبر اللوح الزجاجي مدى كفاءة أعضائها التناسلية المطّاطية بالتفصيل.

في نظرها، تلك هي الأشياء التي تُصنع منها الكوابيس - ربما لأن جميع الدمى كانت متبسِّمة - ستبقى صورهن مطبوعة في ذهنها طوال حياتها.

وفي نظره، كان المشهد صادماً أيضاً، لكنه يثير في نفسه شيئاً من الفضول الشهواني. سيعود لاحقاً، في مرة أخرى، بمفرده. أما الآن، عليه منعها من رؤية هذه الأشياء، هكذا قرَّر بينما مضى بها مبتعداً بسرعة عن الشارع.

لاحقاً، في غرفة الفندق التي نزلا بها، تشاهد في التلفاز امرأتين من السود تغنّيان أغنيتهما الأحدث: الامرأة الأولى، بفستانها الذهبي (لأن أغنيتها اليوم «ذهبٌ خالص»). ترتدي سلسلة حول رسغها - تتخيّل الزوجة أنها ترى سلسلة - لأن المرأة كانت تغنّي:

«أعتقْني من حرّيتي، قيِّدني بشجرة!».

«ما رأيك بذلك؟»، تسأل زوجها.

يجيبها قائلاً: «يا لها من حمقاء».

أما عندما تبدأ المرأة الثانية بغناء: «سدّد، صوّب، نار، اسمي الشهوة باختصار»، وحولها تنطلق رصاصات المسدسات والصواريخ، يفكر في نفسه أن عبارة «اقتلني بحبك»، تشرح كل شيء. أمّا هي، فيتملّكها الجزَع.

تعاين في المرآة جسدَها البنّي والأسود المكتنز؛ شعرها الأجعد وعينيها السوداوين وتقرّر بحماقة أنها ليست جميلة، ولا تحكم على شخصية عصرية متفردة أيضاً. ومن بين مشكلاتها الأخرى، حقيقة أنها تمقت استخدام أيٍّ كان لكلمة «زنجي»، وأنها تخشى الماريجوانا. تشعر أن هذه القيود تحولها إلى إنسانة مسنّة أكثر شبهاً بأمها، التي تهوى الجنس (كما علمت مؤخراً) لكنها شديدة التديُّن، وتعتقد على سبيل المثال أن ورق اللعب شرٌّ من الشرور وأن الكحول قاتل. لن يعتبر زوجها أنَّ أمّها مثيرة، تفكّر في نفسها. وبما أنها أيضاً تتقدّم في السن، تصبح هذه الفكرة مخيفة بالنسبة لها. لكن المدهش في الموضوع، أنها بينما تنظر إلى صورتها تتحوَّل في المرآة إلى صورة أمّها، تكتشف أنّ أمّها - التي تضفر بكلّ عنايةٍ شعرَها العاديَّ الأشيب متوسط الطول كلّ ليلة قبل خلودها إلى النوم، تلك الضفائر التي ما زال والدها يحلّها ليلاً، مثيرةً للغاية في نظرها.

تشعر على الفور أنها استعادت ثقتها بنفسها، وتقرّر المقاومة.

«لعلك الامرأة السوداء الوحيدة في العالم التي يقلقها أيٌّ من هذه الأشياء»، يقول لها، جاهلاً القرار الذي اتخذته، ومستاءً حيال الأشهر التي قضتها متألمة بصمت.

تجيبه قائلة: «اسمع، أيها الملوّن، اقرأ هذا المقال لأودري لورد».

يحاول التهرب لكنّها تصرّ.

يصل في قراءته السطر الذي يتحدَّث عن لورد: «تمدّدت تحت أشعة الشمس بجوار جسد امرأة أحبّها»، ويحجم عن المتابعة. «مهلاً»، يقول، «كيف لرجلٍ أن يكون اسمه أودري؟ لا بدّ أنهم قصدوا أندريه».

تجيب: «إنه اسم الامرأة. اقرأ تتمة الصفحة».

«ما من شيء مفيد تخبرني به شاذة ما»، أجاب بينما رمى الصفحات على الأرض.

كانت تترقب ذلك بهدوء. تأتي بمجلات «جايفر بوي»، و«جايفرز»، وفي كلاهما صورٌ لنساءٍ يلعقن نساءً أخريات لا يعرفنهن حتى. تلتقط المقال وتبدأ بالقراءة:

«أصل بهذا إلى آخر اعتبارات الشهوانية. فمشاركة قوة مشاعر بعضنا بعضاً مختلف عن استهلاك مشاعر أحدنا للآخر كاستهلاكنا للمناديل الورقية. وإذا ما نظرنا من الزاوية الأخرى لتجربتنا، سواء الشهوانية أو غيرها، نجد أننا بدلاً من المشاركة، نعمد إلى استهلاك مشاعر الآخرين الذين يشاركوننا تجربتنا. والاستهلاك من دون موافقة المستهلك ورضاه، محض استغلال».

ينظر إليها بامتعاض لأنها عادت وانهمكت بصمت في قراءة تلك الفقرة لنفسها، بذهن شارد وصور السحاقيات المصطنعات (كمصدر مفضلٍ للإثارة، رغم أنها لم تختبره من قبل) على حضنها. يدرك الآن أنه ما عاد بمقدوره امتلاكها جنسياً بالطريقة نفسها لامتلاكه لها منذ العام الثاني لزواجهما، كأن جسدها الآن بات ملك شخص آخر. يتراءى له،

في نهاية الطريق، نهايةُ هذا الزواج وبحثٌ محموم عن مزيد من الأجساد المثالية، أو زوجات أغبى. يُثقل نزاعها الوشيك صدرَه، ويشعر بشكلٍ من الأشكال أن نزاعها هذا لتغيير متعته المعتادة يمثِّل انتهاكاً لحقوقه.

تنهمك الآن في لصق كلمات أودري لورد على الخزانة فوق حوض المطبخ.

وعندما يمارسان الحب، تحاول التحديق في عينيه، لكنه يرفض مقابلة نظراتها.

للمرة الأولى على الإطلاق، يقرّ بشعور أن بلوغ النشوة دونها متعةٌ ممزوجة بالمرارة والوحدة. تتراءى له صورة أكل الحلوى المسروقة وحيداً خلف الحظيرة، لكنه رغم ذلك يفكر بمنتهى الطمع أن هذا أفضل من عدمه، ويرى في ذلك منفعة له من نزاعها.

في اليوم التالي، يدخل المنزل قادماً من عمله ليجدها منهمكة في قراءة مقال آخر بعنوان «التحطم بصمت»، من كتابة لويزا تيش. فيسأل: «شاذة أخرى؟».

تجيب: «أخت أخرى من أخواتك»، وتبدأ بالقراءة حتى قبل تناوله طعام العشاء:

خلال فترة «حركة القوة السوداء»، تمحور الكثير من التوعية الثقافية حول البنية البدنية للسود. ومن أحد منجزات تلك الفترة، انتشار تسريحات الشعر الإفريقية الطبيعية، وترافقت هذه التسريحات بصورة جديدة للذات وطريقة التفكير. ثم أطلقت السينما فيلم «سوبرفلاي» (Superfly) و«يا للرب يسوع انظر» (Lord Jesus Look)، و«الرأس المضروب» (Konked head)، ورافقها انطباع من الهياج والغضب في أوساط السود. وجاءت الأفلام على غرار «شافت» (Shaft) و«السيدة تغني البلوز» (Lady Sings the Blues) لتصور «الأبطال» السود كحمقى يتنشقون الكوكايين ويعيشون حياة سريعة الإيقاع. ودائماً ما عرضت هذه الأفلام امرأةً سوداء عالقة ضمن شبكة من العنف...

عرض مسرحٌ مشهور في «بيكرلي»، فيلماً إباحياً بعنوان «عبيد الحب»، صوّر ملصقه الإعلاني امرأتين عاريتَين من السود، يقف فوقهما رجلٌ أبيض وبيده سوط!ْ *وأن تفلت مثل هذه المواد الإباحية العنصرية من أعين الناشطين السود مشكلةٌ بحدّ ذاتها...*

كما هو متوقع، لم ينصتْ حتى للمقولة المتعلقة بالنساء. يفكر بحنق: «ما الذي تعرفه تلك العاهرة عن «حركة القوة السوداء»؟ يغضبه في زوجته أنها تعرفه بهذا القدر طيلة تلك المدة، إذ تعرف مثلاً أن «حركة القوة السوداء» (وحقيقةً حركة الحقوق المدنية قبلها) هي السبب في حصوله على وظيفته الحالية المرموقة، رغم أنه لم يكن ناشطاً فيها. تتذكر عندما كان هو بنفسه يسرّح شعره بتسريحة «أفرو»، إفريقية، لكنه الآن أصبح أجعدَ بشكل عشوائي. يتبادر إلى ذهنه، أنه بسبب معرفتها لماضيه، ليس بوسعه ممارسة الحب معها كما هي الآن. بل ليس بوسعه محبّتُها كما هي الآن. ففي حَيِّزٍ من ذهنه، تترسخ بشكل ما قناعة بأن زوجته ما زالت سوداء، بينما انتقل هو إلى مستوى آخر.

(وهذه الرؤية، التي يتراءى له بصيصٌ منها، ترعبه إلى درجة أنه سيواصل مقاومتها لعدة سنوات. فقبوله لها فوراً، مهما كانت مزعجة، سيساعده على فهم اللامنطق وراء قبوله للإباحية التي تمت ممارستها ضد النساء السود: أي أنه عزل نفسه عن لونه الأسود بمحاولته منح النساء السود هوّية تقوم على جنسهن وحسب).

لم يسبق للزوجة قطّ أن اعتبرت نفسها «مناصرة للنسوية» – رغم أنها بالطبع «مناصرة للمرأة»[2]. ومفهوم مناصرة المرأة يعني مناصرة النسوية، لكنه أكثر انتشاراً (كاتبة هذا المقال مناصرة للمرأة). ولذلك، تنتابها الدهشة عندما يهاجمها زوجها ناعتاً إياها بأوصاف مثل «مؤيدة لحقوق المرأة»، و«تابعة للنساء البيض»، و«بيدق» بيد غلوريا ستاينم، وهي من أوائل حارقات حمّالات الصدر مطالبةً بحقوق المرأة. يرغب بمعرفة

2- «مناصرة المرأة»: تقارب في معناها «النسوية السوداء».

الرابط المحتمل بينها وبين النساء البيض - المحظوظات جداً - اللواتي (كما قرأ مؤخراً في صحيفة نيوز ويك) ينظّمن المسيرات ويبشِّرن بذلك الخراء المتزمّت من أقصى ساحة «تايمز سكوير»، إلى أدناها.

(تحضره فقط تلك الحرية التي شعر بها هناك، لا وقوفها الطويل أمام نافذة متجر الدمى البلاستيكية). وإن كانت عقدت عزمها على بناء الكثير من العلاقات الجديدة مع الشاذّات والبيضاوات، فما مصيره هو، الرجل الأسود، أكثر بني البشر تعرُّضاً للوحشية والاضطهاد على وجه الأرض؟ (أتلك الحرية التي بات الآن يرمق فيها النساء البيض بتلك النظرات الشهوانية وافتقارها لمتنفس مشابه للتعبير، سببٌ في اعتقاده أنها ما زالت امرأة سوداء وأنه تحوّل إلى شيء آخر؟ تشكل هذه الفكرة أساساً لأقواله الحالية، بينما تجهلها زوجته). ألم تكن تعلم أن تلك الأجساد البيضاء بحد ذاتها سببٌ لحالات الشنق التعسفي التي مارستها بحقه الشرطة والأنظمة العقابية الأمريكية في الماضي ولا تزال، عشرات المرات في العام حتى اليوم؟

مكرت الزوجة باحتفاظها بمقال ترايسي إيه. جاردنر لهذه اللحظة بالذات. لأن ترايسي إيه. جاردنر تبحَّرتْ في الموضوع كله، لا حالياً وحسب، بل تاريخياً أيضاً، وتتناول بوضوح الإساءة التي طالتها بحد ذاتها كإنسان أسود وكامرأة، وهي جريئة وصارمة - بل شرسة. أما الزوجة التي استسلمت للاكتئاب ونكران الذات أكثر من استسلامها للحنق، فهي تتلظّى في نيران غضب جاردنر المشبوب. تبدأ بالقراءة:

لأن العنصرية من وجهة نظري تحيط بنا من كل حدبٍ وصوب، حتى في أوساط الحركة النسائية، فالمرّة الوحيدة التي سأحتاج فيها للتحدث عنها ستكون عندما تغيب عن نظري... وعند حدوث ذلك للمرة الأولى، سأعلمكم بذلك.

يرى الزوج، وقد أخذته الدهشة، في ذلك شيئاً مضحكاً، بل صائباً. يصفع ركبته ويستوي في جلسته، ينازع بحثاً عن أحد التعليقات الإيجابية حول السحاقيات، وما من شيء يتبادر إلى ذهنه.

استندت العبودية الأمريكية إلى إنكار صفة الإنسانية عن السود، وتقويض شعورنا بالقومية والأسرة، وتجريد الرجل الأسود من دوره كحامي ومعيل، وغرس النساء السود في المنظومة الأمريكية للهيمنة الذكورية البيضاء...

«بكلمات أخرى»، قالت: «يعتقد الرجال البيض بحقهم في اعتلاء الآخرين. بينما يعرف عن الرجال الآخرين أنهم يستمتعون بتذوق الحياة من خلال وضعيات أخرى».

أدى انتهاء الحرب الأهلية إلى انتهاء «صيغة» معينة من عبودية السود. وأدّت أيضاً إلى انتهاء جميع أشكال «الأمان الوظيفي»، وفقدان حماية مستعبديهم البيض. أصبح السود الآن طريدة حرة، وبدأ من جديد ترهيب وإذلال السود، ولا سيّما الرجال السود. فقد أصبح بإمكان الرجل الأسود بناء أسرته وإثبات قيمته، لكنه لم يجد سبيلاً إلى إعالتها أو حمايتها، أو حتى إعالة وحماية نفسه...

شعر بالخزي بينما كانت تقرأ، وبدأ يستشعر الحرج المجروح الذي انتاب زوجته، تجاه نفسها وتجاهه. تجاه تاريخهما المشترك، لكنها تابعت القراءة بإصرار:

بعد الحرب الأهلية، بدأت العدالة الشعبية، التي كانت تعني عادةً غياب المحاكمة وعدم الحاجة إلى الدليل، هيمنتها بأشكال منها الإخصاء، والحرق على الوتد، وقطع الرأس، والشنق، بحق الرجال السود. وكانت أعداد هائلة تصل حتى 5 آلاف من البيض تتجمع لمشاهدة هذه الأحداث، كأنهم ذاهبون إلى أحد الاحتفالات [تصمت لبرهة، تتنهد: قطع الرؤوس؟]. *تعرّض أكثر من 2000 رجل أسود للشنق التعسّفي على مدى 10 أعوام من 1899 - 1889، إضافة إلى عدد من النساء اللواتي تم شنقهن تعسفياً.* [تقرأ هذه العبارة بسرعة وتنساها]. *وجّهت لأكثر من 50٪ من الرجال السود الذين تم شنقهم تهمُ الاغتصاب أو محاولة الاغتصاب.*

يعجز عن تخيل امرأة تتعرض للشنق، إذ لم يسبق له التفكير مطلقاً باحتمالية ذلك. أهذا ما يجعل من صورة امرأة سوداء مقيّدة بالسلاسل وتغطي جسدها الكدمات شيئاً مثيراً لا مخيفاً في نظره؟ فحقيقة أن شنق جسدها لم يتوقف على الإطلاق، هي التي تجبر الزوجة في الوقت الراهن على سرد هذه الصفحة من التاريخ، فهي غير متهيِّئة لربط زوجها بنفسه مع استمرارية ذلك الماضي. تُواصل القراءة:

إذا مارس رجل أسود الجنس مع امرأة بيضاء بالتراضي، يعد ذلك اغتصاباً... [ما الذي يدفعني دائماً للقراءة عنه والتفكير به والقلق حيال ممارسة زوجي للجنس مع النساء البيض؟ تفكر بإحباط صامت أثناء القراءة]. *إذا أهان امرأة بيضاء بنظرة، يعد ذلك محاولة اغتصاب.*

«أجل»، يقول بصوت خافت، كأنما يدعم إصرارها على القراءة، «سبق وقرأت من كتابات إيدا بي – ما كنيتها؟».

عبر جرائم الشنق التعسفي التي زاولها، كشف الرجل الأبيض عن كرهه الجسدي والبيولوجي للرجل الأسود، كرهه للونه وملامحه وأعضائه الجنسية. وهكذا قام باجتياح جسد الرجل الأسود، وكعاشقٍ جنّ جنونه، شوّه جسده وانتهكه بأقصى أشكال الإباحية الحميمية. أعتقد أن هذه المعاملة الوحشية الفاضحة التي تلقاها الرجال السود من الرجال البيض ترتبط ارتباطاً مباشراً مع الدرجة المتزايدة من الوحشية الفاضحة التي عامل بها الرجال البيض النساء، ولا سيّما النساء البيض في الأفلام الإباحية والحياة الواقعية أيضاً. أما النساء البيض المكافحات في سبيل اكتساب قوتهن وشخصياتهن وهوياتهن الجنسية، فقد تحولن بشكل من الأشكال إلى زنوج معتدين بأنفسهم. وكما يهدد الرجل الأسود ذكورية الرجل الأبيض وسلطته، أصبحت النساء يشكلن التهديد ذاته.

«هناك مغزىً فيما تقوله الفتاة»، يقول الزوج، لكنه يفكر وللمرة الأولى في حياته، أنه عند تفكيره بمضاجعة النساء البيض – في خياله لدى تصفح مجلة «جايف بوي»، أو بالنظر إليهن باشتهاء في الشارع –

غالباً ما يفكر بسبل لإذلالهن. وعندها يفكر، نظراً لتاريخه كرجل أسود في أميركا، أنه من غير المستغرب أن يختلط عليه بحدّ ذاته الأمر بين مضاجعتهن وإذلالهن؟ فما دلالة ذلك حيال طريقة رؤيته لنفسه؟ تخنق تلك الفكرة إطراءه الباطني لمصلحة جاردنر، ويلقي بدلاً من ذلك نظرة حائرة غائمة صوب زوجته. يدرك الآن أن ممارسة الحب مع زوجته بشكلها الحقيقي، وشخصيتها الحقيقية - بل ممارسة الحب مع أي إنسان آخر بشكله الحقيقي - سيستدعي نظرة تمزق الروح إلى ذاته، ويوشك شعر رأسه على الانتصاب جرّاء هذه الفكرة.

تواصل زوجته:

يرى بعض الرجال السود ممن تشرّبوا قيم ووجهات نظر الرجل الأبيض، في المرأة البيضاء أو ***الآلهة الشقراء*** *جزءاً من الصورة الأمريكية الرابحة. وأحياناً، عند تواجدهم برفقة امرأة سوداء، يشعرون بالخزي حيال المعاملة التي تلقتها ومدى ضعفها، وأنهم جميعاً مضطرون للعمل سويّةً وحماية بعضهم بعضاً.* [أجل، تفكر، لطالما اضطررنا إلى ذلك حتى اليوم. يفكر: جميعنا كنا وما زلنا، وبوسعنا الآن فقط أن نحيا من دون السماح لأنفسنا بمعرفة ذلك]. *قال فرانز فانون عن النساء البيض: «محبتها لي تبرهن على جدارتي بحب البيض. أحظى بالحب كالرجل الأبيض. أنا رجل أبيض. أعقد قراني على الثقافة والجمال الأبيضين، والبياض الأبيض. وعندما تداعب يداي المضطربتان ثدييها الأبيضين، تقبضان على الحضارة والكرامة الأبيضين، وتجعلانهما ملكي»* [تعجز عن تصديق أنه تعمّد كتابة «الكرامة البيضاء»].

تتوقف عن القراءة وتنظر إلى زوجها: «فما شعور المرأة السوداء عندما يترك زوجها الأسود مجلة «بلاي بوي»، ملقاةً على طاولة القهوة؟».

للمرة الأولى، يدرك تماماً معنى سطر قرأته زوجته في اليوم السابق: «يختلف استغلال صناعة الأفلام الإباحية لجسد المرأة السوداء اختلافاً نوعياً عن استغلاله لجسد المرأة البيضاء»، لأنها تحمل بين

يديها غلاف مجلة «جايفرز»، وتلوّح به أمامه لتسأل: «كيف يبدو مظهر هذه المرأة؟».

والشيء الذي رفض رؤيته - لأن رؤيته ستكشف عن زاوية أخرى يعجز فيها عن الدفاع عن النساء السود - هو أن الأفلام الإباحية تصوّر النساء البيض على أنهن «أشياء»، بينما تصور النساء السود كالحيوانات، وأنها تصور النساء البيض كأجساد بشرية على الأقل أو ككائنات حية، بينما تصور النساء السود على هيئة خراء.

ينتابه شعور بالغثيان، إذ يدرك أنه اشترى عدداً من، إن لم يكن جميع، الإعلانات عن النساء البيض والسود. وأنه بالمطلق، اشترى الإعلانات عن نفسه. فالأفلام الإباحية تصور الرجل الأسود بالقادر على مضاجعة أي شيء... حتى قطعة الخراء. وأن تعريفه الوحيد يأتي من حجم قضيبه واستعداده غير الانتقائي.

ورغم ذلك، ما زال يجهل كيفية ممارسة الحب من دون الخيالات التي غذّته إياها الأفلام والمجلّات. تلك الأفلام والمجلّات (بشخصياتها صاحبة المساعي البعيدة أو المتناقضة مع اهتماماته) التي حشرت نفسها بينه وبين زوجته، حتى أصبح جسمها بأكمله وحقيقتها الجسدية الكاملة غريبان عنه. حتى أن التشبث بها بشهوانية أصبح يجبر عينيه على الإغماض تلقائياً. يغمض عينيه... يضحك بينه وبين نفسه ضحكةً مريرة مكتومة... ويحلم بإنجلترا.

مرّت سنوات طويلة كان يضاجع فيها نفسه.

في بادئ الأمر، أثناء قراءتهما لورد سويةً، كانا يرفضان التبتُّل، ثم اكتشفا أنهما بحاجة إلى البعد لفترة لتصفية أفكارهما، للبحث عن وسيلة للتخلص من الضرر الذي لحق بهما، للاستشفاء. على أي حال، تعجز هي عن التظاهر بالاستجابة، ويترفّع هو عن قبول قيامها بذلك. ترحل عنه لفترة. منبوذاً ووحيداً، سرعان ما ينكب متعطشاً على المجلات التي ألقى بها بعيداً. يستمني بعنف على صور النساء الجميلات، المنتشرة

حوله ككومة من البطيخ (يبدأ برؤية كيفية تكشف الصور النمطية) أمامه. لكنه يعجز عن رفض معارفه - أو ما يعلَم أنّ زوجتَه تعلَمُه - يتنزه على امتداد شاطئ أحد بلدان السود حيث كافة النساء قد بيّضن بشراتهن وأجسادهن ممشوقة، والرجال لا ينظرون إلى أنفسهم مطلقاً؛ ودميمون بكافة الأحوال في تقليدهم للرجال البيض.

ينكبُّ قبل عودتها بفترة طويلة على قراءة كتبها والتفكير بها - وبصراعاتها بمفردها وخوفها من اطّلاعه عليها - وعند عودتها، يكون جسدها هي بنسبة 60٪ هو الجسد الذي يتمدّد بجواره تحت أشعة الشمس، وبشرتها السوداء تتجلّى بوضوح أمام إشراقة عينيه.

الشهرة

«لكي يتسنى للمرء ملاحظة أي شيء، وبالتالي أن يبدع. ينبغي عليه ألّا يكون مشهوراً»، هذا ما كانت أندريا كليمنت وايت تقوله للشابة الجالسة قبالتها وتصيخ السمع بإمعان.

«لكنك مشهورة»، قالت الشابة بارتياب مصطنَع، أمام كاميرات التلفاز.

«أحقاً هذا؟»، سألت أندريا كليمنت وايت ثم أضافت: «أعتقد أنني كذلك، لكنني لست مشهورة بحق، كما تعلمين... شيء من هذا القبيل». لكنها عجزت عن حمل نفسها على ذكر اسم أحد المنافسين، لأن ذلك من شأنه تعزيز شهرة ذلك المنافس، وتقويض شهرتها بحد ذاتها.

«سجلت كتبك مبيعات بملايين النسخ»، قالت المذيعة الشابة. «وتمت ترجمتها إلى عشرات اللغات، الألمانية والهولندية والبرتغالية».

«إلى الإسبانية والفرنسية واليابانية والإيطالية والسواحلية»، أتمت أندريا كليمنت وايت القائمة نيابة عنها، مسقطة منها الروسية واليونانية والبولندية واللتوانية، لأنها غابت عن ذهنها كلياً.

«وجنيت من عملك، كم؟ مئات الآلاف من الدولارات».

«أهذا صحيح؟ أجل، أجل»، قالت أندريا كليمنت وايت، بصوت فتاة صغيرة جمع بين الزهو والمناكدة.

«ليس بوسعي أن أتذمّر فيما يخصّ المبيعات».

وعلى هذا المنوال، تواصل اللقاء كاستجواب لطيف لا تتخلّله الأسئلة المحرجة، لأن أندريا كليمنت وايت كانت قد أصبحت مسنّة في هذا الوقت وأمست مدرسة لم يكن لأحد أن يبدي في حضورها سوى التبجيل.

قالت: «سأصيغها كالآتي. تكمن الأهمية الأكبر من وجهة نظر الروائي في كونهم أناساً. فقد يصف عالم النباتات زهرة ما بالحمراء. فهو بالفعل يدرس الزهور».

(انتقل ذهنها للعمل بشكل آلي، إذ لم يطرح عليها أحدٌ سؤالاً مشوقاً طيلة سنوات).

فإن كانت مشهورة، تساءلت عابسةً خلف الوجه المتنبِّه الذي قابلت به التلفاز: لماذا غاب عنها الشعور بالشهرة؟ كانت قد جنت المال، كما قالت الشابة التي تفتقر للمعلومات الصحيحة في جوانب أخرى. وشاهدت أن عملها لاقى قبولاً، بل وترحيباً حول العالم، فاقت مستوياته ما كانت تحلم به. وعلى الرغم من ذلك، جثم في نفسها شعور بالفراغ، كلّا، بل ألمٌ وسوس لها أنها لم تحقق ما كانت قد عزمت على تحقيقه. وأنها عوضاً عن ذلك، مجبرةٌ على العيش دائماً في ظلال الذين حقّقوا أكثر مما فعلت، أو لاقوا على أي حال تقديراً أوسع وحفاوة أكبر. ولكن بإمعان النظر، فأولئك «الآخرين» - وتبادر إلى ذهنها على الفور ضيوف برامج الحوار الذين استقطبت أعمالهم كثيراً من المراجعات وردد الكثيرون عباراتهم - لم يَلقوا إشادة أو ثناءً أكبر مما لاقت؛ فلماذا إذاً شعرت أنهم فعلوا؟

(علمت أنها لن تكون راضية عن اللقاء عند بثّه، وأنها ستظهر بمظهر البلهاء المعتدّة بنفسها والعالمة بكل شيء، أو كحمقاء مسنّة منفصلة عن الواقع. لطالما صوّر التلفاز استياءها المزمن، مهما حاولت تمويهه، بذكاءٍ على صورة إرهاق أو مشاغل ذهنية كثيرة أو سنّ الهرم الخرف، أو أياً كان).

غادرت الاستديو وهي تفكر بمأدبة الغداء المقامة على شرفها تلك العصرية في الكلية التي درّست فيها الأدب الإنجليزي لفترة تزيد على عقد من الزمان، وكيف كافحت حينها لتثبت أن المؤلفات التي كتبها تشارلز تشيسنوت تنتمي للأدب الإنجليزي. حينها كان الرئيس حاضراً، وكذلك جميع زملائها الذين تجادلت معهم، فنجحت أحياناً وأخفقت أخرى على مدار السنين (فمثلاً، واصلوا اعتراضهم على تشيسنوت لمدة خمسة أعوام). سيغدقون عليها الإطراء، ماسحين من ذاكرتهم تلك اللحظات التي تمنّوا فيها موتها؛ وستقبل هي إطراءهم بلباقة. تذكرت العميد كوك الذي تقاعد بالتأكيد، لكنها استبعدت غيابه عن المأدبة، وكيف كان دائماً أول من يبادرها بقبلة عند عودتها من جولة رابحة مهما كانت صغيرة، وكيف مقتت تلك القبلة، بشفتيه الخشنتين اللزجتين، وكيف حدثته عن شعورها بصراحة. وأجابها حينها قائلاً: «لكن القبلات قَدَرُ السيدات». فاستسلمت لذلك وتحملت، أو تجاهلته بصعوبة نظراً لأنهما كانا يتقاسمان مكتباً واحداً.

السيدة هايد، سكرتيرتها، كانت هناك أيضاً، والتي تقاعدت من الكلية لكنها واصلت عملها في مكتب أندريا كليمنت وايت في منزلها، وكانت لها أقرب إنسان أمكنها الاعتماد عليه. ففي أيٍّ من ساعات النهار أو الليل، كان بوسعها مناداة السيدة هايد التي بدا أنه ما من شيء أحب إليها من خدمتها. فقد أدركت أندريا كليمنت وايت أنها تمثل بالنسبة للسيدة هايد بريقاً غائباً كليّاً عن حياتها، وأنها واصلت طوال معرفتهما الممتدة على مدار ثلاثين عاماً، تقليلها من قدر السيدة هايد من دون شفقة. لأنها في واقع الأمر، ترعرعت والسيد هايد في خدمتها - الرجل الضئيل الممل بخدّيه المسطَّحين الضامرين كأفعى - والذي قدم لزوجته قدْراً ضئيلاً من التشويق والإثارة شعرت أندريا كليمنت وايت أنّه تولَّد بشكل عفوي في محيطها.

ففي واقع الأمر، وبينما كانت السيدة هايد تقود السيارة والسيدة

كليمنت وايت تجلس بجوارها، كان بمقدور المرء معرفة مدى ضآلة الحياة التي يتقاسمانها من السكون المريح المخيّم على السيارة. أما إذا كانت أندريا كليمنت وايت برفقة زوجها في السيارة، لتبدّى بوضوح أنهما يتقاسمان حياة مشتركة. فقد كان رجلاً قليل الاهتمام بالأدب، لكونه - بحسب وصفه - قد اقترن به ولاحظ مدى جنونه. لكن نوعية الصمت التي سادت بينهما كانت مختلفة، ففي صمته شيء من التوتر ونفاد الصبر والانتقاد لشخصها، إذ كان يفضّل الإحجام عن الكلام ليعلمها بما يدور في خلده. أما السيدة هايد، فكانت تصمت بهدف توفير الراحة، إذ كانت تعلم أن السيدة كليمنت وايت بحاجة إلى ذلك الصمت لتستعيد نفسها بعد مواجهة خاضتها مع الآخرين.

«تخيّلي أن تفكري بأن السود يكتبون فقط عن كونهم سوداً لا عن كونهم بشراً»، زأرت أندريا كليمنت وايت بينما كانت تنبش محفظتها بحثاً عن منديل ورقي. «مكياج مقرف»، قالت وهي تمرر المنديل حول ياقتها لتخفضه بعد أن اكتسب لوناً بنياً داكناً وتابعت: «أتتخيلين، رغم درجات اللون البني العديدة، هناك عبوة بلون واحد لتغطية كل شيء». لزمت السيدة هايد صمتها وواصلت قيادتها بحرفية وسلاسة، تستمتع بفخامة السيارة فضية اللون من طراز «مرسيدس 350 إس إل». وبينما بالكاد لامست قدمها دواسة البنزين، انطلقت السيارة بنعومة وسلاسة لا متناهية على الطريق.

دخلت الاستديو، أجابت أندريا كليمنت وايت نفسها كالعادة (أسمى أحدهم ذلك لعنة - أو لعلها نعمة؟ - الفنان؛ فقد ظنت أن الجميع يفعل ذلك)، وأدركت مباشرة كالمعتاد، أن الأمر سيكون مريعاً وأن الأسئلة ستكون مملة والمذيعة قليلة الثقافة، جاهلة بالتاريخ وضعيفة التحصيل العلمي.

كان بالإمكان الاكتفاء عندما كان الليبراليون البيض يحدثونك عن اعتبارهم لأقوالك وكتاباتك شيئاً جديداً في هذا العالم (وكان من

المتوقع أن ينخدع المرء بهذا الإطراء)؛ إذ لم يكن له أن يتوقع معرفتهم لتاريخه بالشكل الكافي للتمييز بين ثورة أو تغيير عند رؤيتهم له، فقد كان شيئاً جديداً في نظرهم. وكم كانت المذيعة السوداء الشابة جاهلة إلى حد الظرافة عندما قالت بصوتٍ مُدَوٍّ: «أنتِ هي الأولى» بنبرة سوداء غير مصقولة إلى حد الغرابة - لكن التلفاز سيقوم لاحقاً بإكسابها نبرة البيض - وعندما قالت أندريا كليمنت وايت: «ما من أوّلٍ في كل شيء، أوّلٌ مطلق في مجال العلاقات الإنسانية، ربما باستثناء مجال العلوم»، كانت المذيعة قد فهمت تواضعها وابتسمت ابتسامة عريضة توحي بالمجاراة. (كرهت أندريا كليمنت وايت أن يجاريها أحدهم إن لم تكن تسعى للمجاراة، وكانت تلك هي اللحظة التي انتقل فيها ذهنها إلى النمط الآلي).

ها هي زهور الليلك تتبدى مسرعة على طول الطريق كأنها مرسومة على خلفية لون السيارة الفضي؛ فتداخلت زهور الليلك مع المذيعة: إذ تراءت في ذهنها صورة المذيعة وخصلة من الليلك في شعرها. ولمَ تكثر زهور الليلك بعيداً نحو الجنوب؟ أتزحف جنوباً هرباً من الشتاء القاسي؟ أم كانت هاهُنا دوماً؟ عجزت أندريا كليمنت وايت عن التذكر. رأت نفسها بينها في حرم جامعتها أعلى ولاية نيويورك. وقفت ورائحة زهور الليلك تلفّني. وقد استخدمت عطر الليلك لمدة عشرين عاماً، باستثناء عام واحد جرّبت خلاله عطر البتشولي.

أوقفت السيدة هايد السيارة ومدّت يدها إلى المقعد الخلفي لتتناول العصا التي تضفي على علاقة السيدة كليمنت وايت مع المشي شيئاً من الثبات. كانت عصاً جميلة من خشب البلوط، نحتها بيده نحّاتٌ شهير من القرن الثامن عشر، كان قد وقع في قبضة مخدومة طالبته بنحت عشرين عصاً مثلها في الأسبوع لبيعها في السوق في «شارلستون»، كوسيلة لإعالة نفسها بعد خسارة زوجها لأمواله في القمار وهروبه مع امرأة قدمت له مزيداً من المال. فقام النحات - الذي سئم النحت، غيرَ

مؤمنٍ بنجاح الحرب الأهلية في تحرير العبيد، وبأخلاقه النبيلة التي منعته عن التمرُّد أو الهرب بعيداً عن امرأة بيضاء عاجزة بحاجة إليه - بقطع ثلاثة من أصابع يده اليسرى «عرضياً»، أثناء «تقطيعه لأغصان» إحدى الأشجار. لكنه عجز عن تخمين مقدار عناد مخدومته العنيدة مثل سكارليت أوهارا[1]، إذ قامت بتقليص عدد العصي الذي تتوقعه أسبوعياً إلى خمس عشرة.

«وقفت أراقب النحّات بِن أثناء صناعته للعصي»، فكّرت أندريا كليمنت وايت، «فقد كنت ابنته. أكنتُ جميلة؟»، اعتقدتْ أنها كانت كذلك على الأرجح، وبقيتْ بمثابة يده الثانية حتى قدوم الحرية. جاءت الحرية وراودت الجميع أفكارٌ عن الهدف منها، بمن فيهم بِن. كان ببساطة قد مات، وكنت بالطبع موجودة أثناء دفنه. بل في واقع الأمر، حفرت القبر بيدي برفقة... ثم تساءلتُ إنْ كانت مساعدتُها في حفر القبر تستلزم منها أن تكون صبياً. تخيّلت نفسها صبياً وسيماً، أليس كذلك؟ رجّحت أنه كان كذلك. لكنها فكرت حينها أنها ليست مضطرة لتكون صبياً لفعل ذلك لأنها زاولت كافة أنواع العمل في المزرعة رغم *أنها فتاة*، من دون أن يرى أحد غرابة في ذلك. فقررت أنها ستبقى فتاةً، وتنفَّست الصعداء.

فتح رودولف ميلر باب السيارة من جهتها ونظرت خارجاً وإلى الأعلى إلى طية صدريته. تعلو وجهه تلك الابتسامة المداهنة القذرة كآكلٍ للخراء، التي احتقرته بسببها طيلة ثلاثين عاماً. كيف استطاعت تحملَها من دون أن تتقيأ؟ فقد بدت كأنها مصنوعة من عجينة ورقية مبللة. تناولت يده: اليد الجافة المنتفخة المسنّة، بأظافرها الشبقة. «ياخ! يا للقرف» (مفيدةً كانت تعابيرُ أحفادها في أوقات كهذه). هرولت السيدة هايد حول السيارة والعصا في يدها. كم كانت سمينة، السيدة هايد، ترزح تحت وطأة نفَسِها الثقيل المخطوف. لكن مهلاً، زهور الليلك! حتى هنا.

1- بطلة رواية «ذهب مع الريح» - (المترجم).

«عندما تفتحت زهور الليلك أخيراً في الفناء»؛ لعلّ أبراهام لنكولن لم يحلم قَطّ بوجود جامعات كهذه، للسود، في الجنوب. بماذا كان يحلم؟ أن يتحلى بإطلالة أجمل، لم يخامرها شكٌّ في ذلك.

تظهر على خدَّيها الآن بقعٌ بنّية تشي بتقدُّمها في السن بينما ينحسر شعرُها ببطء، لكن مظهرها ليس سيئاً للغاية. قد يبدو أسوأ إلى ما لا نهاية، لكن مأدبة الغداء على شرفها ستبقى قائمة، يليها حفلُ عشاء في تلك الليلة وسيأتي المستقبل محمَّلاً بالعديد من حفلات الكتب والبرقيات والناس الذين يتطلعون إليها باحترام. فالنجاح هو الهيكل العظمي الأفضل، أو الجراحة التجميلية الأمثل. وهل كانت ناجحة؟ سألت نفسها، وأجابت نفسها على هيئة جوقة، بسخط: «بالطبع أنت ناجحة!»، سوى أن صوتاً صغيراً واحداً في الخلف تلعثم، فخنقته.

حضر أيضاً كلٌّ من ماكجورج جراندي، بوندي، مؤسسة فورد، وكانوا يصعدون الدرج. (تكبَّدوا بالفعل استجداء حضور الشخصيات الرفيعة لهذا الشأن). وسيتحوَّل بالتأكيد إلى حفلٍ لجمع التبرعات على غرار كل ما سبقه. وهل مانعت ذلك؟ قلدت ماكجورج في أحد خطاباته: «أهبكم المال كله دفعة واحدة. لن تضطروا للقلق حيال المال بعد اليوم. أو التسول. نقطة انتهى. وداعاً». هتاف. قبعات تتطاير في الهواء. لقد اعتاد الناس فعل ذلك في الواقع، لكن قلة منهم ترتدي القبعات اليوم. النيجريون بالطبع، كما تناهى إلى مسامعها، اعتادوا إلقاء الناس في الهواء، لكن ذلك كان محبطاً.

«أنجزت هذه السيدة الصغيرة»، أكان سيقول «هذا الرجل الصغير...؟»، قطعاً لا. ما من رجل سيرغب بوصفه بالصغير. سيعتقد أنها إشارة إلى قضيبه. لكن مقولة «السيدة الصغيرة»، تدفع الرجال للتفكير بالعذارى. الفروج الصغيرة الضيقة، ولحظات الاغتصاب.

لكن هذه ضريبة الشهرة، فكرت أندريا كليمنت وايت بينما نخزت بشوكتها دجاجة من فصيلة «روك كورنيش»، فانزلقت برشاقة إلى حضن

السيدة هايد. هناك أيضاً الجموع الغفيرة. أهو جمعٌ غفير؟ فقد حضر أيضاً كل طالب مغفَّل درّسته، وكل بروفيسور من درجة متوسطة رغبت بضربه بالفأس. وكان الرئيس يفعل ما يجيده دوماً: «هذه السيدة الصغيرة».

لعلّ عطر الباتشولي كان هو الطُعم الذي اصطادت به وليم ليتز وايت، زوجها، الطبيب الناجح ولاعب البلياردو المخضرم الذي لم يسبق له أن اشتمّ عطراً مثله ولا عقد العزم على ذلك. البوهيمية، الحسناء البوهيمية، هكذا لقبها. وقد رغبت بأن تكون بوهيمية: كأن تكتب على طاولة المطبخ ربما، لكن بعيداً عن الأطباق غير المغسولة التي تناول فيها أطفالُها الحبوب. فكان عطر الباتشولي أقرب ما تسنَّى لها إلى البوهيمية.

ما زالت الدجاجة معششة في حضن السيدة هايد التي، على غرار غالبية البشر الذين يفتقرون إلى الشهرة، أصيبت بالشلل حيال شيء صغير كإعادة دجاجة «روك كورنيش»، من حضنها إلى الطاولة. كيف لها أن تكون عديمة الحياء بهذا القدر لتعيد إسقاط الدجاجة في طبق أندريا كليمنت وايت؟ تلك السيدة المشهورة النيّقة (سبقت لها قراءة مقابلات وصفتها بالنيّقة، ولكن ذلك لم يكن رأيها بالضرورة). بدأ العرق يتصبّب منها.

«يا له من أجوف»، قالت أندريا كليمنت وايت بخبث مسموع (شكل استكشاف الخبث مصدر تسلية لها)، لكن شهرتها غفرت لها كل شيء، استخدامها كوسيلة لجمع التبرعات، وسنّها. ثم بدأت تتحسس حول ركبتي السيدة هايد العريضتين بحثاً عن الدجاجة الصغيرة. وبينما سحبتها إلى الأعلى وهي عالقة بفستان السيدة هايد - التي تحولت رمادية اللون جراء الإحراج - رفعتها أندريا كليمنت وايت إلى شفتيها وقضمتها.

فعل الشيء نفسه خمسمائة غيرها من الحضور.

أهناك فائدة ترجى، تساءلت بينما مضغت طعامها، في التفكير حيال ما يتناوله المرء من طعام في مناسبات كهذه؟ الدجاج القاسي كالصخر، الحلقة الحمراء من التفاح الحار الطري. البروكلي الذي لم يتعلَّم أحد في الجنوب كيفيَّة طهوه، باستثناء سلقه؟ لم تعتقد ذلك، وأكلتها كاملة

من دون التفكير بما يتعدى حقيقة كونها جائعة، وبحاجة للتبول، وضجرة حدّ البكاء، وأن شريط حمالة صدرها كان يعضّ الحواف الخارجية لآثار عملية استئصال الثدي التي خضعت لها مؤخراً.

سربٌ بطيء مسنّ من الدبابير البغيضة - (مالك الصحيفة الذي قال إن التجارة أنفع للزنوج من التعليم العالي؛ وهي التي حدَّثت القاصي والداني عن الرؤى المذهلة التي راودت طبَّاخ جدَّتها المستعبد؛ ذلك الذي...) - جميعهم الآن هبّوا ضاجّين بمديحها. مضغت دجاجتها ومضغ برفقتها خمسمائة آخرون، وضجيج مضغهم ليس إلا تجاهلاً صاخباً متواصلاً وكثيفاً. وعلى نحو مفاجئ، وجدت نفسها في المزرعة من جديد. لكن أين بالضبط؟ الميسيسيبي؟ حارة للغاية وصورة مستهلكة سلفاً. ديتو ألاباما، جورجيا ولويزيانا. وقع اختيارها على فرجينيا، حيث الجبال بطقسها المعتدل وشطحة الخيال غير الجامحة لتشبيه خمسمائة ودجاجة مع ذاك العدد الكبير من العبيد الجوعى. تَمَطَّقَتْ. ابتسمت بينما مضغت طعامها من دون أدنى نية للإصغاء. هزّت رأسها - مبتسمة تمضغ طعامها حالها حال جميع الجالسين من حولها. فكّرت: «ما زلت جالسة هنا رغم أنوفكم»، ومدّت يدها لتتناول حلقة التفاح من طبق السيدة هايد. لطالما تم الإبقاء على حلقة التفاح هذه لتأكلها في ختام الوجبة. كانت بمثابة تحلية بالنسبة لها.

مطّت نفسها إلى الأمام لبضع دقائق ليتمكن رئيس الجامعة تيديوس تايلور من تعريف الجمهور بها، وعاركته بنظرة من عينيها: «إياك وأن تجرؤ على تقبيلي!». لكنه أغمض عينيه الجاحظتين كضفدع وأحنى رأسه، ثم شفتيه المتدليتين، ورسم قبلة على أكثر البقع البنية في وجهها وضوحاً. *يا للقرف، كثيرٌ من تعابير القرف.* لأن ذلك تلاه انسلال العميد كوك من خلفها (الذي راقبته عن كثب حتى اللحظة)، ليلصق فمه على رقبتها كأنه يهمّ بالسقوط.

شاهدت نفسها تضربه على مغبنه بجائزتها؛ الوزَّة الفضية بمنقارها

الحاد. أكانت فعلاً وزّة فضية؟ قد تكون بطّة، أو بجعة أو وزّة (شاعت الجوائز على هيئة الطيور مؤخراً) ربما الثلاث معاً، وقد لا تكون فضية بل مطلية بالفضة، وهناك بيوض أيضاً (فهي امرأة في نهاية المطاف)؛ ذهبية.

غمرها شعور رائع لوهلة، متخيّلة زعيق كوك كالخنزير، والتهمت دجاجتها بوحشية بينما عيناها تبرقان بذهول جذل.

وأمام الحضور، تقدمت صوب السيدة كليمنت وايت بانحناءة خفيفة، فتاة صغيرة بلون الشوكولاتة. لون الشوكولاتة الحقيقي. لطالما وصف الكتّاب المأجورون السود بلون الشوكولاتة؛ موفرين على أنفسهم عناء النظر. سرّت أندريا كليمنت وايت لكون هذه الطفلة تتمتع بالفعل بالدرجة المطابقة للون قطرة الشوكولاتة البنية.

فتحت الطفلة، بكل ثقة، فمَها وبدأت تغنّي أغنية مألوفة إلى أبعد حدّ. أغنية للعبيد مجهولة المؤلف.

تساقطت أرجل الدفاع المرفوعة على الأطباق كحبّات البرد. وساد أخيراً صمتٌ مطبق.

وكانت ذاكرة تلك الطفلة المفعمة بالثقة، وتلك الأغنية القديمة المجهولة، ما منح أندريا كليمنت وايت الطاقة لتنهض وتتحمَّل بوقار (بينما الجمهور يتناول التحلية خلسة عند بدئها بالتحدث) تكريمَها بجائزتها الكبرى الحادية عشرة بعد المائة.

الإجهاض

سبق أن ناقشا، لكن من دون توسُّع، رغبتَهما بالطفلة التي تحملها الآن بين يديها؛ «لا أعلم إن كنت أرغب بها»، قالت وعيناها تفيضان دمعاً. كل شيء يبكيها الآن، وغالباً ما انتابها الغثيان. وقد بدا بكاء الحوامل بسهولة وشعورهن بالغثيان شيئاً تافهاً في نظرها، ولطالما امتعضت من هذه التفاهة.

«حسناً، فكِّري بالموضوع». قال بصوته الرخيم المطمئن الذي اعتاد التخفيف عن نفسها، ولكنها الآن تسمع فيه نبرة تنمّ عن نفاد صبره.

استحوذ الموضوع على تفكيرها، وما خلصت إلا إلى أنه ما حلم إلا بتوريطها. لكن جدالهما دائماً ما انتهى بخسارتها، فقد كانت أعصابها تستشيط غضباً بينما يتحول هو على الفور إلى إنسان منطقي ناضج ومسؤول، هذا إذا لم يستجب بدقة لمزاجها، وستغصّ هي بدموعها وتمقت نفسها. ونتج ذلك عن إيمانها به كإنسان «صالح»، أفضل إنسان التقته في حياتها.

«كأن أسرتنا لا تضمّ بالفعل طفلاً»، قالت بنبرة أكثر هدوءاً، بينما مسحت بلا مبالاة دمعة انهمرت من إحدى عينيها.

قال بصوت مِلؤه المسرّة: «لدينا طفلٌ مثالي، أحمدُ المولى عزّ وجل».

وهل تخيلت يوماً أنها ستقترن بشخص يتمتع بالقدر الكافي من التواضع ليشكر المولى في كل عبارة؟ قطعاً لم تحلم بذلك.

غادرا غرفة النوم، حيث كانت مستلقية على سريرهما الضخم بقياسه

الملكي، وفي وسطه ذلك النتوء البغيض، ونزلا إلى الصالة - بجدرانها المزينة بالرسومات المشرقة - وصولاً إلى المطبخ بأجوائه الهادئة ونظافته المطلقة الخالية من أية بقعة. ملأ الإبريق فاقع الصفرة بالماء لإعداد الشاي.

تمنّت أن يرغب بالطفل لدرجة تدفعه إلى محاولة إنقاذ حياته، لكنها امتنعت في المقابل عن مثل هذه الافتراضات المسبقة. وبينما واصل ثناءه على طفلهما الحالي، الفتاة المرحة ذات الابتسامة التي تأسر القلوب، استشعرت *إماني* حيلته وتركت لقلبها أن يزداد قساوة وإصراراً.

«عمّ أتحدث؟»، قالت كأنها كانت بالفعل تتحدَّث عن الموضوع: «سيقتلني إنجابُ طفلٍ آخر. لا أتخيل حياتي بوجود طفلين. إنجاب طفلٍ تجربة جيدة يعيشها المرء، كالتخرج من المدرسة. فإن أنجب المرء مرّة، فقد خاض التجربة وكفى».

وضع الشاي أمامها وألقى على شعرها يداً ثقيلة. شعرت بحرارة وضغط يده بينما لامست الفنجان وأحسّت بالعبق والبخار الصاعدَين منه. ضاق بلعومها.

«ليس بوسعي شرب هذا»، قالت وهي تصرّ على أسنانها.

«خذه بعيداً». تكررت أيامٌ على هذا المنوال.

بالكاد بلغ عمر ابنتهما كلاريس العامين. جاءت حادثة إجهاض سببه الحزن بين ولادة كلاريس والحمل الجديد (إذ كانت إماني قد فقدت والدتَها، الناشطة بيئياً، جَرّاء مرضها بسرطان الرئة بعد ولادة كلاريس بفترة قصيرة؛ فالسقف المصنوع من الحرير الصخري في غرفة الصف التي درّست فيها طلاب الصف الأول، بقي متشققاً ويتسرب منه الماء لمدة عشرين عاماً). أحست إماني بجسدها يتعرض للاجتياح نتيجة هذه الأحداث، وكان بالفعل قد أصبح ضعيفاً بشكل ملحوظ، ويعاني من فقر دم مزمن، ومنهَكاً على الدوام.

وعلى الرغم من ذلك، لو أنها رغبت بالطفل أكثر من عدم رغبتها به، لما كانت خططت لإجهاضه.

كانا يقطنان بلدة صغيرة في الجنوب، حيث عمل زوجها كلارنس، إلى جانب أعمال أخرى، مستشاراً قانونياً ومدافعاً عن عمدة البلدة الأسود الجديد. وكان للعمدة حضور كبير في حياتهما بسبب الصعوبات التي ضمنتها له حقيقة كونه أول عمدة أسود للبلدة، ولأن كلارنس أعجب به وأجلّه كثيراً، إلى جانب كبار زعماء النزاعات السود في الجنوب.

احتفظت إماني بحكم مطلق، لكنها لم تشرْ إلى أن العمدة كارسويل يمتنع عن النظر إليها إطلاقاً عند صدور تعليق منها أو طرحها سؤالاً ما، حتى أثناء جلوسه إلى مائدة العشاء في بيتها، وأنه يوجِّه حديثَه إلى كلارنس بدلاً عنها كأنها غير موجودة. فقد افترض أنها كامرأة، لن تكون مهتمة أو حتى قادرة على فهم السياسة. (قد يمتدح طبخها أو ملابسها، ولاحظ عندما قصّت شعرها). إلا أن إماني كانت تستوعب كافة خفايا السياسة وتنويعاتها: فقد أدركت مثلاً لماذا تطعم الفم الذي لا يخاطبها، لأنها في الحاضر مضطرة إلى الإيمان بالعمدة كارسويل، حتى رغم عجزه عن الإيمان بها. ورغم استيعابها لذلك، لطالما واجهت صعوبة في هضم وجبات العشاء بحضوره.

لكن كلارنس كان متفانياً تجاه العمدة، وآمن بأن نجاحه سيعود في نهاية المطاف بالأمان والتقدم عليهم جميعاً.

وفي الصبيحة التي غادرت فيها لإجراء عملية الإجهاض، كان العمدة وكلارنس يعتزمان حضور غداء عمل، وأوصلاها إلى المطار وسط حديث موسع حول أموال البلدية، وعناصر الشرطة العنصريين، ومرافق التعليم في المدارس الفوضوية التي أصبحت مختلطة مؤخراً. خصص كلارنس قليلاً من الوقت لأقصر قبلة وعناق على رصيف المطار.

«اعتني بنفسك»، همس لها بمحبة بينما مشت مبتعدة. فقد تعين عليه أثناء غيابها وضع مسودة لميثاق المدينة الجديد. وكانت قد اتفقت معه على

أهمية ذلك، إذ كان العمدة يتعرض بالفعل لانتقادات متعلقة بعدم الكفاءة من رجال الأعمال المحليين وغرفة التجارة، حتى أن أحدهم على التلفاز خمّن بأنه ما من أحد من السود الأحياء يعلم حتى معنى ميثاق المدينة.

«اعتني بنفسك»، حسناً، فكرت في نفسها، «أعلم أن مسؤولية ذلك ملقاة على عاتقي». لكنها فكرت بذلك انطلاقاً من شعور بالشفقة على ذاتها، الأمر الذي أفقد الموضوع قيمته. فقد توقعت منه أن يعتني بها، ولامته على التقصير في ذلك.

حسناً، كانت مخادعة على أي حال، فقد علمت بعد مرور عام على زواجهما أنها ضجرت من ذلك. وكان الهدف من «تجربة إنجاب طفل»، تشتيت انتباهها عن تلك الحقيقة، لكنها رغم ذلك توقعت منه «الاعتناء بها». فقد كانت محظوظة لامتناعه عن حزم أمتعته والرحيل، لكن الظاهر أنه علم، كما علمت هي، أن الذي قد يحزم أمتعته ويرحل سيكون هي، تحديداً لأنها مخادعة ولأنه في نهاية المطاف سيقبل بالخداع ولكنها عاجزة عن ذلك.

وعلى متن الطائرة المتجهة إلى نيويورك، آلمتها أسنانها وتقيّأت مادة صفراء مريرة جهلت حتى أن جسمها قادر على إفرازها. بغضت وقدّرت المساعدة الضئيلة التي قدمتها المضيفة وسألتها عما إذا كانت بحاجة إلى شيء، ثم وقفت تثرثر مع الرجل الأبيض الذي كان يدخن سيجارة بجوارها، وكان معصمه البدين المشعر كدودة عملاقة، هو الشيء الوحيد الذي تمكنت إماني من رؤيته بطرف عينها.

غالباً ما تذكرت عملية إجهاضها الأولى أيام الجامعة، كتجربة رائعة تحمل بين حناياها كافة دلالات نضوجها واتخاذها لمسلكها الخاص في الحياة، وكاستيعاب للوجود لم يفارقها قطّ: الحياة – أي ما رآه الإنسان في الآخر وأسماه الحياة – ليست مجرد واجهة. ولا خلفها شيء يستخدم «الحياة»، كتجسيد له، فالحياة هي الحياة. نقطة انتهى. وفي ذلك الحين وبعده، وحتى اليوم، بدت معرفة ذلك أمراً مذهلاً.

تولى عملية الإجهاض طبيبٌ إيطالي مرح على الجانب الشرقي الأعلى من نيويورك، حدثها قبل حقنها بالمخدر عن ابنته التي كانت في عمرها، وعن طالب مستجدّ في جامعة «فاسار». واصل ثرثرته حتى فقدت وعيها، ليس قبل أن يتسنى لإماني التفكير كيف أن الألف دولار التي ستبقيها مديونة لسنوات، ستذهب لإبقائها في الجامعة.

كان كل شيء قد انتهى عند استيقاظها. وبينما استلقت على كنبة بنّية من الجلد الاصطناعي طراز «ناوغاهايد»، في القسم الخارجي من عيادة الطبيب، تناهى إلى مسامعها صوت امرأة في الهواء فوقها آتٍ من مكان ما. كان اليوم سبتاً ولا ممرضات في العيادة، فافترضت أن زوجة الطبيب هي صاحبة الصوت، ثم سحبها ذلك الصوت برفق لتقف على قدميها وشجّعها على المشي.

«وعندما تغادرين، احرصي على المشي كأن كل شيء على خير ما يرام»، قال الصوت.

لم تشعر إماني بأية آلام وفاجأها ذلك. لعلّه لم يفعل شيئاً، فكّرت في نفسها. ربما أخذ الألف دولار ونوّمني بمخدّر قيمته دولاران. ربما تعرضت للخداع.

لكنه كان في غاية اللطف، وابتسم في وجهها ابتسامة رقيقة شبه أبوية (وأدركت إماني مدى حاجتها اليائسة لتلك النظرة «الأبوية»، تلك الابتسامة «الأبوية»). «شكراً جزيلاً»، تمتمت بامتنان: كانت تشكره على حياتها.

قال وصوته ما زال يختزن شيئاً من إيطاليا: «الأمر بسيط، بسيط. فتاة لطيفة جميلة مثلك، في المدرسة مثل ابنتي، أنت بغنىً عن هذه المشكلة».

«إنه لطيف»، قالت لنفسها بينما مشت باتجاه النفق في طريق عودتها إلى المدرسة. استلقت بحذر على مقعد شاغر، وفقدت وعيَها.

نزفت على نحو متواصل لستة أسابيع، واستغرقت كامل السنة لتستعيد عافيتها كاملة.

لكننا اليوم على مسافة سبعة أعوام من ذلك، ويتيح قانون الإجهاض تحديد موعد في العيادة، وإجراء عملية إجهاض آمنة وسريعة وخالية من الألم لقاء خمسة وعشرين دولاراً فقط.

فيما مضى قطنت إماني في نيويورك، في «فيلج»، على بعد أقل من خمس جادات من عيادة الإجهاض. وكانت أيضاً بالقرب من عيادة «مارجريت سانجر»، حيث خضعت لعمليتها الأولى في الحجاب الحاجز، بامتنان مطلق وذهول بالغ لكون أحدهم قد فهم واهتم حقيقةً بامرأة وحيدة وجاهلة مثلها. في واقع الأمر، وبينما صعدت باتجاه الجادة بمبانيها المكتبية العصرية المتجاورة مع نظيراتها القديمة، وبأحجار بنية أكثر إشراقاً، شعرت بمدى قربها من ذاتها القديمة تلك. ورغم أنها ما زالت عاجزة عن التحكم بإحساسها، شعرت بقدرتها على التحكم بجسدها، قسراً وبفضل المال الذي حملته لرحلة الطائرة والعملية بحد ذاتها.

وجدت أن عمليات الإجهاض دخلت الآن عصر خطوط التجمع. ورغم امتنانها لقلة الاختلاف بينها وبين النساء الأخريات من مختلف الألوان والأعمار وحالات البؤس والتوتر، كانت أقل سعادة بمجرد بدء الطبيب بإدخال أنبوب القسطرة، بملاحظة أن المخدر الذي تم حقنها به كان غير كافٍ. لكن خطوط التجمع لا تتوقف مستجيبة لشكوى متعلقة بالمنتج المصطف فيها. صَفَرَ طبيبها وأكد لها أنها على خير ما يرام، وتابع العملية حتى نهايتها المرعبة. فقدتْ إماني وعيها قبل ذلك بثوانٍ.

أضجعوها خارجاً في غرفة هادئة تسودها الألوان المفرحة. الألوان الأساسية: الأصفر والأحمر والأزرق. وعندما استفاقت، انتابها شعور بأنها في روضة أطفال، وبحاجة ماسّة إلى التبوّل.

ساعدتها بلطف ممرضة ذات شعر أبيض ويدين قويتين في الوصول إلى المرحاض. شاهدت إماني نفسها في المرآة فوق المغسلة واعتراها القلق، فقد كان لونها رمادياً بكل معنى الكلمة، كأنها نزفت دمها كلّه.

«لا تقلقي حيال مظهرك»، قالت الممرضة، «استريحي قليلاً وهوني عليكِ. لدى عودتك إلى المنزل. ستكونين بخير في غضون أسبوع أو نحوه».

عجزت عن تخيل أنها ستكون بخير من جديد. ففي مكان ما، كان طفلها – لم تهرب البتة إلى استخدام لغة «الأجنة»، و«غير مكتملي النمو» – تشطفه المياه إلى البالوعة. وتلاشت كل فُرَصِهِ أو فُرَصِها برؤية نور الشمس، أو تذوُّق حبة تين.

ولذاك الطفل قالت: «حسناً. انحصر الخيار بينك أو بيني يا طفلي الصغير، وقد اخترت نفسي».

رأى بعضهم أن اختيارها لنفسها كان من غير وجه حق، لكن إماني علمت أنه من الأفضل عدم التفكير بهؤلاء الآن.

عادت إلى منزلها في أحد أيام السبت الساطعة والحارة.

استقبلها كلارنس وكلاريس في المطار، مصطحبين معهم زهوراً من حديقة إماني، قدمتها لها كلاريس مع عناق قوي. وما إن أصبحت في حضن والدتها، استقرّت هانئة طوال الطريق إلى المنزل، تمصّ إبهامها وتفرك أنفها بسبابة اليد نفسها، بينما تدعك بأصابعها الثلاث الأخرى زاوية بطّانيّتها.

«كيف سار الأمر؟»، سأل كلارنس.

«سار في حال سبيله»، قالت إماني.

ما من طريقة لشرح الإجهاض لرجل. اعتقدت أن الإخصاء قد يكون نظيراً مناسباً، لكن معظم الرجال، وربما كلهم، يصرّون على عدم صحّة ذلك.

قالت: «لم يفلح التخدير. ظننت أنني لن أغيب عن الوعي في الوقت المناسب لأمتنع عن الصراخ والقفز عن الطاولة».

شحب وجه كلارنس، فقد كره فكرة الألم بحد ذاتها، وكافة أنواع العنف. لم يكن بمقدوره تحمّلها، بل كانت تبعث شعور المرض في جسده. وهذا ما جعل منه شخصاً مسالماً رافضاً للعنف، ذلك الشخص الآخر الذي نال إعجابها.

أدركت رغبته بتوقّفها عن الكلام، لكنها تابعت بصوت خافت متعمّد: «كأن دمي كله نزف خارجاً مني، وشعرت بأوتار ساقي تتقطع. شحب لوني وتحول إلى الرمادي». مدّ يده باتجاه يدها، أمسكها وضغط عليها.

قالت: «لكنني على الأقل أعلم ما لا أرغب به. وعقدت العزم على عدم الخوض في أيٍّ من هذا مجدداً».

كانا في غرفة المعيشة في بيتهما الهادئ المسالم بألوانه المشرقة، إماني على كرسيها الهزّاز وكلاريس غافية في حضنها. انزلق كلارنس إلى الأرض وأراح رأسه على ركبتيها، فشعرت أنه كان يطلب منها الرعاية بينما كانت هي بحاجة إلى من يرعاها. شعرت بهما كليهما، كلارنس وكلاريس، يتشبّثان بها، يستغلّانها. وأن السبيل الوحيد إلى استعادة نفسها وشعورها بالتميز عنهما، يكمن في خطوة مؤلمة تحدد من خلالها ذاتها، على أن تدمرها في الوقت نفسه.

تحملت الضغط الذي أحدثه رأسه إلى أطول فترة ممكنة.

قالت: «اقطع القناة المنوية، أو بوسعك المكوث في غرفة الضيوف. ما من شيء سيلمسني بعد اليوم، إلا إذا كان غير مؤذٍ».

مسح بيده على شعرها الكثيف وقال: «سنتحدث في الموضوع»، كأنهما يفعلان شيئاً آخر غير الحديث. «سنرى. لا تقلقي. سنجد حلولاً لكل شيء».

غاب عن ذهنها أن يوم الأحد هو الثالث من شهر يونيو، أي اليوم التالي، كان يوم التأبين التذكاري الخامس لـ«هولي مونرو» التي لاقت حتفها برصاصة في طريق عودتها إلى المنزل من حفل تخرجها من المدرسة الثانوية قبل خمسة أعوام. واظبت إماني على حضور حفلات التأبين التذكارية هذه، إذ أحبّت شعور الطمأنينة حيال قدرة الناس على الاحتفاظ بذكريات طويلة الأمد، وأن الذين لاقوا حتفهم في النزاعات أو من دون ذنب، لم يصبحوا طيَّ النسيان. كانت بالطبع تعاني ضعفاً يقعدها عن الذهاب، إذ لم يفارقها الشعور بالدوران ولا النزيف. حاول

المشرّعون البيض الالتفاف على حادثة الاغتيال - اعتبرت إماني ذلك إجهاضاً شديد القسوة - بحجة أن الضحية استفزّت ذلك بسلوكها (لم يخلُ قول ذلك عن هولي مونرو من الصعوبة، لكنهم حاولوا) إلا أنهم عارضوا إجهاض الأجنّة البشرية. دارت تلك الأفكار في رأس إماني بينما كانت تتمالك نفسها بحزم لتستحمّ وتغسل شعرها.

كان كلارنس قد قام بتركيب نظامِ تكييف مركزي في العام الثاني من انتقالهما للمنزل. اعترضت إماني فيِ بادئ الأمر وبكت قائلة: «أريد أن أتنشّق رائحة الأشجار، والزهور، والهواء الطبيعي». لكن أول صيفٍ وصلت فيه درجة الحرارة إلى 110 درجات أنساها تلك الأماني ولم تعد تكترث بأيٍّ منها. بل أصبحت الآن ترغب بالتمتع بالبرودة. ورغم محبتها الكبيرة للأشجار، كانت مستعدة في الأيام الحارة لقطع غابة كاملة منها لمجرد الوصول إلى المكيِّف.

إنصافاً له، وجدت نفسها مضطرة إلى الاعتراف بسؤاله ما إذا كانت قد تعافت كفاية لتذهب. ولم تكن هي من الناس الذين يسمحون لمشكلاتهم الخاصة بمنعهم من إظهار الاحترام اللازم للمتوفَّى وذكراه، رغم فهمها التام لحقيقة أن الميت غاب عن الوجود كلياً بمجرد موته، أي أن الاحترام والذكرى كانا لنفسها، ونفسها اليوم بحاجة إلى الراحة. في رفضها للاستراحة شيءٌ من الجنون، شعرت بوجوده أثناء ترنحها وهي تلبس كلاريس ثيابها. لكنها لم تتوقف. أعدّت المغطس وغطّست فيه الطفلة، دعكت جسدها المكتنز وهي جاثية على ركبتيها، ذراعاها مشدودتان بصعوبة فوق المغطس بطريقة غريبة سببت لها ألماً في المعدة - لم يصل الألم إلى رحمها بعد - جففت شعر الطفلة ورفعتها لتجفف بقية جسمها فوق طاولة المطبخ.

«ستذكرين هؤلاء الناس طيلة حياتك»، قالت لطفلتها التي كانت تقرقر وتهدل، ناظرة إلى وجه أمّها الصارم بنظرة ثابتة محببة.

قالت إماني: «سوف تسمعين الموسيقى. تلك الموسيقى التي

حاولوا قتلها، ويسعون إلى سرقتها». شعرت بالحمى تسري في عروقها وأدركت أنها تغمغم، لكنها لم تُلْقِ بالاً.

«يعتقدون أن بوسعهم قتل قـارّة بأكملها، بناسها وأشجارها وجواميسها، والصعود بعدها إلى القمر ونسيان الموضوع. لكننا، أنت وأنا، سنحتفظ بذكرى الناس والأشجار والجاموس الحقير. اللعنة».

«جاموث»، قالت الطفلة وضربت وجه أمها بملعقة.

وضعت الطفلة على بطانية في غرفة المعيشة واستدارت لترى عيني زوجها المترعتَين بالشفقة عليها. ارتدت في قدميها صندلاً مخملياً أخضرَ فاقعاً، ورداءً جميلاً باللون الأخضر البحري. جسدُها يتقوَّس على نفسه. تحت نظرته المحدّقة، تشكّلت دمعة عصيّة.

«أنظر إليك أحياناً وأتساءل ما الذي يفعله هذا الرجل في منزلي؟».

كان ذلك قد بدأ على هيئة مزحة بينهما فيما مضى. فلم يكن الزواج هدفها على الإطلاق، بل أن تعاشر عشاقاً يمكن إرسالهم إلى منازلهم فجراً، لتتفرغ هي لعملها ونزهاتها.

«أنا هنا لأنك تعشقينني»، ذلك كان الجواب التقليدي. لكن كلارنس تلعثم، التقت نظراتهما، وأشاحت إماني بوجهها.

كانت الحرارة قد وصلت المائة بحلول الساعة العاشرة. وعند الساعة الحادية عشرة لدى بداية حفل التأبين، سترتفع بمقدار عشر درجات. ترنحت إماني جراء الحرارة اللاهبة. واضطرت لدى جلوسها في السيارة إلى إطباق أسنانها لمقاومة الدوار حتى استطاع المحرِّك تشغيل مكيّف الهواء ليلفّهم بالبرودة. بدأ ألمٌ طفيف يمور في رحمها.

افتقرت الكنيسة لنظام تكييف الهواء بالطبع، إذ كانت معمدانية عتيقة محافظة بكلّ معنى الكلمة.

وعلى غرار حفلات التأبين الأربع السابقة، كان هذا الحفل من تصميم زميلات هولي مونرو في الدراسة. نجحن جميعهن وعددهن 25 من السمينات والنحيلات، بالظهور بإطلالة تشبه الفتاة الراحلة. لم تكن

إماني قد رأت هولي مونرو في حياتها - رغم كثرة صورها الفوتوغرافية عندما كانت تعتلي منبر هذه الكنيسة التي تعمَّدت فيها وغنَّت في جوقتها - ففي نظر إماني، كل فتاة سوداء في سنٍّ معيَّنة هشّة هي هولي مونرو، والحقيقة الأعمق من ذلك، أن هولي مونرو كانت شخصيتها هي؛ ذاتها التي قتلها طلق ناري، وتعرضت للإجهاض عشية أصبحت نفسها.

كانت جاهزة للبكاء وأن تطلق العنان لذلك. لكنها حبست دمعتها. صرّت أسنانها على الألم المتزايد بثبات، وجفَّفت الحرارةُ دموعَها على الفور.

كان العمدة كارسويل بانتظار كلارنس في ردهة الكنيسة، يمسح وجهه بكفَّيه المكتنزتين بمنديل ضخم، كمن يعقد جلسة محكمة وسط نصف دزينة من الشابّات والشبّان الذين أصغوا إليه بإجلال وذهول. تبادلت إماني التحية مع العمدة الذي قبّل خدَّها كطقسٍ معتاد، وقبّل خدّ كلاريس، لكن عينه التي اكتسبت مظهراً شبه زجاجي بفعل الحرارة، كانت تثبت أنظارها سلفاً على زوجها. حشر الرجلان نفسيهما في إحدى الزوايا بعيداً عن مجموعة الشباب المذهولين، وبعيداً عن إماني وكلاريس اللذين عبراهما بتردّد، بانتظار أن ينضمّا إليهما أو أن يدعواهما إلى العودة إلى الكنيسة.

انقضت ربع ساعة على وقع الموسيقى.

«كانت هولي مونرو بطول خمس أقدام وثلاثة إنشات، ووزنها مائة وأحد عشر رطلاً»، قالت صديقتها المقربة من دون أن تقرأ من أوراق، بل وجّهت كلامها إلى كل فردٍ من الحضور. «كانت عنيدة، مخلصة لبرجها «الحمل»، وأفضل صديقة تحظى بها فتاة. كان شعرها أسودَ أجعدَ جرّبت فيه الكثير من التسريحات. كانت تماماً بلون مقعد الكنيسة المصنوع من خشب البلوط في الصيف، وفي الشتاء كانت بلون (أشارت بيدها) هذا السقف الصنوبريّ. أحبّت اللونَ الأخضر. لم يعجبها اللون الأرجواني الشاحب لأن الزهري لم يعجبها أيضاً كما قالت. كانت عيناها بنّيتَين

وترتدي النظارات، باستثناء عند لقائها أحدهم للمرة الأولى. كان أنفُها مدوَّراً نوعاً ما. أسنانها كبيرة جميلة، لكنّ شفتَيها بقيتا متشقِّقَتين طوال الوقت فلم تكن تبتسم كثيراً كما لو أنها كانت ستبتسم لو اعتادت على حمل مرطّب الشفاه «شاب ستيك». كانت قدماها أنيقتَين».

«كانت أغنيتها المفضلة في الكنيسة «الاتكاء على ذراعين أبديّتين». والنمط الثاني من الأغاني التي كانت تفضّلها: «أعجز عن منع نفسي – أحبك ولا غيرك». غالباً ما كانت تتأخّر عن تدريبات الجوقة رغم محبّتها للأغنية. خاطت الفستان الذي ارتدته لحفل تخرجها في متجر «هوم إي سي». كانت تكره هوم إي سي».

أدركت إماني أن أصوات الهمهمة الخافتة شكلت أرضية لهذا الخطاب طيلة الوقت. كان كل ما حولها هادئاً، حتى أن كلاريس جلست باستقامة، مأخوذةً بالنبرة الودّية البسيطة التي شابت صوت الشابة. جميع زميلات هولي مونرو في المدرسة وأصدقاؤها في الجوقة كانوا يرتدون الأخضر المشرق، فتخيَّلت إماني أن كلاريس كانت مفتونة باللون المتألِّق المتمايل كحقلٍ من نباتات الذرة المتمايلة.

وبينما رفعت الطفلة والنار تمور في رحمها، والعرق جدولٌ يسري إلى أسفل ظهرها، مشت إماني باتجاه الباب على رؤوس أصابعها. كان كلارنس والعمدة ما زالا منهمكين في حديثهما، وتناهت إلى مسامعها كلمات «اجتماع المجلس... أعضاء المجلس المحلّي... مجلس المدينة». أومأت إلى كلارنس.

همست: «صوتاكما مسموعان».

وكان قصدها: كيف تجرؤون على عدم الدخول.

لم يدخلا. رفع كلارنس رأسه ونظر إليها، وهزّ كتفيه بحركة تنمُّ عن عجزه. ثم استدارا، وبأذهان شاردة كالقساوسة، خطا الرجلان باتجاه الباب الخارجي ثم إلى فناء الكنيسة، حتى وقفا على مسافة قصيرة من الكنيسة تحت شجرة بلوط ضخمة. وبقيا هناك طيلة مدّة التأبين.

بعد مرور عامين، ثار غضب كلارنس عليها وسألها: ما الذي دهاكِ؟ لا ترغبين بأن ألمسك البتة. طلبتِ أنْ أنامَ في غرفة الضيوف وهذا ما فعلت. طلبتِ أن أقطعَ القناة المنوية وفعلت رغم عدم رغبتي بذلك. (هنا، شابَ ذلكَ الغضب عبرةٌ تنمّ عن الكراهية تجاهها؛ المذلّة: رأى نفسه مَخصياً ولامَها على ذلك).

لم تكن قد وصلت البرودَ الجنسي وحسب، بل أبعد من ذلك.

أذهلها بعد مغادرتهما الكنيسة أنَّ الغضب الذي استحوذ عليها لمشاهدتها كلارنس والعمدة يديران ظهرَيهما لحفل تأبين هولي مونرو، لم يمنعها من قبول ركوب السيارة معه. ولا منعها بعد شهر على ذلك من التبسُّم في وجهه بمحبّة. ولا وقف عائقاً في وجه رحلةٍ إلى برمودا، أمضيا فيها بضعة أيام هانئة من ممارسة الجنس الممتع على شاطئ مهجور تغمره الأشجار. ولا منعها من الإصغاء إلى حكايات أمّه عن أيام شباب كلارنس وكأنها ستحتفظ بها ككنزٍ ثمينٍ إلى الأبد.

ولكنها، منذ تلك اللحظة تحت الحرارة على باب الكنيسة، كانت قد انفصلت عنه كزوجٍ، في يأس جعله أكثرَ قليلاً من رجل غريب عنها، باستثناء بعض المناسبات.

ولم يكن قد شعر بذلك، ولا عرف به.

«ما الذنب الذي اقترفته؟»، سألها وكلّ الرقّة في صوته تتكسَّر على جليدها. ابتسمت في وجهه ابتسامةً عصبيَّة فسَّرها كسخرية - يا لبعد المسافة التي أصبحت تفصل بينهما.

ناقشا حادثة الكنيسة مرّاتٍ عدّة. والعمدة كارسويل - الذي توقّفا عن رؤيته إطلاقاً - أصبح عمدةً نموذجياً يحظى بدعم واسع من العِرقَين الأبيض والأسود في حملته لمنصب المشرّع.

ولا كان بوسعهما تذكّره بسهولة، رغم أن شاشة التلفاز غالباً ما جاءت به إلى المنزل.

قال كلارنس: «كانت مساعدتي للعمدة في غاية الأهمية. كان أوّل عمدة منّا».

أدركت إماني ذلك جيداً، لكنه بدا مضحكاً بالنسبة لها. وعندما كانت تبتسم، كان هو يشعر بالإهانة.

علمت جيّداً اللحظة التي فارقت فيها الزواج، عرفتها بالثانية. لكن تلك اللحظة لم تترك علامةً محسوسة على ما يبدو.

تشاجرا، وابتسمت، تجهّما وتبادلا الملامة وبكيا - بينما كانت توضِّب أغراضَها.

أشار كلاهما تقريباً وبصوت عالٍ، أنّ طفلهما الذي أجهضته كان بحلول هذه الفترة من العام سيصبح طفلاً «فظيعاً»، مسبباً للمشكلات في الثانية من عمره، وعبئاً ثقيلاً على كاهل أمّه التي تحسَّنت صحَّتُها الآن إلى أفضل حال، ورغب كلاهما بالتفكير بصوتٍ عالٍ أنَّ الزواج كان في طريقه إلى التدهور على أيّة حال، بسبب ذلك.

إباحية

على غرار العديد من نساء السبعينيّات صاحبات الفكر، كانت قد قرّرت أن النساء أكثر إثارة للاهتمام بكثير مقارنة بالرجال. ولكنها، وعلى شاكلة العديد من صاحبات الفكر أيضاً، نادراً ما اعترفت بذلك علناً. ثم إنها، وعلى غرار معاصراتها أيضاً، أبقت على علاقة وثيقة مع الرجل.

كان ذلك الرابط جنسياً.

التقيا في تنزانيا عندما كان اسمها تنجانيقا، وكانت برفقة مجموعة دوليّة من الطلاب المعنيين بالرعاية الصحية في البلدان الإفريقية الاشتراكية؛ وكان هو بصحبة مجموعة أمريكية تعتزم تشييد المدارس. التقيا، أعجب كل منهما الآخر، وتبادلا خمس أو ست رسائل على مدار الأعوام السبعة التالية. اقترن كل منهما بشخص آخر ورزق بالأطفال. عاشا في مدينتين مختلفتين، تطلّقا، والتقيا مجدَّداً واكتشفا أنهما يعيشان الآن في مدينة واحدة ويقطنان على مسافة لا تتجاوز ثلاثة أميال.

جمع بينهما رابطٌ قوي تَمَثَّل في احترام كل منهما لشريكه السابق، وأن كل واحد منهما يعيل أطفاله. فقد رتَّبَ كلٌّ منهما تسوية تتضمن الوصاية المشتركة، وتخلَّلت العديد من مشاويرهما المفضلة أصواتُ العراك بين الأطفال. لكن اهتمامها الأساسي به بقي جنسياً، ليس لأنها لم تُكِنّ الاحترامَ لعقله، بل كانت تحترمه لكونه عقلاً جميلاً ميّالاً للعلم أكثر من عقلها، وأكثر استسلاماً للأشياء المجرَّدة. لكنه كان أيضاً عقلاً فضولياً حيال الطبيعة وخفايا الأشياء (لعلّ ذلك، في نظرها، جعل منه

عشيقاً جيداً إلى هذا الحد) واستمتعت بتتبُّع أفكاره حول المسافات الفاصلة بين النجوم والمجرَّات الكاملة وكوكب الأرض، ووجه الاختلاف بين الغيوم المنخفضة والضباب المرتفع، والآليات المعقَّدة التي يتَّبِعُها الحلزون للبقاء على قيد الحياة.

لكن العلاقة الجنسية بينهما كانت مذهلة في جودتها: مثل حواراتها مع صديقاتها غير المقتصدات في كلامهن على الإطلاق، ونادراً ما تحلّين بالقدرة على التجريد حيال الطبيعة ليتسنّى لهنّ مديحها بأسلوبٍ نقدي، وكانت آليات بقائهن منشورة للخارج أثناء النقاش أمام أنظار الجميع. لمسات أصابعه - الحساسة الحكيمة أثناء استكشافها لأبعد مواطن الإحساس - كانت مثل ألسنة النساء، تتحدث وتتساءل وتبحث عن المكان الحقيقي، ذلك المكان الذي عند لمسه، ما من خيار آخر سوى الاستجابة.

كانت تشتعل رغبة لأجله.

وفي تلك الأماسي حين يكون الأطفال برفقة أهاليهم الآخرين، كان يصل الشقة في الساعة السابعة، ويسيران يداً بيد إلى مطعم صيني على مسافة ميل. كانا يضحكان ويشربان ويأكلان ويتلامسان بالأيدي والركب فوق الطاولة وتحتها. ثم يعودان إلى المنزل. ويدخّنان لفافةَ حشيش. كان يشغّل الموسيقى بينما تفتح هي الماء على المغطس وتملؤه بالفقاعات. وفي الحمام، كانا يلعقان ويمصّان بعضيهما بسرور هانئ. ويعبّران عن إعجابهما بوهج الشمعة القوي على بشرتيهما الرطبة الشهية الترابية. يشمّان العبق - أريج الصندل والخشب الأحمر، ثم يحملها إلى السرير.

موسيقى. مشاعر. أحاسيس. حضور.

إشباع كالأنهار، متدفّقٌ باللّون الفضي.

وعلى قاعدة الشبق الجنسي الذي جمع بينهما، نجحا في بناء صداقة أبقتْهما معاً وساعدتْهما على تحمّل المشاوير مع أطفال كلّ منهما، وخسارته لعمله (مؤقّتاً)، وأوقات عجزها عن الكتابة (كانت تعمل صحفيّةً حرّة)، ونوبات إحباطها وضجرها عند ملاحظتها اقتصاره على

الجانب العلمي أو التجريدي في نقاشاتهما، وكانت معتادة على ذلك بسبب صديقاتها الطائشات الثرثارات اللواتي واظبت على رؤيتهن بانتظام، وغالباً ما كانت بحاجة ماسّة لرؤيتهن بدافع اليأس.

باختصار، كانا قد نجحا في التوصُّل إلى ترتيبٍ شبه مثالي.

في الساعة السادسة من صبيحة أحد الأيام، كانا يمارسان «الحب الصباحي»، باسترخاءٍ وذهنٍ صافٍ وانتعاش، من دون موسيقى إلا أصوات العصافير ومحركات سيارات تهم بالإقلاع. من دون حشيش.

وصلا النشوة بفارقِ ثوان.

ألهمه ذلك. ظنّ أن بوسعهما بلوغ النشوة معاً.

كانت مشبعة، لا مبالية، وغير راغبة بالتفكير بضغط الموضوع.

لكنه قال حينها: «أسبق وأريتكِ [علم أنَّه لم يفعل] مجموعتي الإباحية؟».

«ماذا عساها تكون؟»، أثار ذلك فضولها. ولم تمتنع عن السؤال.

يداه تحتضنان مؤخرتها. وأصابعه كعشب دافئ أو أغصان دالية العنب اللينة الدافئة. أحد إبهاميه – تتخيل كأنها تشعر بالطبعة الدائرية – يدور في حلقات في رطوبة فتحتها الشرجية. تسري قشعريرة في بدنها. لسانه يلعق فرجها برقة بينما يدخله، وشفته العليا تداعب البظر. تجاريه في حركتها كالمعتاد لخمس دقائق. تقول لنفسها إنها في النعيم. ثم تتوقف.

سألته: «ماذا لديك؟».

أجاب: «هذا، وهذا».

فاتنة سوداء تشبه صديقتها فاني، لديها صديق وفيّ (صبيّ أبيض من بلدتها أدنى الجنوب) مثليّ الجنس أساساً – لكن «فاني» وليكن اسمه «فريد» – يصادفان سائحاً في أحد البارات. وكلاهما يرغبان به، هكذا يقول الوصف. ليس ساحراً، بل قصير وشاحب، أشقرُ قذرٌ. في عينيه شيء من الحول. بل يبدو مخبولاً في واقع الأمر. يشبهه «فريد» إلى حد

كبير. تدعوهما «فاني»، إلى منزلها، ومن دون الإمساك بأيدي بعضهم أو تناول الطعام أو الاستحمام أو تشغيل الموسيقى، يخلعون ملابسهم ويبدؤون بمداعبة بعضهم. يبدو السرور واللذة على وجه «فاني»، بينما يتبادلان الأدوار على لعقها ومصّها. تبتسم برقّة لرؤيتهما يفعلان الشيء ذاته لبعضيهما...

«وهذا».

شابة شقراء من مينيسوتا [لعلها تعرضت للاختطاف، تفكر أثناء قراءتها] *بعيدة عن موطنها في نيويورك، وحيدة وفي قمة تهيُّجها. يصادقها رجُلان من أصحاب البشرة الأكثر سواداً على الساحل الشرقي. (كانا يتشاجران خارج إحدى الحانات، وأوقفتهما بأن زجّت نفسها البيضاء الساذجة وسط الشجار). وتعبيراً عن امتنانهما لإحلالها السلام، يصطحبانها إلى منزلهما ويفعلان لها كل ما خطر بذهنيهما. طيلة الوقت، ترتسم على وجهها ابتسامة تنمّ عن التحرر. وأخيراً، يصنعان منها شطيرة، أحدهما يملأ فتحة شرجها والآخر فرجها، حتى أن كل البادي من جسمها بينهما ليس إلا خيطاً فضياً من الأفخاذ البيضاء.*
[ونرى أنّ هذين الملاكمين قد اجتمعا على شيء واحد أخيراً].

جلست مستندةً إلى رأس السرير فتدلَّى ثدياها إلى الأسفل، وهي حركة تعزز الإحساس في حلمتيها المتهيجتين سلفاً. يزحف باتجاهها على أطرافه الأربعة مثل دبٍّ رقيق لكنه يتضوَّر جوعاً، ويبدأ بمداعبتها بأنفه. يداعبها ويداعبها بأنفه حتى تبدو حلماتها كأنهما مصوبتان نحوه، يأخذ إحداهما في فمه. تبدأ سوائلها بالتدفق.

لكن التدفق يتوقّف.

قال لها ذات مرة: «قد يثيرني تقييدك في السرير»، لا، قال لها: «تقييد طفيف».

كانت قد حدثته عن خيال يراودها تكون فيه مستلقية عاجزة، مقيّدة، تنتظر اللّذة الأسوأ من الموت.

ما من حبكةٍ هذه المرة، ولا قصة عن صداقة مستبعدة في الجنوب، ولا ضفائر ذهبية من سهول الغرب الأوسط. فقط صفحةٌ تلو الأخرى من النساء ذوات البشرة الصفراء والحمراء والبيضاء والبنية والسوداء [سمحت له ذات مرَّة أن يقيِّدها بقيود رخوة للغاية؛ ولم يكن ذلك شبيهاً بخيالها على الإطلاق. كانت ترغب بعناقه ومداعبته واحتضانه] *مقيّدات وغالباً بأفواه مكمَّمة. أرجلهن مفتوحة. وراضخات على الركبتين.*

ها هو الآن يدلّك عنقها من الخلف وكتفيها، ردفيها، الجزء الخلفي من فخذيها. فقد أمضت نهارها بطوله منكبّة فوق آلة كاتبة ونال منها التعب. تستغرق في شعور كونها مشتهاة وتحظى بالدلال، مقدّرة، محبوبة. وسرعان ما تستعيد نشاطها بالكامل. يقظة ومتنبهة. تقرر ممارسة الحب معه. تستدير. تدسّ رأسها بين ذراعيه. تقبّل جبهته، عينيه. تدلّك فروة رأسه بأصابعها. تدفن أنفها في عنقه. تقبّل عنقه. تداعب صدره. تنقر حلمتيه جيئة وذهاباً بلسانها. تنحدر ببطء إلى أسفل جسده، عضوه (يعتقد أن اسم «عضو» لا يناسبه – «كلمة مناسبة لصبي أبيض»، فهو يفضل تسميته «قضيب») منتصب، تأخذه – وهي على ركبتيها – في فمها، تختنق به.

تعلم أن النسيان هو التسوية طويلة الأمد التي تحمي العلاقة الزوجية وغيرها من العلاقات المشابهة. سوف تنسى ما يثيره.

«لا، لا»، يقول، متأسفاً بشدة على عرض مجموعته أمامها؛ بل ومقسماً بصدق على التخلُّص منها. «كانت الفكرة أن تثيرك أيضاً!».

تستذكر الفتاة السوداء اللطيفة – التي ترى فيها فعلياً صديقتها فاني – ينتابها الذعر. ما الذي تفعله فاني مع مثل هذه الصحبة؟ تتساءل. تفزع بينما يلج فيها. «مهلاً!»، تقول، وتجري باتجاه الهاتف.

جرس الهاتف يرنّ ويرنّ.

صديقتها فاني موظفة مبيعات عاطلة عن العمل. وهي سحاقية أيضاً. تمضي لتخطّ في رأسها قصة حقيقية عن فاني بناء على معلوماتها. عشيقها في العمل يتحسس جسدها طيلة الوقت.

تتقاسم فاني ولورا شقة صغيرة في الدور العلوي. ممارسة الحب بينهما شبه منقطعة تماماً. لا لأنهما غير متحابتين - بل إنهما كثيراً ما تتعانقان وتلهوان معاً - لكن شعورهما القوي بالذنب حيال مشاعرهما أدى بشكل من الأشكال إلى جفاف الرغبة الجنسية [تشعر أن سوائلها توشك على الجفاف جرَّاء هذه الفكرة].

مكث كلٌّ منهما عاطلاً عن العمل فترة طويلة. والدة لورا مريضة. شقيق فاني الأصغر التحق بجامعة هارفارد. ما من أحد سوى فاني يرسل المال لشراء الكتب والملابس ووسائل والترفيه. تتمتع فاني بجمال شديد لكنها تفتقر أساساً لأيّ مهارات غير البيع، وقد أدى الكساد إلى تسريح آلاف موظَّفي المبيعات. والبطالة لا توفِّر ما يكفي.

لكن فاني في غاية الجمال بالفعل. دائماً ما يستوقفها الرجال في الشارع لإخبارها بذلك. إنها الطريقة التي يختارونها للقيام بذلك، وهي ما إن شارفت سنَّ الرشد، حتى درجت على مقابلة «المجاملات»، بالشتائم حتى اليوم.

لكن هؤلاء الرجال يواصلون إيقافها في الشارع، ويعرضون عليها المال لقاء «عملٍ لبضع ساعات».

وبحلول هذا الوقت، كانت قد تظاهرت زيفاً بكافة أنواع الأشياء وأرهقت عشيقها. وها هو الآن يغطُّ في نوم عميق. تمضي مسرعة إلى شقة فاني ولورا. تجلس بانتظارهم على العتبة. يعودان أخيراً بعد مشاهدتهما لأحد أفلام وودي آلن. كلاهما في روح معنوية عالية، ولأنها تشارك رجلاً في جزء من حياتها، يوليانها قدراً أقل من الاهتمام مقارنة باهتمامها بهما. يتثاءبان بصوتٍ مرتفع، يقبِّلانها بترفُّع على الخَدَّين، ويعيدانها إلى منزلها.

تحاول الآن، عندما يمارس الحب معها، أن تجد لنفسها مكاناً في قصة المرأة البيضاء والرجلَين الأسودَين. فمن عساها تكون؟ يشبه الرجلان شقيقيها بوبو وتشارلي. يعتريها الاشمئزاز، بل وأسوأ، الملل،

من بوبو وتشارلي. تشبه المرأة البيضاء فتاة شابة ذكرت صحيفة «التايمز» أنها تعرضت للإغواء خارج مزرعة في مينيسوتا من قوّاد أسود وظهرت على الشارع 42. تعجز عن كبح جماح أفكارها: *فقيرة*، *جاهلة*، *رخيصة*، *محبَطة*. وما من إثارة أو تشويق في ذلك.

يراقب وجهها بينما يمارس معها الحب بخبرة. يعلم أن أسلوبه خالٍ من العيوب تقريباً، لكنه يعتقد أنه بالإمكان تحسينه. أتتحرك بمستوى أقل من التناغم تحته؟ هل تبدو شاردة الذهن؟ يبدو أن نشاطاً منفصلاً يحدث في جسمها، تتنبَّه إليه لكنه ليس مرتبطاً بالتيار الذي يرسله عبر رؤوس أنامله. تلفت انتباهه الاختلاجات في زوايا جفنيها. يهيَّأ له أن عينَيها قد تنفتحان على وسعيهما في أية لحظة، لتنظرا إليه بموضوعية.

يرتعش، ويحتضنها بقوَّة.

تدور في رأسه أفكار محمومة حيال ما قد تفكّر تجاهه. يدرك أنه يتحرَّك داخلها بيأس وعناء، كمن يتسلَّق جدران مبنى موصَد. كأنها قرأت أفكاره، أنّت أنيناً مشجِّعاً. لكنه أنين مشتَّت - يُشعره بالإهانة.

يعضّ الوسادة فوق رأسها: أينها؟ يفكر. أيستهويها الخيال أم لا؟

عليه إثبات وجوده.

ينزلق بها إلى دور «فاني»، مفعماً ببعض الأمل. ما من نتيجة. وبدور «فاني»، تأبى حتى مغادرة بلدتها الجنوبية. ترفض التحدث إلى الشابين الشاذَّين، ناهيك عن مداعبة قضيبيهما.

يتسارع في ولوجه وخروجه بين صورتها مقيَّدةً وجاثيةً على ركبتيها، ورجلان أسودان وامرأة بيضاء يتعارفون خارج حانة.

لا فائدة من ذلك.

ثم إنها مشغولة بالنشاط داخلها وتحتضنه - من باب الحنين.

يشعر بنفسه ينزلق أسفل الجدار الذي كوّنه جسدها، ومنفيّاً من داخلها.

تقدمة عن لونا – وآيدا بي. ويلز

التقيتُ لونا في صيف 1965 في أتلانتا أثناء حضورنا مؤتمراً سياسياً ومشاركتنا في مسيرة. وكان الهدف من تصميمه منحنا الشجاعة بصفتنا عُمّالاً مؤقَّتين في مجال الحقوق المدنية، للتغلغل في القرى الصغيرة أقصى الجنوب. كنت قد ركبت الحافلة من سارة لورنس في نيويورك وعدت إلى ولايتي جورجيا، لأجرب نفسي في تسجيل الناخبين. فقد تجلى بوضوح مما أظهره السود من روح معنوية عالية ومشاعر بهدفٍ شبه إلهي، أن ثورة ما قد نشبت، وكنت عازمة على عدم تفويتها. ولا سيّما هذه النسخة الصيفية المكتظة بالطلاب. وظننت أنه من الممتع قضاء بعض الوقت بمفردي في الجنوب.

جلست لونا في عربة إحدى شاحنات «البيك أب»، بانتظار أحدٍ يقلّها من «فيفث بابتيست»، حيث انطلقت المسيرة، يعلم الله أي منزل زنجي أسود كان بانتظارها. أذكر ذلك لأن شخصاً ما افترض أيضاً أنني سأسافر بواسطة «البيك أب»، تولّى أمر تعارفنا. وأذكر وجهها عندما قلت: «لا، لقد اكتفيت من عربات البيك أب. أعرف أتلانتا جيداً، سأسير بمفردي». افترضت بالطبع (كما أعتقد) أنني أَنِفْتُ الركوب بجوارها لأنها بيضاء، ولم يعترني الفضول الكافي حيال ما قد تفكر به لأوضح لها مقصدي. لكنني صعقت بسكونها وصبرها بينما جلست في الشاحنة وحيدة ومهملة، لأن أحدهم طلب منها الانتظار هناك بهدوء حتى يحين وقت الانطلاق.

تغيرت نظرة الانتظار الغائمة تلك تغيراً طفيفاً على مدار سنين معرفتي

بها، التي لم تزد عن أربعة أو خِمسة أعوام بالإجمال. تبدو الفترة أطول، ربّما لأننا التقينا في تلك المرحلة المفعمة بالتفاؤل من حياتنا. كان جون كينيدي ومالكوم إكس قد تعرضا للاغتيال، لكن كينغ وبوبي كينيدي لم يكونا قد اغتيلا بعد. هناك أيضاً، الإقصاء الغريب والدموي قتلاً لذلك المناضل أو ذاك، حالات النفي، الرحلات الجوية إلى كوبا، حوادث إطلاق النار بين أصدقاء الحراك السابقين الذين انفصلوا إلى الأبد جراء الأكاذيب التي زرعها «مكتب التحقيقات الفدرالي»، اغتيال عقيلة مارتن لوثر كينغ الكبير رمياً بالرصاص، أثناء عزفها موسيقى «صلاة الرب»، على البيانو في كنيستها (أكان اسمها ألبيرتا؟)، حوادث ما زالت طيّ المستقبل المبهم بسعادة.

آمنّا بقدرتنا على تغيير أمريكا لأننا كنّا شباباً وأذكياء آخذين على عاتقنا مسؤولية تغييرها. لم نؤمن بأننا سنمنى بالفشل. وهذا ما أضفى الحماسة (حماسة الإحياء، في واقع الأمر، أننا سنحيي أمريكا) على أغانينا، والعذوبة على صداقاتنا (جميعها كانت مختلطة العِرق في البداية تقريباً)، وأسبغ النشوة الرائعة على علاقاتنا الجنسية (التي كانت في البداية مختلطة العِرق بشكل شبه دائم).

أول ما صعقني في لونا عندما عشنا معاً لاحقاً، أنها لم تكن تمتلك حمّالة صدر. أثار ذلك فضولي على ما أعتقد، لأنها لم تكن أيضاً بحاجة إليها. فصدرها عملياً كان مسطحاً، وثدياها كثديي طفلة صغيرة. كانت سحنتها دائرية وتعاني من حبّ الشباب، ودائماً ما حملت معها عبوة مرهم من «لون البشرة» (إن كانت البشرة زهرية أو بلون قشرة البيض)، مصمَّم لتجفيف البثور. وفي أكثر الأوقات غرابة - كأن تكون بانتظار إشارة المرور، أو أثناء استماعها لتعليمات تسجيل الناخبين، أو حديثها عن صديقة والدها الجديدة - كانت تضع المادة على وجهها، حاملةً بيدها الثانية مرآة نحاسية صغيرة بحجم إبهامها، اعتادت أيضاً حملَها لهذا الغرض خصيصاً.

تم تكليفنا بالعمل معاً في بلدة صغيرة تشهد فصلاً صارماً بين العرقين في جنوب جورجيا، ومما يثير الاستهجان، أن مؤسسي المدينة أطلقوا عليها اسم «فريهولد».[1]. كانت لونا تعاني من ربوٍ خفيف وتتنفس من فمها عند شعورها بالحرارة الزائدة أو التوتر. سرّحت شعرها الأسود المنسدل على كتفيها بغرّة تبلغ حاجبيها، بينما رفعت المتبقي منه خلف أذنيها. كانت عيناها بنيتان وصغيرتان نسبياً، وكانت تتطلب بعض الجهد لتبدو بالكاد جذابة. ولو أنها فقط كانت أكثر سمنة بقليل مثلاً، لما كانت ستجذب أنظار أحدٍ على الإطلاق، وكانت ستتلاشى في الخلفية، المصير المحتوم للبدينين، حتى في الثورات. لديّ صورة لها تجلس فيها على عتبات أحد المنازل في جنوب جورجيا، ترتدي أقراطاً صغيرة من اللؤلؤ، وقميصاً داكناً من دون أكمام مع ياقة دائرية تسمى «ياقة بيتر بان»، وسروال «برمودا»، وصندلاً هندياً شرقياً لا يناسب شيئاً سوى الأقدام ذات الإبهام الكبيرة.

كانت حرارة صيف العام 1965 لاذعة كما في جميع أنحاء الجنوب، حيث الأسراب الوفيرة من الذباب والبعوض. تذمّر الجميع من القيظ والذباب والعمل المضني، باستثناء لونا التي تذمرت أقلّ من الجميع. مشت برفقتي عشرة أميال صعوداً ونزولاً على طرقات جورجيا السريعة المستقيمة، وتوقّفت عند كل منزلٍ بدا أن أصحابه من السود (تمكن المرء من معرفة ذلك دائماً في 1965) سائلة ما إذا كان أحدهم بحاجة إلى المساعدة في تعلم كيفية التصويت. بسيطة كانت آلية التصويت: أن يكتب المرء اسمه، أو أن يضع إشارة X في العمود الصحيح. حينها، ورغم اضطرارنا للمشي، في كل مكان، تسنى لنا أن نقترح على المسجلين المحتملين أن يستقلّوا السيارة لإيصالهم سالمين إلى دار القضاء في المقاطعة. ولاحقاً إلى مواقع الاستفتاء. أبقت لونا ناظريها مثبّتَين على ما هو أمامها، وقد كانت شبه منهكة من الحرارة، وتتنفّس من

1- Freehold: ملكية حرة - (المترجم).

فمها كالكلب بينما شعرها يبعثره العرق على رأسها، وواصلت مشيها كأنَّ المشي بحدٍّ ذاته مكافأة بالنسبة لها.

أجهل إن كنا قد حققنا الكثير من الإنجازات ذلك الصيف. وبنظرة إلى الماضي، يبدو أنها ليست طفيفة وحسب، بل غير ذات صلة. فمجموعة منا، سودٌ وبيض، عاشت سويَّة، وتحلَّى السود الذين استقبلونا بحسن الضيافة واللطف من دون شك. وقد اعتبرت هذه الخصال شيئاً من المسلمات بطريقة تدهشني اليوم، إذ أدرك أنني في كل منزل زرناه، افترضت حسن الضيافة واللطف. وغالباً ما كانت «جرأتي» تفزع لونا. فإن مشينا نحو مزرعة مسجلة في جدولنا وهجمت علينا نصف دزّينة كلاب تعوي في أعقابنا، بينما أمكننا رؤية رجلٍ أسود ضخم يحمل بندقية ويصفّر لحناً لنفسه تحت شجرة ما، كان التوتر يجتاحها. أما أنا في المقابل، فقد تصرّفت بحرّية كافية لأصرخ على كلاب هذا الغريب، وأصفع بعضها على أنوفها، وأرفع صوتي في وجهه بشأن صيده.

ذلك الشهر، ومع مقاربتها يومياً مزيداً من السود الجدد، علمتني لونا عن نفسي شيئاً لطالما شكَّكت به: فقد ظننت أن السود أسمى من غيرهم. ليس من البيض وحسب، لأنني ومن دون كثير من التفكير افترضت أن الجميع تقريباً أسمى منهم؛ بل أسمى من الجميع. ففي نهاية المطاف، ما من أحدٍ سوى البيض قادر على تفجير قاعة مدرسة يوم الأحد والتباهي على شاشة التلفاز بذلك «النصر»، المتجسِّد في مقتل أربع فتيات صغيرات من السود. فمنهم كان بالإمكان توقع مختلف أشكال الفظاعة والوحشية، في أي وقت كان. وفي الجانب المقابل، لم يخطر لي قطّ أن السود سيعاملونني ولونا سويٍ بالدفء والاهتمام. حتى أنَّ فضولهم حيال ما شهدته أوساطهم من تدفُّق مفاجئ للشماليين الجهلة من السود والبيض، كان محدوداً ومهذّباً. لاقيت منهم معاملة الأقارب، ولاقت لونا أشدّ الترحيب كضيفٍ عزيز.

استضافني ولونا زوجان في أواسط العمر برفقة ابنتهما بعمر الالتحاق

بالمدرسة. عملت الأم خارج المنزل في مصنع محلي لتعليب الأغذية بينما عمل الأب في مصنع للورق بالقرب من أوغستا. لم يتطرقا أبداً إلى التحدث عن خطر فقدان وظيفتَيهما بسبب استضافتنا، ولم تظهر ابنتهما الصغيرة أي خوف حيال تعرض منزلها لهجمات العنصريين بسبب وجودنا. مجدداً، لم أتوقع من هذه العائلة أيَّ شكوى أو تذمُّر، مهما نالها بسببنا. ونظراً لفهمهم الخطَرَ، فقد خمّنوا حجم المخاطر. لم أعتبرهم شجعاناً فعلياً، بل تقليديين وحسب.

أعتقد أن لونا أعجبها حجم المنزل الصغير المكون من أربع غرف فقط، وفيه سخرت من ذوق والدتها الرديء، منزلها الأصفر والبنفسجي في كليفلاند المكون من 11 غرفة، والمرأب المزوَّد بنظام للتدفئة، والسيارة الجديدة كل عام، وعجز والدها عن الإخلاص لوالدتها، طلاقهما، نزاعهما على الملكية، الأشد شراسة من نزاعهما على الأطفال. احتفظت والدتها بالمنزل والأطفال. واحتفظ والدها بالسيارة وصديقته الجديدة التي رغبت بلقاء لونا والحصول على «مباركتها». عجزت عن تخيل إنسانة تمقت والدتها بهذا القدر. كل ما كرهته لونا اختزلته في كلمتين: «الأصفر والبنفسجي».

لديّ صورة ثانية تظهر فيها لونا ومجموعة منّا، ينكّل بهم أحد خيّالة شرطة ولاية جورجيا. وكان هذا العنصر من أفضل عناصر شرطة جورجيا وقد لحق بنا إلى الريف المهجور للمحاضرة فينا عن طاقتنا الكبيرة التي نهدرها في الجنوب، بينما كان الشمال «يعلم الرّب» (موطننا باعتقاده، معرباً عن عدم تصديقه لحقيقة أن معظمنا من جورجيا) على المقدار نفسه من السوء. (كانت وجهة نظره منطقية جينها، لكن ليس في ذلك المقام). لونا شاخصة بناظريها نحوه، فمها مفتوح قليلاً كالعادة، وعلى وجهها نظرة ذهول إلى حدٍّ ما. ما من خوفٍ ظاهر على وجه أي منّا، رغم الخوف الذي انتابنا جميعاً. ففي نهاية المطاف، جاءت سنة 1965 بعد عام واحدٍ فقط على سنة 1964 حين اقتيد ثلاثة ناشطين في مجال الحقوق

المدنية إلى غياهب إحدى غابات الميسيسبي على يد الضباط المحليين وتعرضوا للتعذيب الساديّ والقتل. في معظم الأحيان، حملت لونا حقيبة كتف سوداء مسطَّحة. تقف والحقيبة بجانبها، وإبهامها في الحزام.

تقاسمنا سريراً واحداً ليلاً. تحدثنا عن مدرستينا، عشاقنا، صديقاتنا اللواتي عجزنا عن فهمهن أو الاشتياق إليهن. قالت إنها تحلم بالذهاب إلى غوا. كنت أحلم بزيارة إفريقيا. تحقق حلمي قبل حلمها: وصلني ذات يوم عرض منحة من مصدر غير متوقع بينما كنت جالسة أؤلف القصائد تحت شجرة. غادرت «فريهولد»، جورجيا، في منتصف فصل الصيف، من دون أدنى شعور بالندم، وركبت الطائرة من نيويورك إلى لندن، ثم القاهرة إلى كينيا، وأخيراً إلى أوغندا حيث أقمت وسط قومٍ سود افترضت أنَّ لديهم الترحيب نفسه واللطافة التي اعتبرتها من المسلَّمات في جورجيا. مضيت في جولات بالقوارب في نهر النيل بالطبع، وقبلت جميع الدعوات على العشاء، حيث تمّ على شرفي تحضير أشهى الأطباق المحلية بإتقان. أصبحت في واقع الأمر بمثابة قريبٍ ضائع للناس، تاه أسلافه بحماقة ووصلوا إلى أمريكا منذ زمن بعيد.

كاتبْتُ لونا على الفور.

لكنني لم أرَها ثانيةً لقرابة العام. كنت قد تخرجت من الجامعة، وانتقلت إلى شقة مؤقتة في «بروكلين هايتس»، وتعرضت للإخلاء بعد شهر. دعتني لونا، التي كانت حينها تقطن في مبنى سكنيٍ على «الشارع 9 شرق»، لمشاركتها شقتها المكونة من غرفتي نوم. ولو قُدّرت لي رؤية الشقة قبل يوم انتقالي، لما كنت قد وافقت البتة على ذلك. كان مبناها بين الجادتين «بي»، و«سي»، ومن دون بوابة أمامية. وغالباً ما تسكَّع حوله مَدمنو المخدِّرات والسكّيرين وغيرهم ليلاً (وأحياناً نهاراً) للنوم تحت الأدراج أو قضاء حاجتهم في الجزء الخلفي من ردهة الطابق الأول.

كانت شقة لورا في الطابق الثالث وكل ما فيها مطليٌّ بالأبيض، مما رسم تبايناً صادماً بين غرفها الثلاث ومطبخها (بحوض الاستحمام

الأحمر) والسلالم القذرة الباهتة. كان أثاثها عبارة عن سريرين كبيرين من النحاس خلّفهما المستأجر السابق وقد زال لونُ الطلاء عنهما، ومقعد كنيسة خشبي طويل بمسند مرتفع تدبّرت بطريقة ما جلبه من الجنوب. تميزت الشقة الصغيرة ببساطة أحببتُها، كما أعجبتني فكرة التباين الشديد وما زالت تعجبني حتى اليوم. خارج نافذتنا الأمامية، امتدّ الحيّ المتهالك ببشاعته وإنارته السيئة كميدان معركة (وعلى القدر نفسه من العدوانية ظاهرياً، رغم أننا لم نتعرض للتهديد بالأذى الجسدي من جيراننا أبناء العرق الإسباني، الذين بدوا على نحو ما مرتبكين بفعل ظلمة وقذارة محيطهم). وفي الداخل، كان مقعد الكنيسة مستقيماً ومتروكاً كأنه أبراهام لنكولن مستلقياً على ظهره، والجدران البيضاء الناصعة كجدران الدير، وبقعة صغيرة صافية أعجز عن وصفها من السماء الزرقاء تطلّ عبر نافذة غرفة النوم الخلفية (لم تكن لونا تؤمن بجدوى الستائر ولا قادرة على تحمل كلفتها، ولهذا دائماً ما خلعنا ملابسنا واستحممنا والأضواء مطفأة والغرف تنيرها الشموع، فألقى ذلك ظلالاً لا شكل لها على الجدران بسبب قمصان النوم التي ارتديناها بأكمامها الطويلة وياقاتها العالية).

وعلى مدار عدة أسابيع، اصطبغت علاقتنا بطابع الاحترام المتبادل، وتطورت إلى صداقة دافئة مريحة وفرت ما احتجناه كلانا من استقرار وراحة في تلك الفترة. كنت قد التحقت بعمل في «وزارة الصحة والخدمات البشرية»، نهاراً، وخصصت لآلتي الكاتبة مكاناً دائماً في غرفة النوم الصغيرة لأعمل عليها بعد عودتي إلى المنزل. عملت لونا في روضة للأطفال، وتعلمت اللغة البرتغالية بمفردها مساءً.

انقضت فترة على سكننا في «الشارع 9 شرق»، قبل أن تحدثني عن تعرُّضها للاغتصاب خلال فصل الصيف الذي قضتْه في الجنوب. ويصعب عليّ حتى اليوم وصف مشاعر الرعب والريبة التي انتابتني.

حدث ذلك قبل فترة قصيرة مِن نشر إلدريدج كليفر[2] اعترافاً مكتوباً عن نفسه، بكونه ثائراً/ مغتصباً، وعن «تدرّبه»، على النساء السود قبل الانتقال إلى البيض. وكان ذلك، إن لم أكن مخطئة، قبل قيام ليروي جونز[3] (كما اشتهر سابقاً، والمعروف اليوم طبعاً باسم إمامو بركة، اللقب الذي ينطوي على معنى متعجرف أكثر من لقب «الملك»)، بكتابة نصيحته للمتمردين السود من الذكور الشباب – لم يخبر أحدٌ النساءَ عمّا يفعلنه بتمردهن: أنْ اغتصبوا الفتيات البيض. اغتصبوا آباءهم. بدا جلياً أنه قصد ذلك بالمعنى الحرفي وقصد كذلك: اغتصاب فتاة بيضاء يعني اغتصاب والدها. كانت تلك القسوة الكارهة للنساء التي انطوى عليها المعنى الأخير، بمثابة الجزء المفقود عادةً الذي عجز الرجال السود عن فهمه (أو الرجال عموماً في واقع الأمر)، لكنه كان ملحوظاً ومرفوضاً لدى النساء بصرف النظر عن ألوانهن.

سألتها: «وماذا عن التفاصيل؟».

هزّت كتفيها باستهجان. صرّحت عن اسمه. اسم يتردد في الأخبار مؤخراً، ولو تحت أضواء خافتة.

لم يكن نجماً من نجوم الحراك أو شخصية معروفة. التقينا ذات مرة، لفترة وجيزة. نفرت منه لأنه كان فظّاً وتحدّث عن النساء السود على أنهن «نساؤنا» (أيام الحراك الأولى، أسعدنا التفكير بأن الرجال السود يرغبون بامتلاكنا كمجموعة؛ واتضح لاحقاً أن امتلاكنا في ذهنهم يعني التملك بالفعل). لم يكن ذا مظهرٍ جذّاب، برأيي حينها، وفي هيئته شيءٌ من الإجرام: مشية حرّة متبخترة لا داعيَ لها، عينان صغيرتان، بشرةٌ خشنة، وفمٌ تنقصه الكثير من الأسنان وتتوزع المتبقية بعشوائية. ومن سخرية الأقدار، كان هو أوّل الذين صدحوا بشعار «القوّة السوداء»،

---

2 – Eldridge Cleaver (1935 – 1998): كاتب وناشط أميركي وكان من أوائل قادة حركة الفهود السود.

3 – غيّر اسمه إلى إماmo أميري بركة (1934 – 2014): شاعر وكاتب ومسرحي أميركي شهير.

الذي نسبه الجميع لاحقاً إلى ستوكيلي كارمايكل حصراً. فقد اختارت وسائل الإعلام ستوكيلي كمخترع لهذه الفكرة بسبب جاذبيته الجسمانية الملائمة للتصوير وفصاحته في التحدُّث. حتى أنّ اسم «فريدي باي» كان اسماً ضئيلاً برأيي في زمن العمالقة.

«وماذا فعلتِ؟».

«لا شيء يستدعي إحداث ضجة».

«لماذا لم تصرخي؟»، شعرت أنني كنت سأصرخ حتى ينفجر رأسي.

«تعلمين السبب».

هذا صحيح. فقد شاهدت صورة فوتوغرافية لجثة إيميت تيل بعد انتشالها من النهر. ورأيت صوراً لأشخاص بيض يتحلّقون هازئين بشيء خاطبهم بلغتهم قبل اقتلاعهم للسانه. علمت السبب، حسناً.

«ما الذي كان يحاول إثباته؟».

«لا أعلم. أتعلمين؟».

قلت: «ربما أثّرت فيه رغبة حارقة».

قالت: «أستبعد ذلك».

اجتاحني الخجل فجأة. ثم غضبت، غضبت بشدة. فكرت: *كيف تجرؤ على إخباري بذلك!*

من يعلم كيف تنظر المرأة السوداء إلى الاغتصاب؟ من سألها؟ من يعنيه الأمر؟ من حتى أقرّ بالشكل المناسب أنها هي على الأرجح ضحية الاغتصاب في هذه القصة وليست المرأة البيضاء؟ فأينما طرأ ذكر الاغتصاب متعدِّد الأعراق، تتمحور الفكرة الأولى التي تتبادر إلى ذهن المرأة السوداء حول حماية أشقائها، والدها، أبنائها، عشقيها، كردّة فعل غرسها تاريخ طويل من الشنق التعسُّفي في داخلها. يراودني هذا الشعور بالقوة ذاتها التي يراود فيها الجميع. فأثناء كتابتي لشهادة متخيلة عن حالة اغتصاب من هذا النمط في إحدى الروايات، قرأت سيرة آيدا بي. ويلز الذاتية ثلاث مرات، كصلاة رفعتها إلى روحها طلباً للغفران.

وبينما قلّبت الصفحات، خرجت صلاتي على هذا النحو: «سامحيني أرجوكِ، فأنا كاتبة». (غالباً ما يبدو لي هذا التصريح المكاشف للذات بمفرده سبباً كافياً لطلب المغفرة الأزلية؛ لا لأن الكاتب مذنب في رغبته الدائمة بالمعرفة وحسب - على غرار حوّاء - بل لسعيه إلى المعرفة - على غرار حوّاء أيضاً).

«أعجز عن كتابة نقيض ما تكشفه الحياة لي. لست أرغب بالطعن بأيٍّ كان. لكنني مجبرة على الكفاح، أقلّه في سبيل فهم مشاعري المتداخلة حيال الاغتصاب متعدد الأعراق. أعلم يا آيدا بي. ويلز، أنك أمضيت حياتك في حماية، ومحاولة حماية، الرجال السود المتهمين باغتصاب النساء البيض، الذين شنقتهم تعسفاً العصابات البيضاء، أو هددتهم بذلك. تعلمين، أفضل مما سأعرف في حياتي، ما يعنيه لشعب كامل أن يعيش تحت تهديد الشنق التعسفي. تحت تهديد افتراءٍ يرى في رجاله، عندما يتعلق الموضوع بالنساء البيض، مخلوقاتٍ تحركها شهوة جنسية جارفة لا يمكن ضبطها. لقد أوضحتِ بما فيه الكفاية أن الرجال السود الذين تم في الماضي اتهامهم بالاغتصاب كانوا ضحايا أبرياء لمجرمين بيض، لدرجة أنني نشأت مؤمنة بكل معنى الكلمة أن الرجال السود لم يغتصبوا النساء البيض. على الإطلاق. أبداً. أما اليوم، فيتراءى لي أن بعضهم، الأكثر انحرافاً ومرضاً، يفعلون ذلك. فماذا تودّين مني أن أكتب عنهم؟».

وكانت إجابتها:

«لا تكتبي شيئاً. لا شيء على الإطلاق. فما ستكتبينه سيتم استخدامه ضدّ الرجال السود وبالتالي ضدّنا جميعاً. يجهل إلدريد كليفر وليروي جونز مع مَن يتعاملون. لكنك تذكرين. أنتِ تتعاملين مع أناسٍ اصطحبوا أطفالهم ليكونوا شاهدين على مقتل بشرٍ سود متهمين باطلاً بالاغتصاب. أناسٌ وزعوا أصابع الأيدي والأقدام السوداء كغنائم تذكارية. أنكري! أنكري! أنكري!».

لكنني مضيت قدماً على الرغم من ذلك: *«يبدو أن بعض الرجال السود أنفسهم يجهلون معنى اغتصاب أحد ما. اعترف بعضهم بالاغتصاب استنكاراً له، لكن آخرين قبلوا الاغتصاب كجزء من التمرّد، كوسيلة «للانتقام من البيض». وتفاخروا بذلك».*

تقول: *«لا يعلمون عن أمريكا شيئاً. حتى أنت على ما يبدو. مهما اعتقدت أنك تعلمين، مهما كان شعورك حيال الموضوع، لا تقولي شيئاً. حتى آخر نفس في حياتك!».*

برأيي، كانت تلك نصيحة عديمة الفائدة بالنسبة لكاتب.

كان فريدي باي من نمط الرجال الذين لن ألقى عليهم حتى نظرة واحدة حينها. (طيلة ذلك العام، لفت انتباهي الأشخاص الغرباء: أبناء العرقيات البيضاء العارفين باللغات كانوا نقطة ضعف عندي؛ المغنّي الهيبّي نصف الأبيض؛ عالم الرياضيات الصيني الضخم والراقص البارع الذي علمني رقص الفالس). لم يتمحور الموضوع حول المعتقدات.

ولكن بالعودة إلى الماضي، تمت تنحية المعتقدات جانباً لفترة مؤقتة، شيء من الأمل ربما بأن الحادثة لم تقع حقيقة؛ أن لونا اصطنعت الاغتصاب، «جرياً على عادة النساء البيض». سرعان ما أدركت أن ذلك مستبعد. فقد كنت الوحيدة التي أخبرتها.

نظرَتْ إليّ كأنها تودّ قول: «يسعدني انقضاء ذلك الجزء من حياتي». واصلنا روتين حياتنا المعتاد. شاهدنا جميع ما تم إخراجه من أفلام أجنبية محبطة مسرفة في طولها وإنارتها السيئة. تعودنا على أكل الأرز البني ولبن الزبادي وتحمُّل مذاق الـ«كاشا» [عصيدة الحنطة السوداء] وأصناف الشاي بنكهاتها الغريبة. صديقي المغني الهيبّي نصف الأسود (أصبح اليوم مغني ريغي معروف يقول إنه ينحدر من الجزر لا من خليج «شيبهيد»). كان من هواة الشاي والكاشا والخضراوات الصينية.

لكن الاغتصاب، الإقرار بالتعرض للاغتصاب، علناً، على الملأ، محطّ الاستغراق في التفكير، جثم بيننا الآن. (وبدأت أفكر ربّما – سواء

أَتَعرَّضَتْ لونا للاغتصاب أم لا - ودائماً على هذا النحو، كانت سلطتها على حياتي تماماً كالسلطة التي مارستها *كلمتها عن الاغتصاب* على حياة الرجال السود، الرجال السود *كلّهم*، سواء أكانوا مذنبين أم لا، وبالتالي على حياة عرقي بأكمله).

وقبل إخباري بحادثة الاغتصاب، أعتقد أننا كنّا قد بنينا صداقةً تدوم طوال العمر. ذلك النوع من الصداقة التي يحلم بها الإنسان مع شخص عرفه أثناء المحن؛ تحت الحرارة الخانقة ولسعات البعوض وقلة الخبرة وخطر الموت. وأثناء أسفارنا كلَينا، كنا نراسل بعضنا بعضاً من أركان العالم الثلاثة.

كانت ستبقى لدينا تلك «القائمة العالمية»، من العشاق الذين كنّا سنواصل مقارنة خبراتهم أو ضعف خبراتهم العشقية ضاحكين حتى بلوغنا أرذل العمر. كانت ستبقى، ستصمد في وجه كل شيء، ستكون أصدق من كل شيء، ستصمد حتى في وجه زواجينا المحتملين، وأطفالنا، وأزواجنا - على فرض تزوجنا يوماً بدافع اليأس أو الملل، الأمر الذي بدا مستبعداً، وبقي في نطاق الفكرة المسلّية.

لكن عاطفتنا تجاه بعضنا بعضاً تسلل إليها البرود الآن. فقد تحولت لونا إلى الاهتمام بالمخدرات قليلاً، لأن جميع معارفنا كانوا كذلك. حسدتُ النهاية المفتوحة لحياتها. الدعم المالي الذي تحظى به حياتها. وعندما تركت وظيفتها في روضة الأطفال لأنها تعبت من العمل، ظهر والدها الضائع على الفور. اصطحبها لتناول الروبيان في مطعم باهظ، وبّخها لسكنها في «الشارع 9 شرق»، وحدجني بنظرة كأنها تقول: «لا بدّ أن العيش في مثل هذا الحيّ البائس كانت فكرتك بالتأكيد»، كواحدة من الملِوّنين، بالطبع.

بالنسبة لي، علمت بوجوب ترك عملي قريباً في «وزارة الصحة والخدمات البشرية»، حيث عملت على توفير الغذاء الضروري والمأوى لأناس كانوا سيبقون لولا ذلك مشرَّدين وسط الشوارع القذرة.

ففي نهاية المطاف، كنت خريجة جامعة «سارة لورنس»، بدرجة «التفوق والمهارة». وسيكون سخفاً أن أسمح لنفسي بالتعفّن في مبنى يفتقر لبوّابة أمامية.

نِمتُ حتى ساعة متأخرة صبيحة يوم أحد مع رسام التقيته في الوزارة، رجلٌ نظر إلى العالم أجمع نظرة جين أوتري، راعي البقر المغني صاحب الرسوم السريالية المذهلة للطيور والغيلان والفواكه ذات الأسنان. في الليلة السابقة، ثلاثتنا – أنا والرسام و«صديق قديم من سلاح البحرية»، يشبه توأمَهُ تماماً وكان قد وصل البلدة للتو – انتشينا من النبيذ والحشيش.

في ذلك الصباح كان الصديق من البحرية يشخر خارج غرف النوم كجروٍ بانتظار سيّده. استفاقت لونا باكراً، أحدثت جلبة هائلة بتحضيرها للفطور، وبّختني أثناء خروجي من غرفتي، وغادرت الشقة صافقة الباب بقوة أتلَفَت القفل. (وضعت لونا قاعدة تنصّ على مواعدة الرجال السود شبه حصرياً. فإصراري على مواعدة «أيٍّ كان»، بحسب وصفها، كان غير مفهومٍ في نظرها، بما أن «النوم مع العدو»، في مجتمع مريض بالسياسة يعني التقاط «عدوى الجراثيم السياسية» منه. وفي هذا حقيقة أكبر من مثقال حبّة، لكن المتعة الكبيرة التي عشتها لم تتح لي التمعن في الموضوع. ولكن صدور ذلك عن لونا كان مسلياً إلى حد كبير، لكونها لم تأخذ في حسبانها مطلقاً الخطر الكامن وراء عشّاقها السود بسبب معاشرتهم «النساء البيض»، ويظهر أنها كانت مقتنعة بأن صيف العمل السياسي النظيف نسبياً الذي أمضته في الجنوب كان قد شفاها من أية أمراض عرقية، اقتصادية، أو جنسية سياسية).

لم تفصح لي لونا قطّ عمّا أثار حنقها إلى ذلك الحدّ صبيحة يوم الأحد المذكور، لكنني أذكرها كنهاية أسدلت الستار على صداقتنا. وبخلاف ما خشيته في بادئ الأمر، لم يكن السبب اعتقادها أن اصطحابي للرجلين إلى الشقة تصرُّفٌ غير لائق. فطريقة حياتنا أتاحت لنا التصرف من دون مراعاة من فترة لأخرى. فأصدقاؤنا كانوا متنوعين، مفعمين بالحيوية،

وغالباً غرباء. وعلى وجه الخصوص، كان أصدقاؤها ميّالين إلى المخدرات أكثر من اللازم.

أخذت المسافة بيننا تزداد اتساعاً. كثر حديثها عن الذهاب إلى غِوا. وجاء إحساسي بالذنب تجاه حياتي الفاسقة رغم متعتها إلى جانب كراهيتي المتزايدة للعمل في الرعاية الاجتماعية، ليدفعاني في اتجاهين: الجنوب وغرب إفريقيا. وعندما حان موعد الاختيار، اكتشفت أن الصيف الذي أمضيته في الجنوب أصابني بلوثة الحاجة إلى العودة لأحاول فهم الناس الذين عشت معهم فيما مضى والكتابة عنهم.

لم نعد مطلقاً إلى مناقشة حادثة الاغتصاب. وفي واقع الأمر، لم نتطرق البتة إلى فريدي باي أو المشاعر العالقة لدى لونا حيال ما حدث. ذات ليلة، في آخر شهرٍ عشناه معاً، لاحظت سترة جينز رجالية زرقاء ملقاة على مقعد الكنيسة. وصباح اليوم التالي، خرج فريدي باي من غرفة نوم لونا. بالكاد حادثني - ربّما لأنني كامرأة سوداء توقع مني العدائية حيال وجوده في غرفة نوم امرأة بيضاء. كان وقع المفاجأة عليّ أقوى من إظهار العدوانية، وكان ذلك جزءاً يسيراً وحسب من المشاعر التي انتابتني. ثم غادر.

لم أتناقش ولونا في ذلك. وأعتقد الآن أنه من الغريب ألا نفعل. كأنه لم يكن هناك مطلقاً، وكأنه لم يتقاسم مع لونا غرفة النوم تلك الليلة. بعد شهر من ذلك، ذهبت لونا إلى غوا بمفردها، ذهبت في حال سبيلها. مكثت في إحدى الجزر، ونامت وكتبت على الشاطئ. ذكرت ذات مرة أنها وجدت عشيقاً وفّر لها الحماية من الحشرات والسكان المحليين المتسكّعين على الشاطئ.

بعد أعوام عدة، جاءت لزيارتي في الجنوب وجلبت قطعة فخّار جَميلة أوقعتها ابنتي وكسرتها بعد فترة طويلة، لكنني ألصقت أجزاءها بطريقة أدى معها الكسر إلى تحسين جمال التصميم وهشاشته.

خاتمة، بعدئذ

رؤية أخرى

تلك هي «القصة»، ونهايتها «منقوصة». والسبب في ذلك أن فريدي باي ولونا ما يزالان على قيد الحياة، مثلي أنا. لكنني أثناء التحدث إلى أحد الأصدقاء، سمعت نفسي أقول إنني في واقع الأمر، كنتُ قد كتبت خاتمتين. اعتبرت الأولى أدناه ملائمة لمثل هذه القصة المنشورة في بلد يلتزم بالعدالة بحق، والثانية أعلاه أفضل خاتمة بوسعي تقديمها لمجتمع ما زال الشنق التعسفي فيه محفوظاً في اللاوعي على الأقل، كوسيلة للهيمنة العرقية.

قلت لو أننا عشنا بالفعل وسط مجتمع ملتزم ببَسط العدالة على الجميع (تشمل «العدالة» في هذا المقام: التكافؤ في الإسكان والتعليم وفرص العمل والرعاية الكافية للأسنان، إلـخ...)، وبالتالي وضع لونا وفريدي باي في موقعهما الصحيحين في هذه العلاقة، مثل الأخ والأخت أو الرفيقين المتساويين، لكان عليهما السعي سويّةً للتوصل إلى معنى اغتصابه لها.

وبما أن صديقي رجلٌ أسود أحبه ويحبني، أمضينا فترة غير قصيرة في مناقشة ما تعنيه حادثة الاغتصاب هذه بالتحديد بالنسبة إلينا. اتفقنا أنها خطأ من الناحية الأخلاقية، ولا ينبغي التغاضي عنها. معيبة: فاسدة سياسياً. لكننا، وإبان تفكيرنا بما كان سيحدث لعدد غير محدد من الشبان

السود الأبرياء في «فريهولد»، جورجيا، لو أن لونا صرخت، اتضح أن جزءاً غير يسير من خوف آيدا بي. ويلز تجاه استغلال قضية الاغتصاب يسري في داخلنا أيضاً. حالت تداعيات هذا الخوف بيني وبين الراحة، وهكذا انقضت شهور وأعوام على كتابة معظم القصة، لكنني كنت عاجزة، أو عازفة على الأقل عن إنهائها أو نشرها.

ونتيجة تفكيري بها لأعوام، طرأ عددٌ من التغييرات والتحسينات والألغاز الصغيرة على منظور القصة. وهل ستثمر هذه عن إلقاء ضوء أوسع على الموضوع القائم حتى تاريخه؟ هذا ما لا أعلمه. على أي حال، عدت إلى ملاحظاتي المرفقة أدناه لفائدة القارئ.

لونا: آيدا بي ويلز – ملاحظات تم إسقاطها

سمات إضافية لشخصية لونا: في فترة اعتبر فيها الكثير ممن التحقوا بالحراك وغادروه كلمتي «زنجي»، و«أسود»، مترادفتين، وانخرطوا في مساعٍ صادقة لكشف التزييف في الخطاب الجنوبي «السائد»، قاومت لونا ذلك. فقد كانت بيضاء من ذلك النوع الذي يرفض الانقياد بسهولة وراء تقليد النمط العرقي للآخر، ويرفض أيضاً المبالغة في نمطه. كانت ما كانت عليه. شابة في غاية الاستقامة، تتمتع برؤية واضحة وتراقب ما حولها بهدوء، من دون مهارة تتيح لها الخروج عن عِرقها.

معرفة متخيّلة

شرحت لونا زيارة فريدي باي على النحو التالي:

اتصل ذاك المساء وقال إنه قدم إلى البلدة، وسأل إن كنت على علم بقدوم الحراك إلى الشمال؟ أجبت بعدم معرفتي بذلك».

متى يمكنه رؤيتها؟ رغب أن يعرف.

«أبداً»، أجابت.

انفجر باكياً، أو شاب صوته على الهاتف شيء شبيه بالبكاء. كان عالقاً في حفلٍ ما لجمع التبرعات ذلك المساء. ليس في المكان نفسه، بل خارجاً، على الشارع. كان «النجوم»، قد غادروا، بل غادر الجميع. كان وحيداً. لا يعرف أحداً آخر في المدينة. عثر على رقمها في دليل الهاتف. لا مال لديه، ولا مكانَ يبيتُ فيه.

سأل إن كان بإمكانه القدوم والمبيت هنا. منهكاً كان وجائعاً ومفلساً - عاطلاً لأشهر عن العمل حتى في الجنوب، باستثناء عمله في الحراك. إلى آخره.

عند وصوله، كانت قد دسّت سكين شرائح اللحم الوحيدة لدينا في خصر سروالها الجينز.

طلب شربة ماء. قدّمت له عصير البرتقال، وبعض الجبنة، وبضع شرائح من الخبز. أخبرته أن بوسعه النوم على مقعد الكنيسة فاستلقى ورأسه على سترته الجينز الملفوفة. انسحبت إلى غرفتها، أقفلت الباب، وحاولت الخلود إلى النوم. ذهلت إذ ضبطت نفسها قلقة حيال ضيق مقعد الكنيسة وصلابته.

غمغم في البداية، تأوه، وشتم أثناء نومه. ثم سقط عن مقعد الكنيسة الضيق. بقي يتدحرج. في الساعة الثانية صباحاً، فتحت قفل الباب، أرته سكينها، ودعته لمشاركتها السرير.

ما من شيء حدث سوى أنهما تحادثا. اقتصر الحديث عليه في البداية. لا حول حادثة الاغتصاب، بل عن حياته.

«كان شخصاً ضئيل الجسد، أتذكرين؟»، سألتني لونا. (كانت محقّة. تحول على مدار السنين إلى شخص ضخم كبير البنية، لكن في مخيلتي وحسب، وفي مخيلتها كذلك بالتأكيد). «بدا ضئيلاً تلك الليلة. طفلاً. بقي مرتدياً ثيابه الكاملة، باستثناء السترة، والتصق حرفياً بالسرير من جهته. التصقت أنا بجهتي. في واقع الأمر، كان السرير بأكمله فاصلاً بيننا. كنا ببساطة متشبثين بحواف السرير».

في حفل جمع التبرعات - على الجادة الخامسة والشارع 71، كما تبيَّن لاحقاً - قدمه زعماؤه إلى الحضور على أنه ذلك المزارع الجنوبي السابق الذي يفتقر إلى المهارات وبالكاد يعرف القراءة والكتابة. دفعوه باتجاه الأغنياء المتجمعين هناك كنموذج على ما فعله «النظام»، بحق «الناس الصغار»، في الجنوب. طلبوا منه التحدث عن زجّه في السجن سبعاً وثلاثين مرة، تعرضه للضرب خمساً وثلاثين مرة. المرة الوحيدة التي غاب فيها عن الوعي في «صندوق الحرارة». قالوا له ألا يقلق حيال استخدامه للقواعد اللغوية، «التي كانت فظيعة كما تذكرين»، قالت لونا. ورغم ذلك، حاول جاهداً التستّر على أخطائه ولهجته العامية. أدرك حتى الألم أنه كان مادّةً للعرض، مثلما كان فريدريك دوغلاس لدعاة إلغاء العبودية. لكنه بخلاف دوغلاس، افتقر إلى موهبة الخطابة، واللغة الحماسية، واللسان الفضّي القادر على تطويع الكلمات. علم أنَّ الأغنياء وزعماءه ينظرون إليه كنكرة: رجل مهزوم، غير متعلم، تعوزه المهارات في كافّة المجالات...

لكنه تحدّث، مرتعداً أمام جمهور غفير من الشماليين البيض الأغنياء - ممن يعتقدون بوضوح أن هذا الجزء من البلاد لن يشهد أبداً المشكلات العرقية التي شهدها الجنوب - متوسلاً أموالهم بقصص مؤلمة من حياته البائسة.

وفي النهاية انصرفوا جميعاً، بمن فيهم الزعماء السود. تركوه يناظر الأضواء الخلفية لسياراتهم، مستذكراً وجوه الأصدقاء الذين قدموا لاصطحابهم: النساء بفساتين مزركشة بالرسوم الإفريقية اللواتي تألقن بشعورهن المصفَّفة بعناية، ومجوهراتهن البراقة، وعطورهن الفوّاحة. كنّ في غاية الجمال، والغرابة أيضاً. لم يكن بوسعه تخيّل أنّ أحداً منهم سيستوعب حياته. لم يطلب توصيلة، لهذا السبب، وأيضاً بسبب عدم وجود مكان يقصده. ثم تذكر لونا.

سيأتي دور لونا في التحدُّث. ستذكر اعترافها عما إذا كان لديها الحق

بالصراخ أثناء اغتصاب فريدي باي لها، وسط مجتمع أسود يحيط به البيض أصحاب التاريخ الحافل بالشنق التعسفي للسود. بالنسبة لها، كان ذلك صلب الموضوع.

وهكذا سيواصلان التحدث طيلة الليل.

هذه نهاية أخرى منسوجة من القصة الأصلية. لو أنني صدّقت رواية لونا عن الاغتصاب، وقد صدّقتها بالفعل (لكنت صرفت النظر عنها لو أنها أخبرت أحداً غيري)، لكانت هذه الحبكة للأحداث المحتملة مناسبة كأية شهادة أخرى يمكن الاعتماد عليها. شخصان تحوَّلا الآن إلى «شخصيَّتين».

أجبرتهما على التحدُّث حتى بلوغ حادثة الاغتصاب التي مثّلت حجر عثرة، و*عليهما إزالته بنفسيهما*، قبل المضي قدماً إلى نقطة يمكن منها الإصرار على مجتمع لا يمكن فيه استخدام كلمة لونا بمفردها عن الاغتصاب لترهيب عرق كامل، ويُسمع فيه صراخ رجل أسود بريء ببراءته من الاغتصاب من دون تعصّب أو تحامل. وحتى نشوء مثل هذا المجتمع، ستبقى العلاقات العاطفية بين الرجال السود والنساء البيض مسمومة على الدوام - من الداخل والخارج في آن معاً - بالخوف الموروث وخطر العنف، ويندر فيه احتمال قيام علاقات متماسكة متكافلة بين الرجال السود والنساء البيض.

حاشية: هافانا، كوبا، نوفمبر 1976

أنا اليوم في هافانا برفقة مجموعة أخرى من الفنانين الأمريكيين السود. أمضينا فترة الصباح بعيداً عن مضيفينا الكوبيين، نطلع بعضنا بعضاً على أحدث المستجدّات المتعلِّقة بنمط العمل (ما من فنانين لا يعملون بالسياسة بيننا) الذي نقوم به في الولايات المتحدة. قرأت لهم «لونا».

على مرتفع من مدينة هافانا الجميلة، أجلس في أحد أجنحة فندق «هافانا ليبر»، برفقة رسام الجداريات والمصور الفوتوغرافي في مجموعتنا. إنه رجلٌ مستقيم في منتصف الثلاثينيّات من عمره، وسيم وبشرته بنية اللون، عرفته مصادفة منذ بضع سنوات. خلال الستينيات، قام بتصميم ورسم جداريات الشوارع لمصلحة «اللجنة التنسيقية الطلابية ضد العنف»، وجماعة «النمور السود»، وأبدى خلال نقاش جرى سابقاً مع فنانين كوبيِّين نفاد صبره حيال تفسيرهم لسبب عدم مشاهدتنا لجداريات تغطي عدداً من الجدران المتسخة في المدينة: قالوا إن الجداريات ليست من تاريخ كوبا ولا تقاليدها، بخلاف المكسيك. أجاب رسامنا بإصرار: «لكن الهدف من الثورة هو غرس تقاليد جديدة!»، معززاً وجهة نظره بشغف قوي حيال فائدة مهنته للاتصال الثوري، حتى أنَّ الكوبيَّين أصابهما الحنق والإعجاب الشديد في آن معاً. اصطحبونا بالسيارة في جولة حول المدينة للتعرُّف على لوحاتهم الضخمة، وجميعها تروّج للفكر الاشتراكي وبطولة رجال مثل لينين، وكاميلو، وتشي غيفارا. وقالوا: «ها هي ذي جداريّاتنا».

أثناء تناولنا طعام الغداء، سألت رسامنا عن رأيه بقصة «لونا»، ولا سيّما القسم الملحق.

وكان ردُّه: «لم تعجبني كثيراً». وأضاف: «رؤيتك للضعف البشري تستند كثيراً إلى الكتاب المقدس. لست قادرة على تصوّر الإنسان من دون ضمير. الإنسان الذي لا تعنيه حالة روحه البتة لأنه باعها منذ أمد طويل. باختصار، لا تدركين أن بعض الناس أشرار ببساطة، ووباء على حياة الآخرين، وأن القضاء على ذلك المرض كاملاً أفضل من محاولة تفسيره واحتوائه أو مسامحته». ضحك قائلاً: «فريدي باي، الذي ذكرت، كان على الأرجح يغتصب النساء البيض بناء على توجيهات حكومته».

يا للهول، فكرت. لأنه ولوهلة أبطأت فيها بإجابتي الشفهية، بالطبع، هذا التعليق ينطوي على قدر كبير وصغير معاً من المنطق.

«أحياناً أكون ساذجة ومزاجية»، قلت. وأحياناً كلَيهما، رغم أنني كذلك معظم الأحيان بسبب تكويني. التسليم بهذه الطريقة أسلوب تكتيكي، ومحفِّزٌ للحوار.

«وصدمك ما قلته»، قال وضحك مجدداً ثم تابع: «وإن كان، تعلمين الآن أن السود يمكن استئجارهم لتفجير السود الآخرين، ويمكن لأحد ما استئجارهم لاغتيال الأخ مالكوم، لتوفير رسم بياني لغرفة نوم فريد هامبتون ليتسنى للخنازير إطلاق النار عليه بسهولة أثناء نومه، وتجدين صعوبة في تصديق إمكانية استئجار أحدهم رجلاً أسود لاغتصاب النساء البيض. لكن فكِّري للحظة، وسترين ما الذي يجعل من هذا فعلاً تخريبياً مثالياً. فوجود العدد الكافي من السود المغتصبين أو المتهمين باغتصاب النساء البيض، يعني أن أية حركة سياسية تتجاوز الحدود العرقية مصيرها الفشل».

واصل قائلاً: «تعمل في الخفاء قوىً أكبر مما تشير إليه قصتك. ما زلت تفكرين بالشهوة والغضب، والانتقال ببطء إلى العدوانية والكراهية العرقية البحتة. يجدر بك أخذ المال بعين الاعتبار - الذي قد يتلقَّاه المغتصب، ربما من الدولارات التي تدفعينها للضرائب، بل وبما سيحرزه الذين استأجروا المغتصب من بقاء الوضع الراهن على حاله. أعلم كل هذا لأنني عندما كنت مفلساً وجائعاً أبيع دمي لشراء الطعام والطلاء الذي أتاح لي مزاولة عملي، تلقَّيت عرضاً لأداء أعمالٍ أخرى».

«لكنك رفضت العرض».

قطّب حاجبيه. «ها أنت تكرّرينها مجدداً. كيف تعلمين أنني رفضته؟ كان عملاً مأجوراً، وكنت أتضوَّر جوعاً».

«لم تقبل بالعرض»، كرَّرت قائلة.

«كلا»، أجابني، «قدم العرض «فريق» من السود والبيض. وكان لدي القدر الكافي من الطاقة لأهدد بإلقائهم خارج الغرفة».

«حتى لو أن أحدهم استأجر فريدي باي لاغتصاب لونا، فهذا لا يوضح سبب زيارته الثانية».

قال رسامنا: «ما من شيء سيوضح ذلك على الأرجح. ولكن على افتراض أن فريدي باي تلقّى أجراً لتخريب الكفاح الأسود في الجنوب - عبر اغتصاب النساء البيض - ربما كان قد اكتسب لاحقاً القدر الكافي من الحكمة لاستيعاب أهمية قرار لونا بعدم الصراخ».

«أتقول لي إن ضميره كان حياً؟»، سألتُ.

«ربما»، أجابني، لكن نظرته أضمرت بوضوح أنني لن أفقه شيئاً حول الشر والسلطة أو الفاسدين في العالم الحديث. لكنه مخطئ بالطبع.

لوريل

التقيت لوريل خلال ذلك الصيف في منتصف الستينيّات.

برزت في تلك الفترة صحيفة جنوبية ثورية جديدة، كان عمرها ستة أشهر فقط وحملت اسم «المتمرِّد الأوَّل». أشار الاسم بالطبع إلى عبدٍ أسود امتدَّ تمرُّده على مختلف أرجاء الجنوب قبل فترة طويلة من خوض المتمرّدين البيض للحرب الأهلية. كان لوريل في أتلانتنا للاجتماع مع الشباب الذين شكلوا فريق عمل الصحيفة، وبما أنه رغب بالعمل في صحيفة ثورية مختلطة الأعراق، اجتمع معهم لمعرفة ما إذا كان قد وجد ضالَّته المنشودة في صحيفة «المتمرِّد الأول».

لم أكن معنية بالعمل في صحيفة، مهما كانت ثورية. وأتفق مع ليونارد وولف أن الكتابة في إطار جدول زمني أسبوعي محدد تسبب تشوهاً في الدماغ. لكنني رغم ذلك، حضرت عدة اجتماعات تحريرية لصحيفة «المتمرد الأول». أثناء تجوُّلي هرباً من الاجتماع الأول، التقيت صدفةً لوريل الذي نظر إليَّ من خلال نظَّارة رخيصة تلوِّثها البصمات، بإطارها الأزرق والرمادي، وسألني إن كنت على معرفة بمكان الاجتماع.

بدا مظهره نسخة ساخرة عن شخص ريفيّ أخرق. طويلاً كان وفي ظهره انحناء طفيف، بتسريحة شعر سوداء تماماً كأن أحدهم وضع إناءً على رأسه. حتى أنَّ أذنيه كانتا بارزتين، كبيرتين ولونهما زهري.

حقاً، فكرت في نفسي.

رغم أن عمره لم يتجاوز الثانية والعشرين، أي أكبر مني بعامين،

إلا أنه بدا أكبر سناً. ومن دون شك، جاءت نظارته لتعزز هذا الانطباع، ناهيك عن مشيته اللامبالية ووقفته المترهِّلة. عيناه صافيتان بنيّتان مليئتان بخبثٍ ريفي يناسب مظهره. لكن صوته هو الذي استوقفني بما فيه من نبرة ساحرة.

«هلَّا كرَّرت ما قلت؟»، سألته.

أجابني: «بالطبع»، مكرّراً سؤاله على مقطعين، الثاني بنبرة أعلى من الأول: «أبحث عن مكان اجتماع صحيفة «المتمرد الأول»، ماذا تفعلين؟».

ذهب الخبث الريفي لتحلّ مكانه نظرة إغواء ريفية خرقاء.

ارحمني أرجوك! قلت لنفسي. وانفجرت ضاحكة.

ابتسم لوريل ابتسامة عريضة، واحمرّت أذناه.

وهكذا انخرطنا في تخطيط صحيفة ملتزمة بمحاربة العنصرية وأشكال العنف الأخرى في الجنوب... (حتى نفدت من التمويل وطوت معها لاحقاً ثلاثة أعوام والكثير من مقالات الصحافة الاستقصائية التي لا تقدَّر بثمن).

لكنة لوريل لم تكن واحدة من لكنات الجنوب المتنوعة كما ظننت في بادئ الأمر. فقد هاجر أسلافه إلى الولايات المتحدة في مطلع القرن التاسع عشر واستقرّوا في كاليفورنيا لعثورهم فيها على الشيئين الأحب إلى قلوبهم: كرمة النبيذ والتفاح.

لم أسمع طيلة حياتي حديثاً يشبه حديث لوريل. قد يطرح سؤالاً على غرار «كيف وصلت إلى هنا؟»، ويكون وقعه أشبه بطفلين سعيدين لكنهما كسولان يلعبان ببطء لعبة قفز الحبل تحت شجرة تفاح تغمرها أشعة الشمس. ومن لوريل نفسه، أثناء كلامه، شعرت أنني أشتم رائحة التفاح وعبق الجويسئة الناعم يفوح من نبيذ أيار.

كان أيضاً مجاملاً من دون تكلّف أو عناء. وبينما نمضي عبر صف الانتظار في المقهى، قد تسمعه يقول «يا لجمالك، حقاً»، ويكون

للمجاملة وقعها الجميل على السمع مترافقة بالاهتمام الذي يثيره سماعها للمرة الأولى. وتحت أظافر لوريل الذي عشق العمل بين عرائش العنب وواصل ذلك حتى لحظة مغادرته بساتين أتلانتا، كثيرٌ من الوسخ.

وجدتها، قلت لنفسي. يسعني هنا أن ألعب بأمان. ما من أحد يأتي بمثل هذه الأظافر الوسخة إلى منزله. كان ذلك يوم الإثنين. وبحلول يوم الثلاثاء، رأيت في الأظافر الوسخة الخصلة غير البرجوازية المناسبة التي تظهر قلة الاهتمام الشخصية بالمظاهر التي تشمل النظارات الملطخة وسروال الجينز البالي لكنه جميل، وفي جيبه الخلفي على الدوام كتاب ورقي نصف مطوي وممزق بشكل لافت. خطر لي أنه ليس بوسعي النظر إلى لوريل من دون أن تجتاحني الرغبة بممارسة الحب معه.

فكّر هو بالشيء نفسه.

لفترة قصيرة، أنحيت باللائمة على أتلانتا في الربيع... أشجار الكرز التي أزهرت حول مباني الحرم الجامعي، الروائح المذهلة الفواحة من نباتات العسلة في جنوبنا، الإثارة النابعة من البعد عن مدينة نيويورك وقذارتها التي يستحيل اعتيادها. لكن الموضوع كان أكبر من ذلك: فإن دخلنا كلانا غرفة ما من بابين مختلفين، حتى لو لم نشاهد بعضنا، كأن تياراً كان يجذبنا ليجمعنا سويّةً. وعلى وجبة الفطور، عجز كلانا عن تناول طعامه، سوى قسراً حدَّ الاختناق، لفرط الحنين والرغبة تجاه بعضنا بعضاً. بعيداً عن الناس، والطاولة والطعام.

فيلم حقيقي على أرض الواقع.

طيلة بقية الأسبوع، أرهقنا دماغينا محاولَين التفكير بمكانٍ نمارس فيه الحب. لكن الفنادق ما زالت تطبّق سياسة الفصل العرقي، وذات مرة، بعد حفلة للحراك في منزل أحدهم، تلقينا توبيخاً قاسياً بسبب مشينا يداً بيداً بسعادة مفرطة تحت جناح ليل الجنوب.

«*ألا تعلمان أن هذا مشين؟*»، سألنا شاب أسود، وجرّنا إلى سيارته حيث جلست في حضن لوريل بشيء من الخدر الحسي - أسمع

كلماته توافقهم الرأي، عارفاً التاريخ المخضَّب بالدم وراءها... من دون الاهتمام قيد أنملة.

باختصار، ما من مكان نمارس فيه الحب، كما يشير هذا المصطلح بالفهم الشائع له. تم إسكاننا في مهاجع. الرجال في واحد، النساء في آخر. بينما خضع الأزواج مختلطو العرق للمراقبة كلما رفع المساكين رؤوسهم في المدينة. اضطررنا للاكتفاء بنمط من الألعاب الجنسية على مقعد قريب خلف أحد المهاجع. وكما يعلم العشاق، تفرض الألعاب الجنسية من هذا النوع ضغطاً على طاقة الإنسان في البراعة البدنية، وتجعل الشهوة أكثر رسوخاً في الذهن، حيث سرعان ما تتحول إلى شهوة مهيمنة، نهمة وعميقة.

حالة الشهوة بحد ذاتها ليست حالة سعيدة إذا لم يلح إشباعٌ في الأفق. ورغم أنني سعيدة بما فيه الكفاية لدخول الحالة التي تطرأ فيها، إلا أنني تعلمت الإقرار بما تفرضه من قيود محبطة عديدة ومتكررة. فمثلاً، تتلاشى القضايا الأكثر جسامة من وعي المرء كأنما كنستها رياح خفيفة. وتصبح الحركات ذات الأهمية السياسية والاجتماعية الكبرى مجرد خلفيات للتبدلات اليومية التي يعيشها الإنسان - مهما كانت خافتة ومحدودة - مع محطّ شهوته. (عجزت أنا على الأقل عن تفسير كيفية تحول الأمور الشخصية إلى سياسية، وهذا ما صحّ بالتأكيد في حالة لوريل وحالتي. بما معناه، عارض الجميع نومنا معاً، باستثنائنا، وسنّوا قوانين تنصُّ على هذا. وبالطبع، سواء نمنا سويةً أم لا، فهذا ليس من شأن أحد، سوانا أيضاً).

كلما ازدادت استحالة التواجد مع لوريل، لممارسة الحب بالكامل وبصورة طبيعية، كلما تحول الموضوع إلى هاجس لا أرغب سواه. ولو أن الجنوب انتفض مجدداً خلال واحدة من قبلاتنا المسروقة - يداه على صدري ويداي على صدره (ثدياه حساسان، وهذا من الأشياء الكثيرة التي اكتشفناها نتيجة ابتكار الألعاب والصدف) - لكننا اضطررنا

مرغمين على الانتباه. كتابة هذا فعلٌ «إجرامي»، بالطبع، نظراً للخرافات التي يفترض أنها تجعل من احتمال الحياة متعددة الثقافات أمراً أكثر سهولة، لكنه صحيح تماماً. ولكن، بعد الأسبوع الذي أمضيناه معاً – المفعم بالشغف والجمال والذكريات والذي لن نعيشه مجدداً على الإطلاق، ورغبتنا بممارسة الحب التي لن تذوق طعم الإشباع نهائياً رغم عدم معرفتنا ذلك حينها – ذهب كلٌ منا في طريق. لأنه وفي واقع الأمر، وبينما كنا نتبادل القبل قائلين ليذهب كل شيء آخر إلى الجحيم! كان الجنوب ينتفض مجدداً. ويقتل الناس، ويسجن زملاءنا وأصدقاءنا، ويمنعنا من التوجه إلى فندق نظيف رخيص.

كانت تلك آخر ليلة نمضيها معاً عندما أخبرني عن زوجته بينما كنا نرقص في نادٍ ليلي مناصر للحراك، ما يعرف اليوم باسم الديسكو. طريقته في الرقص كانت محبَّبة، حتى على الأنغام البطيئة التي تشبثنا خلالها ببعضنا بعضاً من دون خجل؛ في رقصته شيء من قفزة خفيفة، تتباطأ أو تتسارع حسب إيقاع الموسيقى، من قدم إلى أخرى، بتوقيت شبه متزامن مع الموسيقى – هكذا كان الرقص في نظره. لم يزعجني ذلك قطّ، فقد توصل جسدانا إلى التناغم بسهولة على أي حال، وكان تلامسنا بحد ذاته سبباً يدعونا للقفز إلى ساحة الرقص. هناك كنا نمارس شيئاً من الحب، في زاوية مظلمة بالقدر الكافي، ولم يكن ذلك مشبعاً بالضبط، لكنه لم يكن، مطلقاً، ألعاباً جنسية.

رمقني من نظّارته بإطارها الرمادي والأزرق.

«زوجتي بانتظاري في الديار».

أكثر ما أغاظني بكوني «المرأة الأخرى»، هو تحملّ مسؤولية راحة الزوجة وسعادتها. في ليلتنا الأخيرة معاً، وسط نيران شهوتنا التي بقيت على حالها وستبقى على ما يبدو من دون إخماد بسبب محيطنا، بماذا ستفيدني هذه المعلومة؟

ولم يتبادر إلى ذهني سوى: ليست زوجتي *أنا*.

من القليل الذي قاله عنها، كانت شخصاً جديراً بالإعجاب، سافرت ذلك الصيف لتكمل دراستها لنيل شهادة عليا. بدا حائراً حيال حاجتها لمتابعة تعليمها عوضاً عن الاستقرار لإنجاب أطفاله، لكنه كان يشكو الوحدة لا المرارة.

«إذاً، اقتصر الأمر بيننا على الجنس في نهاية المطاف»، قلتُ لنفسي.

(من باب الإنصاف، كنت مخطوبة لشابٍّ في قوات حفظ السلام. ولم أمانع اقتصار الموضوع على الجنس، ولا سيّما أن شهوتنا المتبادلة كانت قد بلغت في ذلك حالة أشبهَ بالتصوُّف).

لكن لوريل كان ملتاعاً.

(لم أخبره عن خطبتي قطّ. وفيما يخصّني، لم أكن قد عرفت بعد إن كان لخطوبتي صلة بعلاقتي مع الآخرين. لم أعتقد ذلك، لكنني أدركت أنني كنت يافعة حينها).

تلك الليلة، اعتصر لوريل يديه، شدّ شعره بتسريحته الغريبة وبكى أثناء مشينا بجرأة في شوارع أتلانتا الخطرة الموبوءة بالمتشرِّدين البيض.

بكيت لبكائه، ولأنَّ بكائي حرَّرني من شهوتي بطريقة غريبة. ثم أنني استمتعت بمشاهدة تظاهري بالمعاناة... دائماً ما تأتي هذه اللحظات العاطفية الزائفة ثمارها، لكن جهلي بذلك حينها دليلٌ على استعدادي للاقتناع بأن علاقتنا ما كانت ستدوم بعد تلك اللحظة.

ورغم ذلك كلّه، وصلتني منه رسالة بعد استقراري في إحدى بلدات جورجيا الصغيرة. أولاً للاعتصام أمام سجنٍ تم فيه احتجاز مدرّس محلي لاعتصامه أمام سجنٍ تم فيه احتجاز أحد أولياء الأمور المحليين لِاعتصامه أمام سجنٍ تم فيه احتجاز طفل من المنطقة لاعتصامه... وثانياً لتسجيل الناخبين.

كتب في رسالته أنه مشتاقٌ إليّ.

اشتقت إليه أيضاً، فقد كان الشخصية الرئيسة الثانية الحاضرة في

خيالاتي. كاتبته وأخبرته أنني مسافرة إلى إفريقيا لكنني سأواصل مراسلته، وأعطيته عنوان مدرستي الذي يمكنه المراسلة عليه.

ذات مرة في إفريقيا، كنت وخطيبي (الذي كان في بلدٍ مجاور وتسنَّت له زيارتي بسهولة وقتما شاء) قد فرغنا من انفصال كان متوقَّعاً طيلة فترة خطوبتنا التي استمرت عامين. أخبرني أنه من المألوف بين عناصر حفظ السلام، فضلاً عن أشياء أخرى، مضاجعة الفتيات الأفريقيات في العاشرة من أعمارهن. تعرفين، إنهن يتمتعن بالجاذبية حتى *في ذلك العمر*. كتبت إلى لوريل أخبره عن ذلك الجانب من أنشطة قوات حفظ السلام، كأنه تنامى إلى مسامعي من رجل غريب.

شعرت أن لوريل ما كان أبداً ليستغل طفلة في العاشرة من عمرها. وقد أحببت فيه ذلك.

ولمحبّتي إياه، لم أكن مهيأة لانقطاع رسائله عندما كنت في مدرستي. مضت ثلاثة أشهر على عودتي وما زالت أخباره مقطوعة عني. وبدافع الإحباط الذي سببه ذلك، والعمل المدرسي الذي وفر مصدراً للإلهاء، كنت في مرحلة تبتُّل، ونادراً ما شعرت بالشهوانية، وعندها بالطبع كان تفكيري يتجه دائماً إلى لوريل، كفرصة ثمينة فاتتني اغتنامها. فكرت بموسيقى نبرته ورائحة التفاح ونبيذ أيار التي فاحت منه، بدرجات متفاوتة من الندم والحنان، إلا أن الأسبوع المفعم بالشبق السحري العالق في الذاكرة، والقصير إلى أبعد الحدود - اتخذ تدريجياً موقعاً أقل من جوهريّ حتى في أشدّ ذكرياتي حميمية.

وفي أواخر شهر تشرين الثاني، بعد ستة أشهر من لقائي لوريل، تلقيت رسالة من زوجته.

أول فكرة خطرت في ذهني لدى رؤيتي المظروف: تشاركه الكنية نفسها. كانت تلك المرة الأولى التي يصبح فيها زواجهما حقيقة في نظري. خشيت أيضاً أن تكون قد راسلتني لاتهامي بتعكير صفو حياتها. فماذا عدا ذلك يحمل الزوجة على الكتابة؟

قالت في رسالتها إنه في الرابع من تموز (بعد ستة أسابيع من لقائي لوريل) تعرض لوريل لحادث مروري أثناء قيادة شاحنته لتوصيل نسخ من صحيفة «المتمرد الأول». إما أنه غطّ نائماً خلف عجلة القيادة أو أن المتمردين المحليين من النوع الآخر تسببوا بخروج شاحنته عن الطريق. أصيب بكسرٍ في رجله، وتهشمت فقرات ظهره، وتضرر دماغه تضرراً شديداً وهو في غيبوبة منذ أربعة أشهر وما من شيء يوقظه. عثرت على رسالتي في جيبه، وتساءلت إن كنت أرغب بزيارته. (لن يكتب لي لقاء زوجة لوريل أبداً، لكنني قدّرت تلك اللفتة حينها، وما زلت حتى اليوم).

كان المستشفى عبارة عن مستشفى كاثوليكي صغير في مسقط رأس لوريل، انتصب على مدخله تمثال دموي مروّع وقبيح للمسيح بلون اللّفت، أضخم من الحياة نفسها. ارتدت الراهبات زياً أبيض وأسود يذكر المرء بأسراب الذباب العملاقة، ترفرف بأجنحتها ووجوهها الوردية الملائكية اللطيفة والهزلية في آن معاً.

والد لوريل يشبهه كثيراً، النظارات والملابس البسيطة ذاتها، والوجه المنشرح ذاته - ولكن لدى التمعن فيه أكثر، يبدو وجهه عريضاً أكثر منه منشرحاً. في صوته ذات الجرس الموسيقي. كانت شقيقة لوريل موجودة أيضاً، وعانقتني من دون مقدمات.

قالت: «يسعدنا قدومك».

كانت أيضاً على شاكلة لوريل لكنها أصغر قامة، جميلة بشعرها الأشقر القصير وخدودها التفّاحية.

انحنت وأمسكت بيد لوريل.

وحده لوريل لم يكن يشبه لوريل صاحب الجسد الممتلئ المترع بَالعافية والفحولة، وها هو اليوم هيكلٌ عظمي بعينين، يستلقي على سرير المستشفى. اقتحمت الأنابيب جسده بأكمله، رأسه حليقٌ، تغطي ضمادةٌ الثقبَ المحفور في أعلاه. بالكاد كان تنفُّسه صفيراً يخرج من ثقب فتحوه في حنجرته.

أخذت باليدين اللَّتين منحتا صدري تلك المتعة، كانتا عظاماً باردة جامدة بين يدَيَّ. لمستُ الوجه الذي حلمت به شهوراً كأنني ألمس وجه أحدهم يتوسَّدُه الكفن.

قالت أخته: «لقد حضرت آني»، وفي صوتها الجرس الموسيقي نفسه.

انفتحت عينا لوريل، تختلجان وتهتزان في محجريهما. فمُه مفتوح. لكنه كان غائباً. لا شيء سوى غلافه، قشرته. رمقني والده - كأنه ينظر إلى أيِّ علاج آخر. بنظرة تنمُّ عن التخمين. هل سيشفيه هذا العلاج؟ هل سيعيد الحياة إلى ولدي؟

لم أشفه. ولا أعدت الحياة إلى ولده. هناك كان لوريل مستلقياً، يئزّ عبر الفتحة في حنجرته، عاجزاً، خالياً من الحياة. كنت توّاقة للمغادرة.

بعد مرور عامين، بدأت الرسائل بالوصول. تماماً كأنه يعتقد أنني ما زلت بانتظارها في المدرسة. كتب قائلاً: «عزيزتي. أحبك. أشتاق إليك وقد صحوت من الغيبوبة بعد عام كامل وبعد أن يأس الجميع مني. أصبت بتلف في الدماغ. هل بوسعك زيارتي؟ ما زلت طريح الفراش».

لكنني لم أكن في المدرسة. كنت متزوجة وأعيش في الجنوب.

نصحني زوجي: «أخبريه أنك متزوجة الآن. يجب أن يعلم لئلا يؤذي نفسه بأحلامه».

لم أكتب أنني متزوجة وحسب، بل أعيش زواجاً «سعيداً».

بالنسبة للوريل، حالتي الاجتماعية لا تعني شيئاً.

كتب قائلاً: «تعالي أرجوك. يعيش هنا قلّة من السود. ستشعرين بالوحدة لكنني سأكون بجانبك أمنحك حبّي».

كتبت مجدداً. أخبرته هذه المرة أنني متزوجة، حامل، وعندي كلب حماية.

«أحلم بجسدك شهياً وخصباً. أتوق بشدة لممارسة الحب معك كما لم نفعل من قبل. آمل أن تعلمي كيف فقدت جزءاً من دماغي أثناء عملي لأجل قومك في الجنوب. أشتاقك. تعالي قريباً».

أجبت: «لوريل العزيز، يسعدني أنك أصبحت بحال أفضل. يؤسفني الضرر الذي لحق بك. لكنني آسفة، ليس بوسعي الذهاب إليك لأنني متزوجة. أحب زوجي. لا يمكنني الذهاب. أنا حامل - أشعر بالغثيان طيلة الوقت وينتابني القلق بسبب الحياة التي عشتها وعشناها سوياً» ... إلخ، إلخ.

أجابني: «تزوجتِ يهودياً [كنت قد نشرت رواية ويظهر أن النقّاد ركزوا على زواجي بدلاً من عملي جرياً على عادتهم]. ما من يهودٍ هنا أيضاً. أعتقد أنك ميّالة إلى الأشخاص الغرباء رغم أنني لم أكن غريباً. أنا الآن مُقعَدٌ وجزءٌ من دماغي في سلة نفايات أحدهم. بوسعنا إنجاب الأطفال إن كنت قادرة على تحمل مسؤولية تربيتهم. لست شخصاً يعتمد عليه. هاها...».

طلبت من زوجي اعتراض طريق الرسائل القادمة إلى منزلنا. طلبت من رئيس جامعتي جمعها وإتلاف الرسائل المرسلة إليّ هناك. خشيت رؤيتها.

«أحلم بجسدك بنّياً دافئاً، بينما جسمي أبيض وبارد حتى بالنسبة لي. يمكنني الاقتران بك والناس هنا متحيزون ضد السود وأسعدهم مصرع مارتن لوثر كينغ. أريدك بجانبي. بوسعنا أن نكون سعداء وسود وجميلين ومقعدين وينقصنا جزء من الدماغ معاً. أرغب بك لكنني أعتقد أنك مقيّدة مع زوجك اليهودي ذاك. لا أقصد الإهانة لكن قدرنا أن نكون معاً وتعلمين هذا».

«عزيزي لوريل، أنا الآن أم [تأملت أن ينقذني ذلك، لكن لا فائدة]. رزقت فتاةً صغيرة. آمل أن تكون بخير. زوجي يقرِئُك السلام».

لم تعرض عليّ معظم رسائل لوريل. ولافتراضه أن زوجي صادر رسائله من دون موافقتي، أبرق لوريل: «آني، أنا قادم على متن باص «غريهاوند»، لا تتركي كلبك يعضني، لوريل».

قال زوجي: «حسناً، ليأتِ. وليرى أنك لست الامرأة التي يتذكّرها. لقد تجمدت ذاكرته عند الشغف المتبادل بينكما. ليرَ مدى سعادتنا معاً».

انتظرت وأوصالي ترتعد.

كانت أمسية باردة صافية. خرج لوريل من سيارة الأجرة يعرج على عكازتين، أحد ساقيه أقصر من الأخرى. كان قد استعاد وزنه وبدا رغم شحوبه شبه وسيم. نظر إلى زوجي الوسيم تماماً نظرة خاطفة وحيدة وتجاهله. استقرت عيناه عليّ. ابتسم لي بسعادة وحبور.

كنت حينها أعرف تحضير طبق وحيد هو الدجاج بالطرخون؛ فقدَّمتُه.

كنت خائفة. لا من لوريل بالضبط، بل من كل الأشياء التي شعرت بها.

(باستثناء يقيني من زوجي، ساورني الشك بأن الزواج سيعجز عن حمايتي من أن أكون، بشكل من الأشكال، تماماً تلك المرأة في ذاكرة لوريل).

أيقظت رضيعتي وحملتُها أمامي، ساخطة ومتورِّدة الوجنتين ومتأهِّبة إلى حدّ السخافة. وبينما تناولنا طعامنا، حثّني لوريل على تذكر ليالي ألعابنا على مقعد المهجع ورقصاتنا الحميمة. اشتعلت وجنتاي خجلاً أمام زوجي المهذب. تلك الليالي التي بدت بالنسبة لي في منتهى البعد، بدت كأنها الوحيدة الحاضرة بوضوح في ذاكرته؛ مقارنة بذاكرته الضعيفة حيال كيفية وقوع الحادث الذي تعرض له. انمحى كل ما قبل ذلك الأسبوع وبعده. كانت اللحظة حقيقية بالنسبة له. كنت أنا حقيقية في نظره. ذلك الأسبوع الذي قضيناه معاً منذ فترة طويلة كان حقيقياً للغاية بالنسبة له. في حديثه ذلك الجرس الموسيقي الجميل المعتاد، وسذاجة مضحكة نتجت عن نقص في الإدراك الترابطي. لكن الإصغاء إليه كان مضنياً: فقد كان مفرطاً في ثقته بالفوز بي - بناءً على ما يذكره من شغفنا المتبادل - ومنفعلاً لدرجة أن حملقته بي أوصلتني حدَّ البكاء.

بما أنه الآن هنا وبصحة جيدة تقريباً، يتوجب عليَّ التخلي عن كل شيء، بما في ذلك الطفلة القابعة في حضني - بدا بالكاد أنه رآها - وأن أسافر برفقته. ألم أسافر إلى إفريقيا، رغم أن ذلك معناه الرحيل عن البلد ذاته التي يعيش فيها؟

أخيراً، بعد الألغاز ضمن الألغاز التي تحولت كلماته إليها (لا تشبه الألغاز الموزونة كالقصائد، وبشعة أيضاً)، قاد زوجي سيارته إلى محطة الباص لتوصيل لوريل الذي قطع أكثر من ألف ميل لزيارة لم تزد مدتها عن الساعتين.

عاد زوجي بوجه يعلوه التوتر. كان يحبني، كنت على يقين من ذلك. وكان سعيداً بمساعدتي في الخروج من المأزق. لكنه كان مستغرباً على الرغم من ذلك.

قلت: «دامت العلاقة أسبوعاً. قبل لقائنا بفترة طويلة».

واساني قائلاً «أعلم ذلك. صهٍ صه يا صغيرتي». كنت قد تكوّرت بين ذراعيه، مرتعدة من رأسي حتى أخمص قدمَيّ. «لا بأس. نحن الآن بأمان».

وهل كنّا فعلاً بأمان؟

ماذا عن لوريل؟ المسافر ليلاً عائداً إلى دياره؟ تواصلت الرسائل. طلبت أحياناً قراءة إحدى الرسائل التي وصلت المنزل.

«أعيش الآن على المعونة الاجتماعية. أكره بقائي على قيد الحياة. لماذا لم يتركني والدي لأموت؟ الناس هنا عنصريون. وربما سيكونون قساة معنا في حال قدومك لكن ذلك قد يساعدهم على رؤية شيء ما. أنت أكثر جمالاً مما كنت أبداً. مثيرةٌ إلى درجة تبعث الألم في جسدي – لا لأنك سوداء وحسب ففي هذا عنصرية، بل لأن وجودنا في غرفة واحدة يملأ الغرفة بالألوان والعطور ويبعث الحياة في جسدي وروحي».

عرض أن يتبنّى طفلتي، بعد فترة قصيرة من تلقيه لشهادة الطلاق من زوجته.

بعد طلاقي من زوجي (بعد قرابة سبع سنوات من زيارة لوريل وثلاثة عِشر عاماً من لقائي ولوريل للمرة الأولى)، جلسنا ذات مساء نتحدث عن لوريل. تذكره تماماً، بتعاطف وقلق باديين.

قلت: «لولا أنني متزوجة منك، لكنت ربما ذهبت برفقة لوريل».

«حقاً؟»، بدا متفاجئاً.

وبحكم العادة، لمست ذراعه: «لقد أحببته، بطريقة ما».

قال: «أعلم»، وابتسم.

«كانت الشهوة جزءاً كبيراً من ذلك الحب. أربكني ذلك لسنوات حتى أدركت أن الشهوة بحد ذاتها قد تكون نوعاً من الحب».

أومأ برأسه.

«أشعر بالذنب تجاه لوريل. أقلقني عندما راسلني. وخفت عندما قدم لزيارتنا».

«كان مختلفاً عن الرجل الذي عرفته».

«أعتقد أنني لم أعرفه بالشكل الكافي لأتمكن من التخمين. ورغم ذلك، خشيت عودة الحب والشهوة، إلى جانب الشفقة. وحتى إن لم يعودا، ربما كنت سأهرب برفقته على أي حال، بدافع الشفقة - والمغامرة أيضاً».

كانت كلمة «المغامرة»، واختلاف معناها في نظر كل واحد منا السبب الذي أدى إلى انفصالنا. فقد توصلنا إلى إدراك ذلك، وتقبّلناه من دون مرارة.

قلت: «وددت أن أطلب منك السماح لي بالذهاب معه، لبضعة أشهر فقط. أن تطلق سراحي».

«ازدادت حالته سوءاً باضطراد كما تعلمين. رسائله الأخيرة كانت قاسية حدّ الوحشية. ألقى عليك باللوم في كل ما حصل، حتى الحادث، متهماً إيّاكِ بأفظع الأشياء وأسوئها. تحول إلى رجلٍ مقيت وانتقامي».

أدرك من خلال معرفته العميقة بي أنني سمعت ذلك ولم أسمعه.

تنهّد وقال: «لكان ذلك قاسياً عليّ. على ابنتنا. عليكِ. والأقسى على لوريل».

(*«أخبِرْني إذاً أنه من الجيد أنني لم أذهب»*، ودِدتُ أن أتضرّع، لكنني امتنعت)، وعوضاً عن ذلك قلتُ «حسناً»، هززت كتفي، وانتقلت بحديثنا إلى شيء آخر.

رسالة إلى صحيفة «تايمز»، أو أينبغي الحدّ من هذه السادية-المازوخية؟

العزيزة لوسي،

تسألين عن سبب صدّي لكِ في حفلة «نساءٌ لمناصب منتخبة». لست ألومك على شعورك بالمفاجأة والألم. ففي نهاية المطاف، خططنا لتنظيم الحفلة سوياً متوقعين جمع *دلو البول* المعتاد من المال لمصلحة قضية نبيلة. يا لها من فكرة رائعة، حفلتنا تلك: تعالي بهيئة مثلك الأعلى من مناصرات النسوية! لكنني لم أعلم أن سكارليت أوهارا مثلكِ الأعلى، ولهذا ذهلت لوهلة.

لا أعلم؛ ربما عليّ النظر مجدداً في تلك الصورة. أحياناً عندما أشاهد مجدداً الأفلام التي كانت تؤلمني في صغري، يأتي الألم طفيفاً؛ ويسعني الضحك على الأشياء التي كانت تحزنني. لطالما تجسدت مشكلتي مع سكارليت في سخريتها المفروضة قسراً على خادمتها بريسي، بصوتها العبودي المنهك بينما دفعتها سكارليت بمهارة أعلى الدرج، والذي أعجز عن إخراجه من رأسي ما حييت.

لكن سبباً آخر منعني أيضاً من التحدث إليك في الحفلة، لا علاقة له بالجاري بيننا الآن: ذلك المكتوم من صمت ثقيل وغضب وثقة مفقودة. فيوم الحفلة صادف آخر يوم للصف الذي كنت أدرسه في الجامعة، وكان يوماً ثقيلاً ومحبطاً للغاية.

أتذكرين الأشياء التي أخبرتك إياها عن المقرّر؟ كان الله موضوع

المقرّر. تلك الروح الباطنية، الصوت الباطني؛ ذلك الشعور الإنساني القسري الذي يدفعنا في قمة يأسنا إلى البحث عن العزاء الشافي في أنفسنا، والقدرة الكامنة فينا على خلق هذا العزاء وتلقيه.

(لطالما وجدت جانباً مسلياً في أن الله الذي خاطب هارييت توبمان[1] وسوجورنر تروث[2] وحدثهما بالضبط بالأشياء التي كانتا بحاجة إلى سماعها، باختلاف قليل عن التطمين المتواصل الذي أكّده الله في العهد القديم ليهود الزمن الغابر).

ففي الواقع، رأيت أثناء قراءتي لكتابات السود الذين تم اصطيادهم وإرسالهم لقضاء حياتهم في العبودية في أميركا، أن هذه الروح الباطنية، هذه القدرة الباطنية على تعزية الذات، هذه القدرة على إيجاد الله ضمن ما عبروا عنه، أظهرت جانباً مذهلاً في البشر. خلقتنا الطبيعة وفينا قدرة فطرية على معرفة الله، على عيش تجربة الإيمان به، تماماً كما خلقتنا وفينا القدرة على معرفة النطق. فعيش تجربة الإيمان بالله، أو بأي حال من الأحوال إمكانية عيش تجربة هذا الإيمان، *مسألة فطرية*.

أعتقد أن هذه الفكرة برمَّتها مطروقة من قبل؛ لكن بصيرتي تكشّفت عنها بعد قراءتي عن خامس أو سادس امرأة سوداء وجدت نفسها أسيرة، ومستعبدة، وعرضة للاستغلال الجنسي، وتتضور جوعاً، ومجلودة، أماً لأطفال لم ترغب بهم، تحبُّ أطفالاً لن تتمكن من إنجابهم، وكيف زحفت إلى زوايا الحقول وسط أكوام التبن والحيوانات، ووجدت في قلبها نفسه السلوى والحب اللذين لن تعرف غيرهما طيلة حياتها.

كأن أولئك النسوة أوجدن لأنفسهن توأماً ينقذهن من ضمائرهن

1- Harriet Tubman (1822 – 1938): مناضلة ضد الرق وناشطة سياسية، وهي نفسها كانت عبدة، لتساهم في تحرير نساء كثيرات من الرق وقد كانت أيضاً جاسوسة لمصلحة القوات الاتحادية.

2- Sojourner Truth (1797 – 1883): مناضلة ضد الرق وناشطة سياسية. هربت مع ابنتها الرضيعة من العبودية عام 1826، وبعد سنتين رفعت دعوى قضائية لتسترد فيها ابنها، وقد كانت هي المرة الأولى التي تربح فيها امرأة سوداء قضية ضد رجل أبيض.

المعنفة ووحدتهن الجسدية المزمنة؛ وأن ذاك التوأم يقبع في أنفسنا جميعاً، وما علينا إلّا استدعاؤه.

ولتهيئة طالباتي لفهم الله بهذه الطريقة، طلبت منهن قراءة كتابات أولئك النسوة السود المستعبدات وأن يكتبن بأنفسهن قصصاً يكنّ فيها أولئك النسوة، أو نسوة يشبهنهن. وفي الوقت نفسه، طلبت منهن الكتابة عن فهمهن الخاص لماهية «الله»، ذلك الصوت الباطني.

لوسي، لقد كان ذلك الصفّ استثنائياً بالفعل! فيه نساء من كافة الألوان والأعراق والأعمار والأشكال والأحجام والحالات. منهن السحاقيات، المغايرات، ثنائيات الميول، متبتِّلات، مومسات، أمهات، مضطربات الميول، وعبقريات لامعات الأذهان من مختلف المعتقدات والقناعات! كان صفّاً رائعاً! وجميعهن تقريباً، رغم ترددهن في الإقرار بذلك بدايةً – ومن يجرؤ على التحدث بجدية عن المسائل «الدينية»، هذه الأيام – استشعرن على الفور مقصدي عندما تحدثت عن «الله»، كروح باطنية ملازمة.

لكن ما علاقة صفّي عن الله بصدّي إياكِ في الحفلة؟ أسمعكِ تتساءلين وسأصل تلك النقطة.

وددت يا لوسي تعليم طالباتي شعور التعرض للأسر والاستعباد. أردت ألا يتمكنَّ، عند مغادرتهن الصف، من التفكير بالمستعبدات كنسوةٍ مغريات، مثيرات للغريزة، مسلوخات عن أنفسهن، يستحققن الاستبعاد. أردت تمكينهن من نبذ كافة التصورات العرقية النمطية حيال النساء اللواتي تعرضن للاستبعاد: كأن يكنّ راضيات، أو «اخترن» استرقاقهن بشكل من الأشكال، وأنهن لم يقاومن.

وهكذا خضنا فصلاً كاملاً، قامت خلال كل أسبوع منه إحدى الطالبات بتخيل نفسها «عبدة»، أو مخدومة أو مخدوماً، للوصول إلى فهم معنى ذلك من حيث الخيال والشعور.

واجهت بعض النسوة السود صعوبة بالغة في الكتابة بلسان نسوة

أسيرات مستعبدات. (أنأى غالباً عن استخدام كلمة «عبيد»، فأنا أنظر إلى العبودية من وجهة نظر المستعبَد: هنالك فرقٌ شاسع بين أن يكون الإنسان عبداً، وأن يكون مستعبَداً). هؤلاء اخترن الكتابة بلسان المخدومة أو المخدوم. وجدت بعض النسوة البيض أنه من شبه الاستحالة عليهن الكتابة بلسان المخدوم أو الخادم، وأنه من العجرفة أن يكتبن بلسان المستعبدات. ورغم ذلك، تمت يا لوسي كتابة العديد من القصص الجيدة، رغم الكثير من شدّ الشعر وصرير الأسنان.

كتبت النسوة السود والبيض ومختلطات العرق عن الأسر، والاغتصاب، والتكاثر القسري لملء حظائر عبيد المخدوم. كتبن عن محاولات الهروب، وبيع أطفالهن، وأحلامهن عن إفريقيا، ومحاولات الانتحار. ما من أحدٍ كتب عن الرضوخ أو السعادة، رغم أن واحدة أو اثنتين ممن أدركن الروح الدينية التي غالباً ما شابت القصص المدروسة، وصفن النشوة الروحانية والبهجة.

وهل من أحد يرغب أن يكون عبداً؟ تساءلنا وفكرنا ملياً.

نفينا ذلك كصفٍّ بأكمله.

وعليه، تخيلي حجم دهشتنا عندما شاهدت الكثيرات منا برنامجاً تلفزيونياً خاصاً عن السادية-المازوخية، تم بثّه في الليلة السابقة لنهاية صفنا، والثنائي الوحيد مختلط الأعراق فيه، سحاقيتان، لعبتا دورَي مخدومة وعبدة. كانت المرأة البيضاء التي استأثرت بالحديث لنفسها، هي المخدومة (ترتدي خاتماً على شكل مفتاح قالت إنه للقفل على السلسلة المحيطة بعنق المرأة السوداء)، وكانت المرأة السوداء التي وقفت صامتة مبتسمة – حسب وصف المرأة البيضاء – هي العبدة عندها.

ولهذا السبب يا لوسي، ورغم صداقتنا البالغ عمرها عقداً وأكثر، صددتك في الحفلة.

تلك الصورة بمفردها، هدّمت كل ما قمت بتعليمه، فاغتظت لتفكيري بما خاضته طالباتي من صراعٍ مضنٍ لتخليص أنفسهن من الصورة النمطية،

لمحاربة التعصب، لوضع أنفسهن في موقع النساء المستعبَدات، ليشاهدن لاحقاً أن الصراع الذي عشنه يتعرض للسخرية، والتقليل من أهمية حالة الاستعباد الحقيقية التي عاشتها فعلياً الملايين من أمهاتنا - لأن اثنتين من الجاهلات أصرّتا على حقّهما في التمثيل العلني لـ«خيال» ما زال يبعث الرعب في قلوب النساء السود. ويتسبب بالحرج والاشمئزاز، على الأقل في قلوب غالبية النسوة البيض في صفّي.

طالبةٌ واحدة بيضاء، يظهر أنها مقرَّبة من مجموعتنا المحلّية من السحاقيات (S&M)، قالت إنه في نظرها، ما من خطأ فيما شاهدناه على التلفاز. (للصدفة؛ تضمن البرنامج عدة رجال بيض يمتلكون «عبيداً» من النساء البيض، حتى أنهم زعموا حيازتهم لوثائق قانونية لهذا الغرض. وبالفعل، استعرض رجلٌ منهم عبدته في أنحاء البلدة وبين أسنانها لجامُ حصان، واعتاد «إعارتها» لغيره من الساديين-المازوخيين لجَلْدها بالسياط). وصفت هذا كله بالخيال الجامح. لا ضرر منه. ففي نهاية المطاف، انقضى زمن العبودية، العبودية الحقيقية.

لكنه يا لوسي لم ينقضِ، وكتاب كاثلين باري عن العبودية الجنسية الأنثوية وكتاب ليندا لوفلايس عن *كونها* عبدة من هذا النوع، ليسا المؤشرين الحديثين الوحيدين على صحة ذلك. في العالم يا لوسي أماكن ما زال فيها البشر قيد البيع والشراء! وهكذا، ولهذا السبب، كل ما تبادر إلى ذهني عند رؤيتك في الحفلة أن ثيابك مهينة. كلا، ليس هذا ما تبادر إلى ذهني وحسب: فعند رؤيتكِ ترتدين ثياباً على هيئة سكارليت، عجزت عن رؤيتكِ. لم *أجرؤ* على رؤيتك. وستكونين على صواب في اتهامك لي بالنظر إليك كأنك غير موجودة. لأنني لو رأيتك يا لوسي، أثق تماماً بأنني كنت سأضربك، ونظراً لعشقك للشجار لكان هذا سيعني نهاية حفلتنا بالتأكيد. ولهذا كان *عدم* رؤيتك حلاً أفضل، والنظر بدلاً من ذلك إلى المرأة التي وقفت بجوارك عاقصة شعرها تقليداً لكوليت.

قالت طالبة سوداء للمتعاطفة مع مجموعة (S&M): أشعر بالإساءة.

أشعر أن خصوصية المرأة السوداء تعرضت للانتهاك. جميع من شاهدوا البرنامج التلفزيوني بات بوسعهم الآن مشاهدتي واقفة على الناصية بانتظار الحافلة ولكنهم لن يروني البتّة، بل سيرون بدلاً مني عبدة، مخلوقة *ترتدي* سلسلة وقفلاً حول عنقها لأجل شخص أبيض - في عام 1980 - وستقبل بذلك. *وتستمتع* به.

اختلج صوتها بالغضب والأذية.

وهكذا يا لوسي، سنعود أصدقاءَ مجدداً لأنني سأقنعك بالعدول عن الاهتمام بالبطلات اللواتي يأتي المصدر الحقيقي لقوتهن، إضافة إلى نمطهن الأدبي وحالة أجسادهن، من الناس الذين يضطهدونهن. وماذا عن المستقبل إذاً؟ ماذا عن النسوة اللواتي سيرفضن التوافق بسبب ما شاهدنه في العلاقة الرابطة بين «المخدومة»، و«العبدة»، على التلفاز؟ كثيرات من النسوة السود يخشين أن النساء البيض يُرِدْنَهن عبدات، ولا شك أن العديد من النسوة البيض يفكّرن أنَّ قدراً معيناً من استرقاق النسوة السود حقٌّ مشروع لهن.

لكن يا لوسي، بصرف النظر عن «العبدة»، على التلفاز، النساء السود يرفضن العبودية. أبداً لم يُرِدْنَ أنْ يكنّ عبيداً. سنبقى دائماً أنفسنا وأحراراً، أو سنموت في سبيل ذلك. لم تكن هارييت توبمان جدتنا الكبرى من دون سبب؛ وهذا ما أنصح جميع النسوة السود والبيض اللواتي يضهدننا، مثل «مخدومة» و«عبدة»، بتذكره. ندرك عند وجود محاولة لاقتيادنا إلى الأسر، رغم أن التلفاز أكثر رأفة بكثير من سفن العبيد، فإننا سنقاومها ببساطة كما فعلنا دائماً، وبأسلحة دفاعية أدقّ من قبل بكثير.

في واقع الأمر يا لوسي، يخطر لي أننا قد ننظم حفلة أخرى في فصل الرَبيع لمصلحة هذه المقاومة الجديدة. ما رأيكِ؟ لنلتقي خلال الأسبوع لمناقشة ذلك.

صديقتك،

سوزان ماري

رحلة مفاجئة إلى البيت في الربيع

إلى صفّ ويلزلي

مشت سارة ببطء خارجة من ملعب التنس، تتحسَّس بأصابعها مؤخرة رأسها والشعر الداكن الخشن الذي نبت هناك. كانت تحظى بالشعبية. وبينما سارت على طول الدرب نحو مبنى «تالفينغر هول»، تحلقت صديقاتها حولها وشكّلن معاً مجموعة متزاحمة من ست فتيات. ولأن سارة كانت أطول من البقية، تسنت لها رؤية الساعي أولاً.

«الآنسة ديفيس»، قال بينما وقف في مكانه حتى وصلت المجموعة بالقرب منه، «أحمل برقية لك». كان برايان إيرلندياً ومهذباً على الدوام. وقف وقبعته في يده حتى أخذت سارة البرقية، ثم أومأ إيماءةً وجَّهَها لجميع الشابات قبل استدارته مبتعداً. كان شاباً حسن المظهر، لكنه خنوعٌ إلى حد مزعج، وزقزقت صديقات سارة.

«حسناً، افتحيها»، صرخت إحداهن، إذ وقفت سارة تحدق في المظروف الأصفر وتقلّبه مراراً وتكراراً في يدها.

«انظرن إليها»، قالت إحداهن، «أليست جميلة! يا لعينيها، يا لشعرها وبشرتها».

قامة سارة طويلة، وشعرها الشبيه بالقبعة يؤطر وجهاً بنياً ناعم القسمات، ووجنتين بارزتين وعينين واسعتين داكنتين. خلبت عيناها ألباب صديقاتها لأنهما بدتا دائماً كأنهما تعرفان وتجدان في الحياة ما هو مسلٍّ أو محزنٌ أكثر مما رغبت ساره بقوله.

غالباً ما ناكدت الصديقات سارة بشأن جمالها؛ وأحببن جرّها من غرفتها لكي يراها عشاقهن الشباب بمن فيهم السذّج والمحنكين من جامعتي «برينستون» و«يال». لم يخمّنوا مطلقاً أنها رأت في ذلك تصرّفاً بغيضاً. كانت رقيقة مع صديقاتها، وأخفت عنهن حنقها تجاه قلة لباقتهن. وفي معظم الأحيان، كانت ميّالة إلى الشفقة عليهن، رغم أن شعورها بالإحراج قادها أحياناً إلى تعابير مخاتلة. تبتسم الآن وترفع عينيها وذراعيها إلى السماء. وقد سلّمت بفضولهن غير الضروري كما الأم تتحمل نفاد صبر طفلها الفضولي. رمقتها صديقاتها بنظرات المحبة والحسد وهي تفتح البرقية.

قالت: «لقد مات».

خطفت صديقاتها البرقية وأعينهن على سارة.

«إنه والدها»، قالت إحداهن بصوت ناعم. «لقد فارق الحياة بالأمس. أوه، سارة». قالت الفتاة متنهدة: «أنا في غاية الأسف».

«أنا أيضاً». «وأنا كذلك». «هل من شيء يمكننا فعله؟».

لكن سارة كانت قد مضت مبتعدة، مرفوعة الرأس وبعنق مشدود.

«يا لحسنها ورشاقتها». قالت إحدى صديقاتها.

«تشبه غزالاً مزهواً بنفسه»، قالت أخرى. ثم رجعن سوياً إلى مهاجعهن للاستعداد لوجبة العشاء.

كان مبنى «تالفينغر هول»، مسكناً بهيجاً. تم فيه تحويل الغرفة المشتركة قبالة المدخل إلى معرض صغير للفنون وفيه مجموعة عالية الجودة من اللوحات الأصلية والمنقوشات الحجرية وتشكيلات الكولاج. كانت التحف تتعرض للسرقة بشكل متكرر، فقد عجزت بعض الفتيات عن مقاومة عمل أصلي للفنان شاغال، بتوقيعه الشخصي (على الصحن)، رغم قدرتهن على شراء مثله من المعرض في البلدة. كانت غرفة سارة ديفيس مجاورة للمعرض، لكن جدرانها كانت مزينة

بنسخٍ عن رسومات غوغان، ونسخة عن لوحة للفنان روبنز («رأس زنجيٍ»)، وأخرى للوحة من رسم موديلياني، ونسخة عن لوحة للفنان بيكاسو. احتلت رسوماتها الخاصة جداراً كاملاً، جميعها لنسوة من السود. فقد وجدت أن رسم الرجال السود مستحيل، ولم يكن بوسعها تحمل نقل الهزيمة إلى الصفحات البيضاء. شخصياتها النسائية كانت رزينة، بأذرع ضخمة، ويظهر في أعينهن انتصار مرهق. يتوسط لوحاتها ملصق أحمر من ملصقات «اللجنة التنسيقية الطلابية ضد العنف»، يظهر فيه رجل يحمل فتاة صغيرة تدسّ رأسها في كتفه. وغالباً ما رأت سارة نفسها في الفتاة الصغيرة التي يخفى وجهها عن الجميع.

زرعت مغادرة «تالفينغر»، ولو لبضعة أيام، الخوف في قلب سارة. فهو الآن بيتها الذي يناسبها أكثر من أي بيت عرفته في حياتها. لعلها أحبَّته لوجود موقدٍ يفوح برائحة الحطب في فصل الشتاء، والثلج المتساقط خارج نافذتها. ألم تحلم طوال حياتها بموقدٍ يبعث الدفء بالفعل، والثلج المتجمّد بجمال ينشر السرور؟ بدت جورجيا بعيدة بالنسبة لها بينما وضبت أغراضها، أنِفَت الذهاب إلى نيويورك حيث، كما راق لجدها أن يقول: «يتسكع الشيطان ويعلّق الفتيات الصغيرات من مقدمة فساتينهن». لطالما رأى في الجنوب أفضل مكان للمعيشة على وجه الأرض (بصرف النظر عن بعض الناس الذين شوّهوا المنظر باستمرار)، وأقسم أنه يتوقع موته على مسافة تقلّ عن بضعة أميال عن مكان ولادته. كان متشبثاً حتى بالبيت ذي الإطار الرمادي الذي قطنه، والحيوانات الهزيلة التي تكاثرت بانتظام في مزرعته. وكان أول إنسان ترغب سارة برؤيته عند وصولها.

بعد طرقة على باب الحمام المجاور، دخلت زميلة سارة في الجناح، وتناهت خلفها أصوات مرتفعة لكونشيرتو لباخ. بداية، أقحمت رأسها فقط من باب الغرفة، لكنها دخلت متثاقلة لدى رؤية سارة بكامل ملابسها، وارتمت على السرير. كانت فتاة شقراء بدينة

بساقين ضخمتين بيضاوين كالحليب. كانت عيناها صغيرتين وعنقها رماديّ اللون بسبب الأوساخ.

قالت: «يا إلهي، ألست تبدين فاتنة».

«أوه، يا بام»، قالت سارة، ملوّحة بيدها باشمئزاز. عرفت أنها في جورجيا، ستكون حتى في نظر بام مجرد فتاة *ملونة* جذابة على نحو مألوف. ففي جورجيا مليون فتاة أجمل منها. تجهل بام ذلك بالطبع، إذ لم تسبق لها زيارتها في حياتها، ولا حتى رأت، قبل لقائها سارة، في حياتها شخصاً أسود تتحدث إليه. ومن أولى ملاحظاتها الشعرية عن سارة أنها كانت «زهرة من شقائق النعمان في حقل من ورود الشتاء». استغربت أن سارة لا تمتلك أكثر من معطف واحد.

«اسمعي سارة»، قالت بام، «سمعت بوفاة والدك. أنا آسفة. آسفة جداً».

«أشكرك»، قالت سارة.

«هل من شيء يمكننا فعله؟ حسناً، فكرت ربما بوسع والدي إرسال أحدهم ليأخذك جواً. كان سيذهب بنفسه لكنه سيصطحب والدتي إلى ماديريا هذا الأسبوع. لا تشغلي بالك بالقطارات وغيرها».

كان والد باميلا واحداً من أغنى الأغنياء على مستوى العالم، لكن أحداً لم يذكر ذلك. فقط بام أشارت إلى ذلك في أوقات المحن، عندما يمكن لصديقة ما أن تستفيد من استخدام طائرة خاصة أو قطار أو سفينة، أو إذا رغب أحدهم بدراسة خصائص قرية معزولة بالكامل، أو جزيرة أو جبل، فإنها تعرض شيئاً من ممتلكات والدها. عجزت سارة عن فهم هذا الثراء، ولطالما أزعجها عدم ظهور بام بمظهر ابنة مليونير. «ابنة مليونير»، فكَّرت سارة، «بوسعها حقاً أن تكون أقل شبهاً بمربّي الخيول وأن تفرّش أسنانها أكثر».

«أتودّين إخباري ما الذي يشغل بالك؟»، سألت بام.

وقفت سارة أمام جهاز التدفئة، تستند بأصابعها على حافة النافذة. في الأسفل، كانت الفتيات يصعدن التلة بعد تناول طعام العشاء.

«أفكّر»، قالت سارة، «بواجب الطفل تجاه والديه بعد مفارقتهما الحياة».

«هذا كل شيء؟».

«أتعرفين»، سألت سارة، «ريتشارد رايت ووالده؟».

تجهَّمت بام. نظرت سارة إليها.

«أوه، لقد نسيت»، قالت متنهدة، «لا يدرسون مؤلفات رايت هنا. أرقى مدرسة في الولايات المتحدة، وتتخرج الفتيات منها جاهلات». نظرت إلى ساعتها، أدركت أن أمامها عشرين دقيقة قبل موعد القطار. «حقاً»، قالت بصوت غير مسموع تقريباً، «لماذا ندرس تيرز إليوت؛ إزراتيك باوند؛ وحتى سارا تيكيك، ولا ندرس رايت؟»، كلاهما تعتقدان أن إي. إي. كامينجز ذكي للغاية بطريقة لفظه المتبصرة للأسماء الأدبية العظيمة.

«أهو شاعرٌ إذاً؟»، سألت بام. كانت عاشقة للشعر، بمختلف أنواعه. بالطبع، لم تقرأ نصف الشعر الأمريكي، لسبب بسيط أنها لم تسمع به مطلقاً.

«كلا»، قالت سارة، «لم يكن شاعراً»، انتابها القلق. «كان كاتباً، رجلاً تجمعه بوالده علاقة مضطربة». بدأت تذرع الغرفة، ووصلت لتقف تحت صورة الرجل المسن والفتاة الصغيرة.

تابعت: «عندما كان صغيراً. هرب والده برفقة امرأة أخرى، وعندما ذهب ريتشارد ووالدته ذات يوم طالبين منه المال لشراء الطعام، طردهم ضاحكاً. ونظراً لسنه الصغيرة، رأى ريتشارد في والده إلهاً. ضخماً، جبّاراً، لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، ولا الاعتماد عليه، وقاسياً. يتحكم بكونه بالكامل. تماماً مثل الإله. وبعد عدة أعوام، حين أصبح ريتشارد كاتباً مشهوراً، ذهب إلى ميسيسبي لزيارة والده. ووجد بدلاً من الإله، مجرد عامل حقل عجوزاً دامع العينين، حاني الظهر بسبب الحراثة، سقطت أسنانه، تفوح منه رائحة الروث. أدرك ريتشارد أن أكثر الأفعال التي أتاها «إلهه» جرأةً، كان هروبه برفقة المرأة الأخرى».

«حسناً؟»، سألت بام، «ما «الواجب»، الذي شعر بنفسه ملزماً به تجاه الرجل العجوز؟».

«حسناً»، قالت سارة، «هذا ما تساءل عنه رايت بينما رمق ذلك الوجه الزنجي العجوز صاحب العينين الماكرتين في ميسيسبي. ما واجب الابن تجاه رجل محطم؟ ابن الرجل الذي عجز بصره عن تجاوز أطراف حقولٍ ليست ملكه. من يكون رايت من دون والده؟ أكان الكاتب العظيم رايت؟ رايت الشيوعي؟ المزارع الفرنسي رايت؟ رايت الذي ما كان بوسع زوجته البيضاء مرافقته مطلقاً إلى ميسيسبي؟ أم أنه ما زال بالفعل ابن أبيه؟ أم أن هجرانه له حرره ليصبح ابن لا أحد، ليكون والد نفسه؟ هل يمكنه التبرؤ من والده ومواصلة حياته؟ وإن فعل، سيحيى بصفته ماذا؟ بصفته مَن؟ ولأيّ غرض؟».

«حسناً»، قالت بام بينما رفعت شعرها فوق كتفيها وضيّقت عينيها الصغيرتين، «طالما أن والده نبذه لا أرى سبباً يدفع رايت أساساً إلى تكليف نفسه عناء الذهاب لرؤيته مجدداً. وحسب كلامك، حظي رايت بالحرية ليكون من يشاء. فوجود الأب ليس مسألة جوهرية بالنسبة لرجلٍ قوي».

«ربما لا»، قالت سارة، «لكن والد رايت كان باباً واحداً تالفاً في بيت يضم العديد من الغرف القديمة. أيصحّ لذلك الباب التالف الوحيد أن يعزله عن بقية أنحاء المنزل؟ ذلك هو السؤال. ورغم إجابته البليغة على هذا السؤال في أعماله، في الموقع الذي تطلب ذلك، يمكن للمرء أن يتساءل ما إذا كان قد وجد الجواب المرضي عليه - أو وجده أساساً - في حياته».

«تنظرين إلى والده نظرةً أقرب إلى رمزٍ لشيء ما، أليس كذلك؟»، سألت بام.

«أظن ذلك»، قالت سارة بينما ألقت نظرة أخيرة على الغرفة من حولها، «أرى فيه باباً أبى أن ينفتح، يداً مقبوضة على الدوام. قبضة».

رافقتها باميلا إلى سيارة ليموزين تملكها إحدى الزميلات، وبلغت

المحطة في غضون بضع دقائق. كان القطار القادم إلى المدينة قد وصل للتو.

«رحلة موفقة»، قال السائق الذي كان في أواسط العمر بلباقة، بينما تناولت حقيبتها منه. لكنه وللمرة الألف التي تراه فيها تقريباً، غمزها.

لم تفتقد صديقاتها بمجرد ابتعادها عنهن، فما من شيء مشترك بينهن إلا المدرسة. تساءلت كيف لهنّ معرفتها في الأصل إن كانت معرفة رايت محظورة عليهن. كانت مثيرة للاهتمام، «جميلة» فقط بسبب جهلهن لتكوينها، ساحرة فقط بسبب جهلهن لمنبتها. أما عن منبتهن، رغم أنها لمحت ذلك – في نفوسهن وفي إف. سكوت فيتزجيرالد – فهذا مكانٌ لن تدخله أبداً. فما من ميول لديها لفعل ذلك، ولا هي تحمل التذكرة المناسبة.

-2-

سُجّي جثمان والد سارة في غرفتها القديمة. وقد أزيل السرير لإفساح المجال للزهور والكراسي والتابوت. أمعنت سارة النظر مطولاً في الوجه، كأنها تبحث عن إجابات مكتوبة عليه لأسئلتها. كان الوجه ذاته الذي عهدته، رأس شكسبيريّ داكن يؤطِّرُه شعر رمادي شبيه بالصوف ويقسمه إلى نصفين شبه متساويين شاربٌ رمادي قصير. كان وجهاً مطبق الصمت، وجهاً مصمتاً مبهماً. لكن وجه والدها بدا سميناً أيضاً، مكتنزاً، على وشك الانفجار. ألبسوه بذلة باللون الأزرق البحري، وقميصاً أبيض وربطة عنق سوداء. انحنت سارت وأرخت ربطة العنق. بدأت الدموع بالانهمار خلف لوحي كتفيها، لكنها لم تبلغ عينيها.

«هناك جرذٌ تحت التابوت»، نادت شقيقها الذي لم يسمعها في الظاهر، إذ لم يأت إلى الغرفة. بقيت مع والدها بمفردها، الأمر الذي نادراً ما حدث عندما كان على قيد الحياة، إذ كانت تتجنبه على الدوام.

«أين هي تلك الفتاة؟»، كان والدها يسأل. ويجيب نفسه: «حبست نفسها في غرفتها مجدداً».

فوالدة سارة فارقت الحياة أثناء نومها ذات ليلة. كانت قد خلدت للنوم متعبة ولم تستيقظ بعدها. وأنحت سارة باللوم على والدها في ذلك.

جمّدي الجرذ بنظراتك المحدّقة، فكّرت سارة، لا بدّ أن هذا سينفع. *لعلّه من غير المهم سواء أسأت الفهم أو عجزت كلياً عن الفهم.*

«تنقلنا كثيراً بحثاً عن الغلال، عن مكان نعيش فيه»، كان والدها يندب أمها، يرافقه صمت سارة المطبق. «قتلتها كثرة التنقلات. وها نحن اليوم نمتلك منزلاً حقيقياً فيه أربع غرف، وصندوق بريد على الشرفة، لكن الأوان قد فات. لكنها رحلت. لم تعد موجودة لترى ذلك». كان والدها يمتنع نهائياً عن الأكل في الأيام العصيبة، وعن النوم ليلاً.

ما الذي عساه دفعها لأن تعتقد أنها تعرف الحب من عدمه؟

ها هي الآن، سارة ديفيس، غارقة في فلسفة كامو، متمكنة من لغات عدة وأشياء كثيرة، كما شقائق النعمان وسط ورود الشتاء. لكنها قبل أن تصبح زهرة من شقائق النعمان، كانت زهرة عباد شمسٍ موطنها جورجيا، لكنها لم تتحدث اللغة التي عرفاها كلاهما. ليس معه.

جمّدي الجرذ بنظراتك المحدّقة، هكذا فكّرت، وهذا ما حدث. فقد أخفض الوغد عينيه الوقحتين وانسلّ مبتعداً. شعرت سارة أنها حقَّقت شيئاً، على الأقل.

ما الذي جعلها ترى صورة والدتها، تلك الصورة على رفّ الموقد وسط جميع التمائم الدينية، تعود إلى الحياة؟ وقفت والدتها صامدة في وجه السنين، تشع من قمة رأسها ضفائر رمادية صافية، عيناها تقدحان قوة وحماية. تتحدّث إلى والدها.

«ناداك باسمك، سنرحل عن هذا المكان، اليوم وليس غداً. سيكون ذلك متأخّراً. اليوم!». رائعة كانت والدتها في قراراتها السريعة.

«ومـاذا عن حديقتك، الأطفال، وتغيير المدارس؟»، في هذه اللحظات، والدها على الأرجح يمسك بطرف قبعته العريض ويدوّرها بأصابعه العصبية.

«ناداك باسمك، سنرحل!».

ويرحلان. ومن له أن يعرف إلى أين بالضبط قبل انتقالهما؟ مكان آخر لا صوت فيه، جدرانه متداعية، سقفه منهار؛ وجه آخر. تُدخل على قلبه المسرة من دون أن تترك لوالدها الكثير من كبريائه عند قدميه. ولكن بالنسبة لسارة حينها، مهما كانت حركة والدها رشيقة، بقيت جرجرة القدمين ظاهرة للعيان.

قتلتها كثرة التنقلات، قال والدها، *لكن الانتقال كان حبّاً أيضاً*.

أيهّم الآن عدد المرات التي هدد فيها حياتهم نتيجة لفورات إحباطه؟ تلك المرة، صفع الطفل الباكي على مؤخرته بعنف، ذاك الذي مات لاحقاً نتيجة أسبابٍ مجتمِعة... وأنهما انتقلا في اليوم التالي؟

«كلا»، قالت سارة بصوت مرتفع، «لا أظن ذلك مهماً».

«ماذا؟»، كان ذلك شقيقها، طويلاً، نحيلاً، أسود، يصطنع رباطة الجأش. عندما كان طفلاً، كانت طباعه عصية على الكبح. وأصبح رجلاً ناضجاً سلساً بطباع يشوبها التوتر، كنهر قد يفيض عن سريره في أية لحظة.

اختار تابوتاً رمادياً باهتاً. كانت سارة تتمنى اللون الأحمر. أكان ذلك ديلان توماس من قال عبارة جليلة عن أن الميت يقدّم «مجابهة عميقة، مظلمة»؟ هذا ليس مهماً؛ هناك سبل أكثر للتعبير عن المجابهة من تابوت أحمر.

«فكّرتُ وحسب»، قالت سارة، «أنّ أمي وأبي كانا يقولان لنا «لا» بأحرف كبيرة».

«لست أفهمك»، قال شقيقها. لطالما كان العنصر الناشط في الأسرة. ووجَّه ببساطة حنقه الهادئ ضد أي عائق قد يعترضه، واعتاد انتظار

العواقب بالسكينة ذاتها التي انتظر بها جواب شقيقته. فالاختلاطات الفلسفية والملاحظات الشعرية التي تعلّقت بها لم تكن من طباعه.

«هذا لأنك واعظ متشدّد»، قالت سارة مبتسمةً في وجهه، «توصل رسائلك بشخصك وجسدك». شاقها أن شقيقها نجح أخيراً في إشباع مواعظ يوم الأحد التي تلقياها في طفولتهما بحقيقة الكفاح في سبيل التغيير. وأحزنها أنها مهما نظرت إلى الموضوع، فإنه يبدو لها أكثر أهمية مِن «فن القرون الوسطى، المنهاج 201».

-3-

«أجل يا جدتي»، أجابت سارة. «مدرسة كريسلتون للفتيات فقط، وكلّا يا جدتي، لست بحامل».

وقفت جدَّتُها متشبّثة بالقبضة الخشبية العريضة لحقيبتها السوداء التي تحملها، وثنت مرفقيها أمام معدتها. تلألأت عيناها عبر نظارتها الدائرية بإطارها الرفيع. بصقت في العشب خارج المرحاض الخارجي. أصرت على سارة أن ترافقها إلى المرحاض بينما نُقل الجثمان إلى الكنيسة. اتكأت بثقل على ذراع سارة، ذراعها نحيلة ولحمها مثل القماش الرقيق.

«أعتقد أنهم يعلمونك كيفية التعامل مع العالم بحق»، قالت، «ومن يعلم، فالرب موجود في كلِ مكان. أرغب بشدة برؤية طفل حفيدتي. ليس عليك الزواج خصيصاً لهذا السبب، كما تعلمين. ولهذا شعرت بالحرية لأطرح السؤال». دسّت يدها في حقيبتها وأخرجت زجاجة «ثلاث ستات»، رفعتها لفمها وشربت منها رشفات كبيرة خفيفة ورأسها إلى الخلف.

«قِلّةٌ هم الشباب السود بالقرب من كريسلتون»، أوضحت سارة، تراقب شراب الذرة خارجاً من الزجاجة بدفقات وفقاقيع. «ثم إنني مشغولة حتى الآن بالرسم والنحت». أينبغي بها أن تذكر مدى إعجابها

بأعمال جياكوميتي؟ قررت أنْ لا. حتى لو كانت جدتها قد سمعت به، وسارة على يقين أنها لم تسمع، ستعتقد بالتأكيد أن تماثيله في غاية النحافة. رسم هذا ابتسامة على شفتي سارة وتذكرت مدى صعوبة إقناع جدتها أنها كانت ستتدبر طريقة للالتحاق بمدرسة كريسلتون حتى لو أن المدرسة لم تقدم لها تلك المنحة الدراسية التي حصلت عليها. لماذا؟ لأنها رغبت بمن يعلّمها الرسم والنحت، وكريسلتون فيها أفضل المعلمين. وفي رأي جدتها، الحفيدة الناجحة حفيدة متزوجة، وحامل خلال العام الأول.

«حسناً»، قالت جدتها، بينما أعادت الزجاجة بإجلال إلى حقيبتها، محدقة بتضرع إلى وجه سارة، «سأسعد كثيراً بطفل حفيدتي». وبرؤيتها لابتسامة جدتها، تنهدت تنهيدة كبيرة، وبمشية شبه متغطرسة فوق الأحجار والعشب، شقّت طريقها إلى أدراج الكنيسة.

بينما مشيا بين مقاعد الكنيسة، استقرت عينا سارة على مؤخرة رأس جدها. كان جالساً على المقعد الأمامي في الوسط أمام التابوت، شعره مسرف في الطول والبياض بتجاعيد خفيفة. عندما جلست بجواره، وجلست جدتها بجواره على الجهة الأخرى، استدار نحوها وأخذ يدها برفق في يده. وضعت سارة خدّها لبرهة على كتفه وشعرت أنها عادت طفلة من جديد.

-4-

ابتعدوا مقدار عشرين ميلاً عن البلدة، على طريق ترابيّ، وكانت شمس الربيع الحارة قد استجرّت عبقاً غنياً متواصلاً من عروق نباتات العسلة على طول الطريق. كانت الكنيسة شبحاً عارياً، أبلاه الطقس، لبناءٍ بنوافذَ جوفاء وبابٍ متأرجح. أحرقها بالكامل العنصريون مفتعلو الحرائق ذات مرة، وأشعلوا خشب جدرانها الجافّ باللّهيب المنبعث

من الصلبان التي حملوها. ما زالت شجرة البلوط الطويلة الضخمة التي اعتادت سارة اللعب تحتها تخيّم على فناء الكنيسة، وتمدّ فروعها واسعة من سقف الكنيسة إلى الجانب الآخر من الطريق.

وحدَها سارة وَجدُّها لم يبكيا أثناء التأبين الوجيز وقد طغى عليه التبجيل، أنزلوا تابوت والدها إلى عربة الموتى المنتظرة ونقلوه مسافة قصيرة إلى المقبرة، وسط البرّية الشاسعة التي اتّضح أن حجارتها البيضاء الصلبة عبارة عن آثارٍ لحضارة قديمة. هناك راقبت سارة جدّها بطرف عينها، ولم يبدُ مثقلاً بالحزن على دفن أحد أبنائه. كان ظهره مستقيماً. عيناه جافتان وصافيتان. بدا ببساطة وفرادة شخصيّةً بطولية؛ رجلاً احتفظ بفخرٍ وثقة أسرته وحزنه الخاص. فكّرت سارة: *غريبٌ أنني لم أفكر مطلقاً برسمه بهذه الصورة، تماماً كوقفته الحالية؛ من دون بشر مجهولين لا معنى لهم يحومون في خلفية صورته؛ وجهه متألق بالكبرياء يتبدى بنياً تحت الضوء. كانت الهزيمة غائبة كلياً عن وجه جدها، تلك الهزيمة* التي أخافتها في وجوه الرجال السود جَرَّاء هزيمتهم الأبدية على يد الأبيض. فقد وقف كالصخرة، برباطة جأش ظاهرة، مصدراً للراحة والدعم لأسرة ديفيس. وحدها الأسرة تحدد معالم شخصيته، ولم يكن مطلقاً بصدد خذلانها.

«سأرسمك يوماً ما يا جدي»، قالت سارة أثناء التفافهم للرحيل. «تماماً كوقفتك هنا، بالمقدار...»، اقتربتْ ولمستْ وجهه بيدها؛ «بالمقدار الصحيح من التوتُّر العنيد في وجنتك. فقط تلك النظرة التي تعني القبول أو الرفض في عينيك».

«ولِمَ سترغبين برسم رجلٍ عجوزٍ مثلي»، قال ونظر في عينيها نظرةً عميقة من المكان الذي شرد ذهنه فيه. «إن كنت ترغبين بتصويري، صوِّريني تمثالاً من حجر».

كان القبر المكتمل مكتنزاً وأحمر اللون. وأكاليل الزهور مرتَّبة كلها على جهة واحدة بطريقة تظهر كتلة كبيرة فقط من الأزهار على الطريق.

لكن الرياح كانت سلفاً قد بدأت بشدّ بتلات الزهور والمطر يلقي بضربات خفيفة من اللون الباهت على الإطارات الرغوية الخضراء. في غضون أسبوع، ستعود عروق العسلة المشتتة، والورود البرية، وأغصان العنب والعشب. كأن شيئاً لم يكن.

-5-

«ماذا تقصدين بالعودة إلى المنزل؟»، بدا السرور الصادق على شقيقها. «جميعنا فخورون بك. كم من فتاة سوداء في تلك المدرسة؟ أنت فقط؟ حسناً، فتاة أخرى غيرك فقط، ومن الشمال. ليس هذا بالقليل!».

«يسعدني أنك مسرور»، قالت سارة.

«مسرور! هذا ما كانت ماما سترغب به، تعليم جيد لابنتها الصغيرة سارة؛ وما كان بابا سيرغب به أيضاً، إن كان له أن يرغب بأي شيء بعد وفاة ماما. لطالما كنت ذكية. علمتني عندما كنت في الثانية من عمرك وأنا في الخامسة كيفية أكل البوظة من دون انسكابها فوقي. قلت لي أولاً، عضّ أسفل المخروط بأسنانك، وقم بامتصاص البوظة إلى الأسفل. لم أعرف مطلقاً كيف لي أكل ذلك الشيء بمجرد بدئه بالذوبان».

«لا أعلم»، قالت، «بوسعك أحياناً أن ترغب بشيء رغبة قوية، فقط لتكتشف لاحقاً أنه ليس بالفعل ما كنت تحتاجه على الإطلاق».

هزّت سارة رأسها، وبدأت تقطيبة بالتشكُّل بين عينيها. «أمضي أحياناً أسابيع»، قالت، «في محاولة تخطيط أو رسم وجه يختلف عن كلّ الوجوه المحيطة بي، باستثناء وجه واحد، وعلى نحو غامض. كيف لي ألّا أتساءل إن كنت في المكان الصحيح؟».

ابتسم شقيقها؛ «أتقصدين إخباري أنك تستغرقين أسابيع في محاولة رسم وجه واحد، وما زلت تتساءلين إن كنت في المكان الصحيح؟ حتماً تمزحين!». ربّت تحت ذقنها وضحك عالياً. «تتعلمين كيفية رسم الوجه»،

قال، «ثم ستتعلمين طريقة رسمي وكيفية نحت تمثال حجري لجدّي. ثم ستعودين إلى البيت أو تذهبين للعيش في باريس، فرنسا. كلاهما سِيّان».

دفعتها تلك البهجة الخالية من المواعظ التي شابت مشاعره إلى البكاء. اتَّكأت بسلام على ذراعي شقيقها. تساءلت عما إذا كان لريتشارد رايت شقيق.

«أنت الباب الذي يأخذني إلى جميع الغرف»، قالت، «لا تنغلق أبداً».

وقال: «لن أفعل»، كأنه فهم مقصدها.

-6-

«متى سنراك مجدداً أيتها الشابة؟»، سألها لاحقاً وهو يوصلها بالسيارة إلى موقف الحافلة.

«سأتسلل ذات يوم وأفاجئك». قالت.

عند موقف الحافلة، أمام محطة خدمة صغيرة، عانقت سارة شقيقها بكل ما أوتيت من قوة. توقف مراقب المحطة الأبيض عن عمله لينظر إليهما شزراً، عيناه وقحتان ولا مباليتان.

«أسبق وفكرت»، قالت سارة، «إننا كهول في مكان يافع جداً؟».

تابعت سارة شقيقها من نافذة الحافلة؛ لم تفارق عيناها وجهه حتى غابت المحطّة الصغيرة عن نظرها وترنّحت حافلة «جراي هاوند»، الضخمة على طريقها باتجاه أتلانتا. ومن هناك ستسافر جواً إلى نيويورك.

-7-

استقلّت القطار إلى الجامعة.

«عجباً»، قالت إحدى صديقاتها، «تبدين مذهلة. لا بد أن بلدتك تناسبك!».

«أكانت سارة في بلدتها؟»، سألت إحدى غير العارفات. «أوه، عظيم، كيف كانت رحلتك؟».

«كيف كانت رحلتك؟»، تردَّد صدى في رأس سارة. وأوشك صوت الصدى على إصابتها بالدوخة.

«كيف كانت رحلتي؟»، سألت بصوت مرتفع، تبحث عن توازنها وتحاول استرداده.

«كيف كانت رحلتي؟»، شاهدت انعكاس صورتها في زوج من العيون العسلية المبتسمة.

«لا بأس بها»، قالت ببطء وقابلت الابتسامة بابتسامة منها بينما فكّرت بجدّها. «لا بأس بها».

اتسعت ابتسامة الفتاة. تابعتها سارة بنظرها بينما مشت متمايلة نحو ملعب التنس، شعرها يتطاير وسط الرياح.

جمِّدي الجُرَذ بنظراتك المحِّدقة، فكّرت سارة، وسواء اختفى أم بقي، امرأةٌ أنا في هذا العالم. لقد دفنتُ والدِي، وسرعان ما سأتعلّم كيفية نحت تمثالٍ حجريٍّ لجدّي.

مصدر[1]

بدأ شبح سان فرانسيسكو بمطاردة إيرين، خلال العام الأول من احتكاكها المحبط مع التمويل الحكومي لبرامج مكافحة الفقر. فالمشروع التعليمي الذي أهرقت فيه الكثير من وقتها وطاقتها وكمية غير قليلة من موهبتها، أعلنته واشنطن «باهظاً ورومانسياً»، وأجهضتْه باختصار. بدأت إيرين بالحنين لكل حسنة بخلت بها البلدة الجنوبية الصغيرة المغبرة التي عملت فيها. برفقة عدد من الشباب المثاليين، كانت تعلم «القراءة والكتابة المتقدمة»، لمجموعة صغيرة من المتقدمات في السن. مدرستهم برمّتها كانت عبارة عن قاطرة مستعملة خلف كلية محلية للسود؛ والكتب المستخدمة من تأليف المعلمين والطلاب أنفسهم. تاقت النسوة للتعلم وكان هذا جانباً مشوقاً، لكن البلدة كانت مملة؛ أبرز معالمها صالة سينما قذرة تم مؤخراً فقط إتاحة الاختلاط العرقي فيها، وسط تقدير منبوذ لأفلام بيرت رينولدز(2). راودت إيرين باستمرار أحلام اليقظة بالشوارع المنحدرة ومقطورات الترام والحي الصيني ومنتجات «رايس-أو-روني»، بغابات الخشب الأحمر والمحيط الهادئ.

قررت زيارة أنستازيا غرين، الصديقة التي عرفتها أيام الكلية في

1- Source: اسم الشخصية في هذه القصّة وقد قمت باعتماد ترجمة الاسم وبالتالي أصبح اسمه «مصدر»، كما أسماء أخرى مثل «سلام» و«هادئ» و«نعيم».

2- Burton Reynolds (1936 – 2018): ممثل أمريكي شهير.

نيويورك. تقطن أنستازيا حالياً في سان فرانسيسكو، وراسلتها بانتظام داعية إياها إلى زيارتها، في حال قدومها يوماً إلى تلك المدينة الأسطورية.

كانت أنستازيا طويلة ممشوقة القَدّ، عيناها الزرقاوان الموشَّحتان باللون الرمادي تشعّان حذراً، شعرها بلون النحاس غير المصقول، وفمها يبدو أصغر بكثير من أسنانها، فعندما تبتسم، تتحوّل الأجزاء المستوية من وجهها بصورة جذرية لتستوعب زاوية مفاجئة شبه دائرية في وجهها. لم يكن ذلك الشذوذ في قسماتها متنافراً، بل ساحراً، وأضفى على وجه أنستازيا طابعاً مرحاً افتقرت إليه.

التقتها إيرين على الساحل الشرقي، لكن أنستازيا خاضت مرحلتين كاملتين من التغيير الخارجي: الأولى من «البريئة الجنوبية» (تنحدر من باين لايك، أركنساس)، واسعة العينين، خجولة، ومأخوذة بعبثية بسهارى نيويورك وإن كان ذلك مجانباً للواقع. جزمة طويلة، بالطبع، شعر مقصوص بأناقة ومصبوغ باللون الأسود، عينان بتبرُّج كثيف (بني وأسود، أشبه بالتبرُّج المصري القديم)، على بشرة بدت بفعل التضارب اللوني كأنها مغبرة بمسحوق الأرز، وهكذا كانت في الواقع. أما التغيير الثاني، فكان بالانتقال إلى نمط يشبه فاي دوناواي[3]، التي كانت تشبهها نوعاً ما بابتسامها الفريدة، أو التغيير الذي وصفته بأنه «إطلالة صبي المدرسة الإنجليزي الصغير». شعرٌ مصبوغ باللون الفاتح ومشدود إلى رأسها *الدائري* الصغير (كما اتضح الآن)، وغُرّة منسدلة حتى حاجبيها، وتنانير قصيرة تصل حتى مؤخّرتها. ودائماً، حقيبة يد متأرجحة وأحذية غريبة بمقدّمة مربّعة. بهذا الزي الغريب، لم تكن تمشي بل تقفز، ومن غير المستغرب لدى مرورها بمشيتها القافزة أن تتبادر إلى الذهن «إليانور ريجبي»[4].

أمضت فترةً وهي ترتدي هذا الزيّ التنكريّ وقعت خلالها في هوى

3- Faye Dunaway: ممثلة أمريكية شهيرة (مواليد 1941).

4- أغنية لفرقة «البيتلز».

رجل اسمه غالين، يُدمن المسرح بمقدار إدمان أنستازيا للسفر. بعد الكلية، غادر غالين الساحل الشرقي متجهاً إلى الغرب، أملاً بأن يصبح ممثلاً. أقنع أنستازيا بمرافقته. ومن خلال الرسائل، علمت إيرين أن غالين جرى تنسيقه، كما يقولون، أثناء عمله في الإعلانات التلفزيونية في لوس أنجلوس. أما أنستازيا، التي كانت قد بدأت تغسل شعرها بالخَلّ وتطيل البقاء تحت أشعة الشمس، فمضت نحو الشمال.

تضمّنت وثائقيّات التلفاز حول أطفال الزهور (الهيبيِّين) في حقبة الستينيّات صوراً عدة لأشخاصٍ يشبهون أنستازيا أثناء إقامتها في سان فرانسيسكو. ولّت الأحذية ذات المقدّمة المربّعة، وإطلالة صبي المدرسة الإنجليزي. وارتدت عوضاً عنها القباقيب وفستاناً طويلاً فضفاضاً بنقوش من الموضة القديمة وقماشاً رديئاً، مع قبعة مخملية أرجوانية. واظبت الآن على تجعيد شعرها الذي رسم هالة أحاطت بوجهها البني الفاتح الخالي من المساحيق. ازدانت ملابسها بالدبابيس الصغيرة البراقة والريش إلى درجة قصوى تبعث على السرور.

«سررت برؤيتك!»، قالت المرأتان في آنٍ واحد تقريباً، تتعانقان وتبتسمان تحت أنظار المسافرين المشوشين والمذهولين في المطار.

جاءت أنستازيا برفقة شاب وامرأة يافعة وطفلهما. كان اسم الطفل طويلاً للغاية، مشتقّاً من السنسكريتية ويعني «نعيم»، لدى ترجمته إلى الإنجليزية. اسم الرجل الذي جاء بالطريقة نفسها معناه «هادئ»، واسم المرأة «سلام». غرق الثلاثة البالغون بسهولة في القهقهة وعلى كل شيء، يلمسون بذهن غائب ملعقة فضية صغيرة تتدلّى من عنق كل واحد منهم.

ولجهلها بما ترمز إليه الملعقة، وجدت إيرين في ذلك شيئاً مسلّياً. حلية مناسبة للجنسين، قالت لنفسها، وهكذا اعتبرت أنها أصابت الهدف.

جاؤوا بشاحنة ملونة بجميع ألوان قوس قزح، فأضفى مجرّد الركوب فيها شعوراً مفعماً بالحيوية. سرعان ما بدأ الكبار بالشَّدو والغناء،

والطفل يركل ويناغي. بأجوائهم المرحة، عبروا الجسر إلى مقاطعة مارين، المنطقة التي انتقلت إليها أنستازيا وأصدقاؤها مؤخراً. ومنها «ينطلقون»، برحلات يومية إلى سان فرانسيسكو.

«لا بدّ أن إيرين ستحظى بإعجاب مصدر»، قالت «سلام»، أو ربما «هادئ».

«بالتأكيد»، أيّدت أنستازيا، واستدارت لتقرص إيرين على ذراعها، «سبق وأخبرتهم أنك أحد أقل معارفي تزمُّتاً».

غمرت السعادة إيرين كما في كل مرّة تتواجد فيها كائنات غريبة تراقبها أو تلتقيها، ولم تتردد لحظة بالموافقة، بصمت طبعاً. وكان الانطباع الذي أوحت به: «ومَن لا يحبّني؟»، فالصدمة التي سببها ضياع المشروع التعليمي لم تكن قد أفسدت فيها غروراً جوهرياً تنقذ به ذاتها.

«ومن يكون «مصدر»؟»، سألت إيرين متكاسلة، فالشاحنة الآن تعبق بدخان القنّب الهندي الناعم.

«اصبري وسترين»، قالت أنستازيا بصوتٍ يلفُّه الغموض.

سكنوا منزلاً كبيراً متطرِّفاً على سفح هضبة في مارين، يدخل غرفه النور والهواء وتملؤها أشعة الشمس، والنقوش الهندية وأصداف البحر والصخور والقصاصات الورقية المعلقة، وحصائر خيوط القش. أطلت كل نافذة على منظر مختلف: الخليج، والقوارب الشراعية، ومدينة تيبورون على الجهة الأخرى من الخليج.

«كيف تتدبرون هذا كله؟»، سألت إيرين، بينما ألقت نظرة سريعة على خزانة مكدّسة حتى سقفها بأكياس الجرانولا.

«طوابع الغذاء والمعونات»، قالت أنستازيا، بهزّة خفيفة من كتفيها، في حركة رأتها إيرين كثيراً مؤخراً. فيها شيء... من الاستياء، وشيء من القبول أيضاً. «تفتقر إلى...»؛ وفجأةً اتّضح لإيرين أنه كان: التحدّي.

توارى «نعيم» ووالداه، «هادئ»، و«سلام»، إلى جانب منفصل من المنزل. جلست أنستازيا وإيرين إلى طاولة المطبخ.

«في أنحاءٍ من البلاد»، قالت إيرين بصوت تعمَّدت منه إظهار أن هذا لا يعنيها مطلقاً، «يحصل الناس، بشكل متعمد، على كمية أقل من المساعدات، أقلّ من اللازم ليتمكّنوا من العيش».

انحنت أنستازيا إلى الأمام، وبنبرة موازية تخلو من التحيز: «أن يعيش المرء على الإعانات في مكان غنّي أفضل من أن يعيش في مكان فقير. فالأغنياء هنا لا يرتدون ثياباً كثيابنا وحسب - إن لم يكونوا أكثر رثاثة وأقل أناقة - بل أغنياءٌ لدرجة أنهم يجدون السعادة في مؤازرتنا في فقرنا».

ضحكت إيرين، مجاملة.

«كيف عملك في التعليم؟»، سألت أنستازيا. حالها حال العديد من أصدقاء إيرين، لم تقرأ أنستازيا قطّ النشرة الإخبارية التي نشرتها إيرين ومجموعتها، وناقشوا فيها بالتفصيل منهجيات تعليم كبار السن، والشباب الذين يعانون ضعفاً أو سوءاً في التعليم، أو الفئة التي أسموها فيما بينهم، كما فعل المجتمع، «غير القابلين للتعليم». إلا أنهم قالوها بفكاهة استمدوها من تجربتهم، إذ لم يصادفوا بعد أحداً «غير قابل للتعليم» إطلاقاً.

لبرهة قصيرة، حاورت إيرين نفسها إن كانت ستزيد في ردِّها عن «مقبول». ففي الحكايات والأدب، لعملها وقعٌ شاعري ومثالي أيضاً، إلا أن الواقع اليومي مختلف. وفي وضع إيرين، كانت هناك أولاً حرارة صيف الجنوب اللاذعة التي تشوي الدماغ، حين تسنى لمعظم طالباتها - جميع النساء في أواخر الأربعين، والخمسين، والستين من أعمارهن - حضور الدروس من ثلاث إلى خمس مرات أسبوعياً. وكانت المقطورة التي استخدموها تفتقر للتكييف، ويكثر فيها الذباب. أحياناً، كانت الصفوف تكتظّ بالحضور، وتضمّ أناساً مِمَّنْ - جَرّاء السنوات التي أمضوها كمتفرِّجين سلبيِّين في الكنيسة، ولم يطلب منهم سوى

الاستجابة بالصرخات أو أدعية «آمين» – واجهوا صعوبة بالتفاعل في تعليمهم. فقد شككوا بتواريخهم الشخصية وتجاربهم بحد ذاتها. وكان الطعام – الذي تبرعت به الجامعة المحلية التي شغلوا فناءها الخلفي – سيِّئاً. السجق البولوني ولحم الخنزير والفاصولياء وشرائح الخسّ الصفراء الذابلة. شراب الليمون المحلَّى أكثر من اللازم الذي كان يجتذب البعوض. سادت الأجواء أيضاً رائحة الفقر النظيف، العبق الذي تمنَّت إيرين زواله عن وجه الأرض، عبقٌ حادٌّ مرير، لاذعٌ تقريباً، كأن النساء اغتسلن بالمستحضرات الكيماوية.

كان التعليم مشوِّقاً بشكل متقطِّع، فقط عندما تعلمت إحدى الطالبات أو المعلمات شيئاً بالفعل، فغالباً ما بدا أنه ما من أحد يتعلم شيئاً. ونتيجة لإحباطها، كانت إيرين تعرض أحياناً الأفلام التي مهما كان موضوعها، فإنها أقل تهديداً لطالباتها من إصرارها المتواصل على إقرارِهنّ بالإجحاف الذي يتعرَّضنَ له؛ كسود ونساء. وكانت أفلام على غرار «ولادة أمة»[5] تعقبها انتفاضة فورية، بينما تترك أفلام مثل «آنا لوكاسا»[6] صمتاً مصعوقاً وحائراً. ذلك في البداية على أي حال.

«ليس جيداً»، قالت إيرين، بينما وضعت أنستازيا مصفاة في ماكينة «شيميكس»، وملاعق من القهوة وسكبت فوقها الماء المغلي. ومن خلال نافذة المطبخ المنخفضة، شاهدت إيرين الضباب يتسلّل إلى الحديقة، وقطّة تغفو على صخرة، وجرّة أعشاب دائرية من الفخار الأحمر على الدرج الخلفي. لهذا المنزل طابع يسوده السلام والبعد عن الواقع.

«حدثتني في رسائلكِ عن مدرستكِ»، قالت أنستازيا محاولة قدر

5- The Birth of a Nation (1915): الفيلم الملحمي الصامت والمفصلي في تاريخ السينما، وهو من إخراج وإنتاج ديفيد غريفث متناولاً الحرب الأهلية الأمريكية وفصولاً أخرى من تاريخ أمريكا.

6- Anna Lucasta (1958): فيلم تجاري من إخراج أرنولد لافن.

الإمكان ألا تبدي أي انطباع ملزم، بينما ارتشفتا القهوة السوداء الطازجة وبدأتا تقضمان كعكة جزر محضَّرة منزلياً.

لدى إيرين جانب لا يعجب أنستازيا، ذلك الجانب الذي بدت فيه مهووسةً من دون داعٍ بالوجه القاتم والبائس من الحياة. وقد ناقشتا ذات مرة عجز أنستازيا عنِ الانخراط في مشاريع تحظى باهتمام إيرين، وحينها هزّت أنستازيا كتفيها وقالت: «أنتِ من هواة الألم». ضحكتا، لكن أنستازيا أدركت أن إيرين تعتبرها عاجزة عن الشعور بالأحاسيس العميقة، وهكذا، بشكل من الأشكال، حادثتها أو راسلتها على هذا الأساس. وبما أن ذلك جنبها الكثير من فورات الغضب والاندفاع، رأت في ذلك أمراً مقبولاً، ولم تتذمَّر. بل قبلت الضحالة التي أمَّنَها هذا الانطباع.

أما إيرين، فلم يخطر لها أن أنستازيا قد تتعاطف مع التزاماتها، وأن صداقتهما الجامعية قامت أساساً على عشق مشترك للسينما والجاز. رغم أنها اصطنعت قبولاً حميداً لأسلوب الحياة المتراخي الذي عاشته أنستازيا، واعتمادها على الأزياء الشخصية لتحديد حالتها الذهنية، شعرت على مستوى أعمق بالاحتقار تجاهها كإنسانة اختارت أن تكون محدودة المنفعة.

«انتهى بسبب نقص التمويل»، قالت إيرين.

«من كان يموّله؟»، سألت أنستازيا بأدب.

تنهَّدت إيرين، ثم بدأت حديثها بسرعة؛ «في البدء لم يكن من تمويل». ما كان بوسع المرأتين إلا التبسُّم لإدراكهما الوقع شبه المألوف لهذه الكلمات: فكلاهما نشأتا في الكنيسة. «في البدء لم يكن من تمويل»، كررت إيرين. «رغبت النسوة بالتعلم قبل أن يصبحن «كهلات»، وحدَّثْنَ ببساطة - وأحياناً أُحرِجْن - الشابَّات لتعليمهن. ثم جاءت منحة قدّمتها الحكومة لتسديد أجور المعلمات القادمات من الخارج مثلي. وبالطبع، تكمن مشكلة التمويل الحكومي في كونه لعيناً بتفاوته... ونظراً للحرب الدائرة في فيتنام، والقنابل التي ينبغي شراؤها، بالكاد كان منتظراً من

الحكومة أن تلقي بالاً لبضع عشرات من النسوة السود الباقيات على إيمانهن بأهمّية التعليم». «ظننتك قلتِ في رسائلك أن بعض النسوة من البيض»، قالت أنستازيا بينما اتكأت بذقنها على ظهر يدها تحدّق في إيرين بنظرة ثابتة. كانت تحب النظر إلى إيرين، أعجبتها عيناها البنيتان الشرستان أحياناً، وأعجبها بشدة لون بشرتها الداكن الغني - لكنها عجزت مطلقاً عن البوح بذلك.

«أوه، أجل»، قالت إيرين، «بعضهن كذلك. ثلاثٌ في واقع الأمر». فعندما انحدر البيض إلى مستوى معيّن من الفقر (بافتراض أنهم ليسوا أعضاء في جماعة الكلان[7]، أو أسوأ، وغالباً ما كانوا كذلك)، زالت عنهم صفة «البيض»، في نظرها. لكنها وعلى غرار العديد من معتقداتها شبه السياسية، لم تمعن التفكير بالموضوع. فقد خشيت ذلك، وكان هذا واحداً من أبرز العيوب في شخصيتها. ولو أنها تفكّرت بذلك، لوجدت نفسها على سبيل المثال مرغمة على التفكير بما سيؤول إليه الفقراء البيض حين يصبحون (إذا أصبحوا) أغنياء، (وكيف لها أن تهدر وقتها في تعليم البيض محدثي النعمة؟)، وما الذي سيؤول إليه السود عندما يرتقون إلى الطبقة الوسطى؛ كانت تكنّ سلفاً مشاعر الازدراء للطبقة الوسطى السوداء. لكونها في الواقع تقليدٌ وضيع مملّ للطبقة الوسطى البيضاء التي اعتبرتها عاديةً بأصغر تجلّياتها، وكانت تمقتُها. لكنها من الناحية العملية، تنتمي الآن إلى تلك الطبقة.

ولو أنها بدأت بالتشكيك في تلك الأشياء، لكان عليها أن تشكك بموقعها نفسه في المجتمع وكيف لها أن تحقق النجاح في كل ما تفعله (ساورتها بعض الشكوك حول قدراتها لا طاقتها) وأن تتجنب في الوقت ذاته التحول إلى برجوازية. استمتعت بالعديد من الملذّات البرجوازية، لكنَها اشمأزت من فكرة القبول بها. وتماماً كما كان الجاز نمطها الموسيقي المفضل لأنه أفقد الطبقة الوسطى قدرتها على التحرك، كانت

7- Ku Klux Klan.

رواية «ذئب البراري»[8] ومنذ أيام الجامعة، الرواية التي دائماً ما عكست طريقة تفكيرها.

«أيمكن للنساء أن يعدن للتعلم بالطريقة ذاتها التي تعلمّن بها قبل التمويل؟»، سألت أنستازيا.

«قد يستطعن يوماً ما»، قالت إيرين، «لا أعلم. أصابهن، كما أصابني، شيءٌ مضحك حيال التمويل الحكومي. فقد جاء في بادئ الأمر ليحسن أرواحنا المعنوية، وجعلنا نعتقد أن أحدهم في واشنطن تعنيه حياة أولئك النسوة، والإفقار المتعمَّد لماضيهن بطبيعته الخاصة. وسكنت نفوس تلك النسوة للتعلُّم بناءً على تلك القناعة. لكن التمويل الذي بدأ بصورة مذهلة انتهى على الشاكلة نفسها. وما إن تسنّى لنا الوقت لنعتاد على أكثر مما حظينا به سابقاً حتى زال كل شيء فجأة. كنا قد «ارتقينا»، إلى مستوى جديد، فقط لنجد أن السبل تقطَّعت بنا. فأصبحت العودة إلى الطريقة القديمة أشبه بشعور الهزيمة».

وأثناء حديثها، فكّرت إيرين بامرأة في صفها تركت في نفسها أثراً على وجه الخصوص، قاومت تعلم القراءة لأن كل ما طلب منها قراءته كان مؤلماً بشدة. اضطرّت إيرين لمسايرتها لتعود إلى الصف بعد اليوم الأول. وكانت المرأة، واسمها فانيا، قد أظهرت في اليوم الأول رغبةً عارمة بتعلّم القراءة. كانت امرأة متينة البنية بشرتها بلون الجوز وشعرها مجدول بضفائر تقاطعت عند قفا عنقها، وتعلّق في أذنيها حلقات ذهبية صغيرة. شعرت حيال جهلها القراءة بإحراج شديد لدرجة أنها، بإقرارها به، أبقت عينيها مغمضتين بشدّة، وتمكَّنت أثناء تحدُّثها بكلمات موجزة عن وضعها من فكّ الضفيرتين والتسبب بتشابك القرطين مع شعرها.

وبمقدار مأساوية هذا المشهد، إلا أنه كان طريفاً أيضاً. فعند إدراكها للمظهر الذي بدت فيه أمام الصف وإيرين، احمرَّت فانيا خجلاً

8- رواية هرمان هسه الشهيرة.

وضحكت بحيرة ضحكةً مقتضبة على نفسها. نظرة وضحكة لن تنساهما إيرين طيلة حياتها.

كانت إيرين قد حقَّقت نجاحاً كبيراً بتعليمها القراءة باستخدام الصحف. فقد وجدت أن غير الملمِّين بالقراءة يتفاعلون بسرعة مع الأخبار حول ما يدور في أوساطهم، وأنهم غالباً ما تمكَّنوا من تمييز كلمات معينة – مثل أسماء البلدات والمتاجر وما إلى ذلك – التي كانت مألوفة لديهم. وكلما «قرؤوا»، كلمة يعرفونها سلفاً، كانوا يكتسبون مزيداً من الشجاعة.

ولأجل فانيا، كانت إيرين قد اختارت مادة غير مزعجة نسبياً حول المكننة المتزايدة للعمل الزراعي، نمط العمل الذي تعرفه طالباتها جيداً. اعتقدت أنّ كلمات على غرار: «آلة توزيع الأسمدة»، «جهاز البذار الآلي»، «معدات قطاف القطن»، وما يشبهها ستكون كلمات سهلة. وصحيح أنها طويلة، لكنها كلمات استخدمتها النسوة يومياً، أثناء مرورهن بالمزارع حيث كانت هذه الآلات قيد الاستخدام بالفعل.

قرأت إيرين المادة الإخبارية القصيرة بسرعة تجنباً لأيّة مفاجأة فيها، إذ اكتشفت أن المفاجآت، أيّاً كان نوعها، تثبّط عزيمة القارئات الجديدات.

«واي، جورجيا: تتوقع مصادر في وزارة الزراعة أن العمل الزراعي الذي عهدته ولايتنا لأجيال سيختفي في غضون أقل من عشرة أعوام. فمن شأن الاستخدام الواسع لآلات توزيع الأسمدة وأجهزة البذار الآلية ومعدّات قطاف القطن أن يلغي تقريباً الحاجة للعمالة البشرية. وبالفعل، فقد آلاف المزارعين المقيمين الذين عملوا تقليدياً في حراثة وزراعة الأراضي، عملهم ومساكنهم. وتشير التوقعات إلى أن أسعار المحاصيل – بما فيها فول الصويا والفول السوداني – ستواصل ارتفاعها. ومن المتوقع للأتمتة أن تؤدي إلى ارتفاع الأرباح ودفع عجلة نمو القطاعات الأخرى التي بدأت بالانتقال إلى الجنوب نظراً لوفرة

الطاقة، على صعيد البيئة والتعداد غير المسبوق للعمالة غير المنظَّمة في نقابات».

في بادئ الأمر، تلعثمت فانيا وانقطع نفسها، وشدّت أقراطها وضفائرها - لكنها في نهاية المطاف رفضت تعلُّم قراءة أن العمل الوحيد الذي عرفته طيلة حياتها سيختفي قريباً من الوجود.

وبينما واصلت إيرين حديثها، كانت أنستازيا تلهو بأصابعها بحصيرة القشّ الملونة أمامها. وكما حدث في معظم الأحيان أثناء تحدثها إلى شخص أسود آخر، كان العالم يبدو مثقلاً بالمشكلات. «ليس بمقدورك تحسين شيء، أتعلمين؟»، قالت. «ليس بوسعك تغيير شيء. هذا ما تعلمته من «مصدر».».

تمهَّلت إيرين، إذ بدا أن الإلهام هبط على أنستازيا.

«جمعني «مصدر»، مع أسرتي من جديد. لن تصدّقي ذلك، لكننا نراسل بعضنا مرَّةً على الأقل في الأسبوع. هيه، دعيني أريكِ». نهضت أنستازيا وتوارت في غرفة أخرى. عادت ومعها رزمة من الرسائل. سحبت رسالة من الرزمة وفتحت الصفحات على الطاولة. عدلت عن رأيها بالقراءة بصوت مرتفع لإيرين التي كانت تنظر إليها نظرة دفعتها إلى الشك. دفعت بالرسالة صوب إيرين التي ألقت عليها نظرة سريعة.

كان والدا أنستازيا من المعمدانيِّين فيما مضى؛ لكنهما الآن من «شهود يهوه». تضمنت الرسالة كثيراً عن بقائهما على حبهما لها، وأكثر من ذلك حول مواصلتهما التضرّع للرب يهوه بالنيابة عنها. واتضح من الرسالة أن الصلوات كانت ترفع من أركنساس كل ساعة. اقشعر الشعر على قفا عنق إيرين، لكنها أجبرت نفسها على الاحتفاظ بهدوئها.

التقت إيرين بعائلة أنستازيا مرة واحدة، ولطالما ظنّت أن أنستازيا تعمدت ذلك. فقد قطنت إيرين لفترة في أحياء مقاطعة كولومبيا الرهيبة، ومثلت بالتالي شخصية مثقفة منبوذة ومجنونة في نظر الأصدقاء الذين اعتبروا الفقر بحد ذاته خطراً على الزوار. وبينما كان والداها في البلدة،

طلبت أنستازيا السكن عند إيرين رغم حقيقة أنها كانت حينها تعيش مع صديقها غالين. جاء والداها على متن أطول سيارة وردية من طراز «لنكولن كونتيننتال»، تشاهدها إيرين في حياتها. وقد تجرأ والدها وشقيقاها على خوض الشوارع القذرة وصولاً إلى شقة إيرين، لكن والدتها انتظرت في السيارة - بأبواب مقفلة ونوافذ مرفوعة - حتى خرجت أنستازيا وإيرين إليها. اصطدمت نظراتها بنظرات إيرين. «لماذا؟ لماذا؟»، سألوها بينما نطق فمها بمدى سرورها للقائهم أخيراً. «ما الذي يخيفها؟»، سألت إيرين أنستازيا، «ما الذي لا يخيفها؟»، أجابت أنستازيا.

لشقيقي أنستازيا بشرةٌ صفراء بلون الكهرمان وشعرٌ أجعد، بقامتين مترهِّلتَين وتعابير صامتة مهدِّدة يُعرف بها الصبية في عمرهما. كانا في الخامسة عشر والسادسة عشر. لوالد أنستازيا بشرةٌ بلون الزيتون، رجلٌ أجعد الشعر تركت أزمته الباطنية العنيفة وروحه الثقيلة نكوصاً بادياً على وجهه، لدرجة أن الابتسامة كانت ستبدو خارقةً للطبيعة عليه.

يكتب هذا الوالد الآن عن محبة الله، نعمة الله، الغفران الإلهي المضمون، وسعادته الشخصية بأن ابنته لطالما كانت في صميمها «فتاة صالحة»، سلكت أخيراً درب الطاعة. وهذا المسار بمفرده يقود إلى السلام الأبدي في النظام العالمي الجديد المقبل.

«الطاعة»، فكّرت إيرين، «السلام الأبدي! يا للَّعنة المقدَّسة!».

«وددتُ أيضاً فعلَ الخير»، قالت أنستازيا وضحكت. «فجميع «أفعال الخير» في الواقع لمصلحة نفسكِ، لا لأحد غيرك. ما من أحد يفعل خيراً لمصلحة الآخرين. فالخير الذي يفعلون لمصلحتهم أنفسهم. ما من شيء اسمه الإيثار، ولا أفعال الخير».

«مهلك»، قالت إيرين، وقبضتها المشدودة تتَّكِئ على الرسائل في حضنها. «عندي إيمان بالحركات، بالعمل الجماعي للتأثير على المستقبل وما إلى ذلك. بصورة أساسية، أؤمن بمسؤولية أحدهم عن الطفل».

«على الناس أن يفهموا»، قالت أنستازيا، بكلمات سريعة وبصيرة غائبة إلى حد ما. شعرت إيرين كأنها تتحدث وعيناها مغمضتان، ما ذكّر إيرين في تلك اللحظة بـ«فانيا». «إنّ معاناتهم سببها اختيارهم للمعاناة. إن عانيت في مكان ما، ارحلي عنه».

استيقظ الطفل وإيرين تحمله الآن. تفوح من شعره الكثيف رائحة البخور، وأصابعه الرقيقة تتحسّس أنفها.

«لا يمكنك التخلّي عن طفل»، قالت إيرين.

«يفعل الرجال ذلك طيلة الوقت».

«لكن النساء يبقين لرفضهن أن يكنّ رجالاً».

«والرجال يرحلون لرفضهم أن يكونوا نساءً، ذلك النصف من العِرق البشري الذي لا يدرك مطلقاً أن الخيار كان متاحاً أمامه».

«ومن سيتولّى رعاية الأطفال؟».

«أحدهم سيفعل»، قالت، «أو لن يفعل». ونظرت إلى وجه إيرين.

«كلاهما سِيَّان». هزّت كتفيها. «هذا هو المغزى».

دخلت أم الطفل إلى الغرفة. وجهها بلون منديل ورديّ، قامتها متينة وعيناها زرقاوان على شكل سهمين. تجلّى البحث الروحاني بصورة أكبر في حديثها؛ إذ سكبت فوق لهجتها النيويوركية عذوبةً مؤلمة للأذنين.

«إنه طفلٌ جميل»، قالت إيرين بينما انتزعت حبات العنب من إناء على الطاولة وشرعت تدسُّها في فمها وفم الطفل.

«أشكرك»، قالت بصوت أشبه بالهديل. «سنعطيه لأنستازيا، فهي تحبه كثيراً وستكون والدةً صالحة. سنرحل إلى أميركا الجنوبية».

«متى؟»، سألت إيرين.

هزّت كتفيها قائلة: «يوماً ما».

«أكان اتِّخاذ ذلك القرار صعباً؟»، رغبت إيرين أن تعرف.

«يعلمنا «مصدر»، أن كلَّ الأطفال ملكٌ للجميع، للعالم أجمع».

«لا ملكٌ لأحدهم بالتحديد؟».

أجابت بنبرة غنائية «هذا صحيح»، وانسحبت خارجة من الغرفة.

«علينا اصطحابك للقاء «مصدر».»، قال «هادئ»، الذي دخل الغرفة تالياً وبدأ ينبش حبّات العنب. كان هزيل البنية، أطول بكثير من الثلاجة وشعره الطويل الأصفر بلون القشّ مضفورٌ كذيل الفرس برباط أخضرَ فاقع. وعلى شكل قدمٍ ضئيلة، بدت وحمةٌ حمراءُ مذهلةٌ كأنها «تمشي» على أنفه.

قَطَنَ «مصدر» في منزل شقق سكنية ضخم على مسافة جِدّ قريبة. استقبلتهم إحدى بناته، نحيلة كانت وفي سن المراهقة، يخيّم الحزن على عينيها وشعرها الأسود الطويل يتماوج متلألئاً على خلفية بشرتها البنية الشاحبة، ورافقتهم إلى شقَّته. وأبقت نظرها بعد إدخالهم منخفضاً دون مستوى ركبهم.

جلبت أنستازيا و«سلام»، و«هادئ»، و«نعيم»، هدية من النبيذ والمال، وضعوها على طاولة بجوار قدمي «مصدر». جلس «مصدر»، متخذاً وضعية زهرة اللوتس على سرير دائري محشورٍ قبالة جدار الغرفة التي كانت لولا ذلك مقفرة كئيبة. قُدمت للزوار وسائد على الأرض. انسلّت ابنةٌ ثانية بهدوء، عيناها حزينتان بمقدار حزن عيني الأولى، وسكبت النبيذ في كؤوس ناولتهم إياها. أشعلت أيضاً عوداً من البخور. سرعان ما عبقت الغرفة بالدخان وأصبح الهواء ثقيلاً برائحة حلوة طاغية.

جاءت ابنةٌ ثالثة ووقفت عند يد والدِها اليسرى التي كان يرفعها بين الفينة والأخرى، وأرسلها مسرعةً إلى الغرفة الأخرى لجلب شيء يريده.

«أيعقل أن جميع المعلِّمين الروحانيين الهنود يشبهون بعضهم بعضاً»، فكّرت إيرين. كان «مصدر» شاحباً ببشرة بنية تميل إلى الرماديّ وعينين داكنتين براقتين، وشعرٍ داكنٍ يغزوه الشَّيب، مقسوم عند المنتصف ويتدلَّى على كتفيه. ارتدى ثوباً أبيضَ استخدمه أثناء حديثه لتغطيه قدميه

الحافيتين أو الكشف عنهما، في حركةٍ تقليبٍ بطيئة بعثت الراحة لدى الحضور ونوَّمَتهم مغناطيسياً بشكل من الأشكال.

عقدت إيرين عزمها على عدم التفكير بأيٍّ من الأفكار المجحفة التي دارت في رأسها، وعدلت ملامحها لتُظهر الاهتمام والاكتراث والسرور الاستباقي.

حمل صوت «مصدر» شيئاً من الأنين والطنين في آن معاً، مما أكسبه طابعاً بغيضاً. تحدث عن لقائه الأول بأنستازيا التي أسماها «سَكِينَة»، بالسنسكريتية، وكانت حينها تشبه كاثلين كليفر[9] تماماً، «ترتدي ثياباً كلها سوداء كلياً بالكامل» (اعتاد استخدام ثلاثيات وصفية). «شعرها مثل فروة حيوانٍ بريٍّ غاضب. وبشرتها شاحبة شاحبة شاحبة، مثل تلك. مغوارة، أتفهمون مقصدي؟»، ضحك وفرقع أصابع يده اليسرى في الهواء بجانب أنفه، فقامت الابنة حزينة العينين الواقفة بجانبه بنقل الوسادة خلف ظهره.

كانت أنستازيا تضحك، تتلمّس ملعقتها بأصابعها وتَنشق أحياناً وتفرك عينيها المحمرَّتين الزجاجيتين.

«حسناً» – هزت كتفيها – «ظننت نفسي من السود».

«لا أحد يعني شيئاً»، قال «مصدر» كأنه يخاطب طفلاً بليداً، فهزّت أنستازيا كتفيها مجدداً.

نادى «مصدر» بصوت حاد. سادت المطبخ حركة مضطربة، وجاءت ابنتاه الأخريان ووقفتا بجوار الابنة التي بقيت بجانب السرير.

«لا أحد يعني شيئاً»، كرّر مرة أخرى. بدأت الابنة بتدوين كلماته. ومن خلال ثوب الساري المحلول الذي ارتدته، بدا واضحاً أنها كانت حاملاً.

9- Kathleen Cleaver: أستاذة جامعية في القانون عُرفت على نطاق واسعة لمشاركتها في حركة الفهود السود ونضالاتها.

«عشت في إفريقيا، في أوغندا»، تابع «مصدر»، «ورغب الأفارقة أن يكونوا سوداً سوداً سوداً. قالوها باستمرار: أسود أسود أسود. لكن ذلك سببه أن الأفارقة رجعيّون. أترون؟ فالهنود لا يجوبون الأنحاء قائلين «لوننا بنّي بنّي بنّي»، ولا الصينيّون يقولون «أصفر أصفر أصفر».».

«كلا»، قالت إيرين، «يقولون نحن صينيون صينيون صينيون، وهنود هنود هنود».

لكن التحدث أثناء حديث «مصدر» كان غير لائق. فواصَلَ كأنها لم تقاطعه. «الأفارقة كائنات غريبة. سأروي لكم قصة حقيقية حدثت في إفريقيا. أحد الأفارقة...».

سردَ طرفةً عنصرية قديمة لم تسمعها إيرين منذ كانت طفلة صغيرة. «الإفريقي» فيها رجعيٌّ غبيٌّ كسولٌ يفتقر إلى الحافز للتحسُّن بمقدار ما يتمنّى أيٌّ مستعمِر. قهقهت «سكينة» و«سلام» و«هادئ»، وحتى الطفل الذي اقتصرت استجابته المذهولة للعالم على نظرة تساؤل كسولة.

«أين تذهبين؟»، سألت «سكينة»، لدى نهوض إيرين من مكانها.

«ألقاكم في الشارع»، قالت إيرين.

في طريق العودة، تحدث «سلام» و«هادئ»، بتشتت عن الغرور والتواضع وكيف أنهما الآن، بعد معرفة «مصدر»، متحرّران من الأول ولديهما الكثير من الثاني. وتضمَّن الحديث إشارةً إلى إمكانية تحسُّن إيرين بالشكل نفسه.

«هل الابنة الحامل متزوِّجة؟»، سألتْ ببرود.

«لِمَ تكون متزوجة؟»، سأل «هادئ».

«لديها «مصدر».»، نشقت «سلام».

وهذا بالضبط ما خشيته إيرين، لكنها قرّرت عدم المضي قُدماً بالموضوع.

«من يعيل «مصدر»؟»، سألت.

«جميعنا نفعل»، قالوا بفخر. «حياة «مصدر» أثمن من أن يهدرها في العمل».

بعد برهة قصيرة، قالت «سكينة»: «إنه معلم. مثلك. مهنته التعليم».

«أنا آسفة»، قالت أنستازيا في اليوم التالي، «لكننا قرّرنا أنه عليك الرحيل».

«ماذا؟»، سألت إيرين.

«لأنكِ تستنكريننا».

«لم أفهمك».

«أنصتي»، قالت أنستازيا، «نجحت أخيراً في لملمة حياتي، و«مصدر» صاحب الفضل كله في ذلك. أدرك أنني نكرة. هذا ما كان «مصدر»، يختبرك لتريه. ما زلت تعتبرين نفسك شخصاً مهمّاً، وذات قيمة، وأن للأفارقة قيمة. ليس صحيحاً»، قالت. «وإن كانوا لا شيء – إن كان لا أحد يعني شيئاً – يصبح إذلالهم مستحيلاً».

«لكنه عنصري؛ يعامل بناته كالعبيد».

«إنه أسمى من ذلك كله. أنت لا تفهمين. حسناً. لكن انظري، إن كان لا أحد يعني شيئاً، فالجميع سواسية. واضح بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟».

«واضح بما فيه الكفاية، لكنه مستحيل».

«عجزت عن الفهم أيضاً قبل انهياري. حلمت أن أكون كاثلين كليفر. التقيتها مرةً في إحدى الحفلات في نيويورك قبل أن تصبح كاثلين كليفر. كان شعرها طويلاً سابلاً فاتح اللون، مثل شعري، مثل شعري تماماً، وكانت كلَّ مساء تتَّخذ زاويةً تجلس فيها من دون أن تنبس ببنت كلمة. ولا كلمة. استأثر الرجال بالتحدث. وبعد أشهر، تغيرت. أصبحت فجأة تستأثر بالحديث لأن الرجال إما ماتوا أو كانوا قابعين في السجن. شتمت كثيراً، ارتدت جزمة ونظارات شمسية وثياباً سوداء ووقفت أمام عدسات المصورين وفي يدها مسدَّس. فعلتُ ذلك كلّه. حتى أنني وجدت رجلاً ثائراً أسودَ عشت معه وكان يضربني – ولم يمانع حرماني من التحدث إلى من اعتبرهم «غرباء»، رغم أنهم أصدقائي».

جاء والديّ من أركنساس وأخذوني. حبسوني بعيداً في «مصحّ». استغرقت وقتاً طويلاً حتى أدركت وجهة نظرهم.

«حلمت عندما كنت طفلة صغيرة بإحداث تغيير. وعندما بدأت الاعتصامات، وددتُ المشاركة فيها. أردت إحلال الدمج العرقي في المدارس وعلى طاولات الغداء. لكن لوني كان فاتحاً جداً، ولم أكن مطلقاً قد رأيت شعري من دون تمليس؛ فقد بدأت أمي بتمليسه مذ كنت في الثالثة من عمري، لكن المشكلة لم تكن لوني. يا إلهي، ضجرت من مشكلة اللون. كانت المشكلة إدراكي غير الناضج للعالم. امتلك والداي الحقيقة، ولهذا أحبّا «مصدر»، حبّاً جمّاً، بقدر ما أحبّه. أدركا أنَّ لا أحد يعني شيئاً، وأنَّ اللون مجرَّد وهم، وأنَّ الكون غيرُ قابل للتغيير. يعلمنا «مصدر» استحالة تغيير شيء، وأن المعاناة كلها عبارة عن استغراق في الذات وأن الخير في الحياة يتجلى بصورة رئيسة في عدم الاكتراث بها – المتعة، إن سنحت الفرصة».

«الخير في الحياة هو عدم الاكتراث؟».

«وضعوني تحت رعاية «مصدر»، وساعدا في إعالته مالياً. إنه ترتيب ناجح».

جائعاً وباكياً حبا الطفل على الأرض. مشت إيرين نحوه وحملته. ركضت أمُّه مسرعةً إلى الغرفة وخطفته من بين ذراعيها.

«نحاول حمايته من المشاعر السيِّئة».

«عاهرة»، قالت إيرين في نفسها ثم استدارت ثانية نحو أنستازيا المرتجفة من صلابة موقفها.

«أنستازيا»، قالت إيرين، «ما قطعتُ هذه المسافة كلها لأنتقد حياتك. قطَعتُها لأن حياتي تداعَتْ من حولي، أتذكرين؟». علمت أنها لم تكن على خطأ بشأن «مصدر»، لكن ما أهميته؟ فكرت في نفسها. «ربما كنت مخطئة بشأن «مصدر». لعلّك محقّة في الدفاع عنه. في الواقع، أعيش حالياً فترة عصيبة لا ينقصها ظهوره أمامي فجأة. كنت معرضة عنه؛ ربما

شعر بهذا»، واصلت حديثها المشتَّت، لكن أنستازيا لم تكن مصغية. تخيّلت أنستازيا و«سلام» و«هادئ» يلتقون تحت جنح الليل لتخطيط هذا المشهد. بدا لها كأن الطفل «نعيم» وحده رحّب بها منذ البداية.

«حياتك صنع يديك»، قالت أنستازيا ببرود كالحجر.

«لكن هذا عبثي. ليست حياة الجميع من صنع أيديهم. بعضهُم حياته من صنع أيدي الآخرين. قد أتفق على صحّة هذه المقولة على غالبية البشر في العالم. لكن النسوة اللواتي أعلّمهن لم يخترن الأميّة، ولا الفقر».

«لكنك اخترت تعليم تلك الفئة من الناس. لِمَ التذمُّر؟».

«تلك الفئة من الناس؟».

«البائسات. العاجزات في هذا التجسّد».

ضحكت إيرين: ذكرتني بـ«كيسينجر» الذي قال: «هذا القرن ليس لإفريقيا».

لم تبتسم أنستازيا.

«لم أقصد التذمر»، قالت إيرين وقد أهانتها الفكرة.

«إن عانيت في مكان ما، ارحلي عنه»، قالت أنستازيا بقناعة، وشعرت إيرين بمقدار كبير من التعجرف.

«وإن عانيتِ وسط ظرفٍ ما؟».

رفعت أنستازيا ملعقتها.

بعد عدة أعوام مضت على الجميع تقريباً. مضت هذه الأعوام بالتأكيد على إيرين التي صعقها ذات يوم أن وجدت نفسها تناقش أساليب التعليم مع مجموعة من الأمريكيين الأصليِّين والمعلِّمات البيض في ألاسكا.

«بمجرد أن سمعت بقدومك»، قالت أنستازيا التي تقطن حالياً بالقرب من مدينة أنكوراج. قلت لرجلي «عليَّ الذهاب لرؤيتها: إنها صديقة قديمة!».

جلسوا في حانة، وأتاحت أيّام الصحو إطلالة مذهلة على جبل ماكينلي على مسافة مئات الأميال. يا للحسرة، يظهر أن أيام الصحو نادرة هنا، إذ لم يتسنَّ لإيرين أن شاهدت من جبال ألاسكا الأسطورية شيئاً غير سفوحها. وحتى هذه السفوح كانت بديعة.

«آمل أن تكوني قد غفرتِ لي، عن طردي إياك»، قالت أنستازيا.

«أوه، بالتأكيد»، قالت إيرين بينما نظرت إلى الآخرين في الحانة. أحبّت ألاسكا. أعجبها كيف أنَّ الناس يبدون كأنهم قدموا في الشهر ذاته من مكان آخر. لكن الطقس الرطب، رغم عدم برودته - كما توقعت أن يكون - بعث فيها الحنين للشمس، للمواقد، لتشكيلات ثيابٍ أقلَّ قابلية للاختراق من التي جلبَتْها معها.

اصطادتها أنستازيا من عند المنصّة مباشرةً، حيث كانت إيرين تجلس بجوار امرأة من سكان ألاسكا الأصليّين تتحدث عن ضعف البصر الذي يصيب أبناء ألاسكا، الذين كانوا يستغرقون زمناً طويلاً في قراءة المطبوعات في المرةّ الأولى.

«لطالما رأى سكان ألاسكا الأصليون في البصر المثالي شيئاً من المسلَّمات»، قالت المرأة. «ثم جاءت هذه القراءة. هذا التلفاز. هذا التسوق حيث جميع السلع عليها ملصقات بكلمات تستلزم مزيداً من القراءة. أصبح الجميع بحاجة للنظّارات لرؤية أيّ شيء على الإطلاق». كانت ترتدي نظّارات ضخمة كنظّارات الطيارين بعدسات أرجوانية. نزعتهما عن عينيها وطرفت بعينيها باتجاه الحضور. صمت طويل، أثبتت خلاله الموقف التوكيدي لتصريحها، وبدت كأنها تنطوي على نفسها في مكان ما داخلها. «أرجح وجود نمط أساسي من انعدام الثقة»، تابعت بصوت ناعم، «حيال اكتساب المعرفة بطريقة قد تفقدك بصرك. لا بدّ أن هذا هو السبب وراء مشكلات القراءة التي يعاني منها كثيرون من كبار السن بيننا».

لم تشكِّك إيرين في ذلك لِلَحظة.

كانت أنستازيا قد تأبّطت ذراعَ إيرين ووقفت على مقربة منها بينما شدّ المعلّمون من سكان ألاسكا الأصليّين على يدها بدفء. «سعداء برؤيتك!»، قالوا كأنهم كانوا بانتظارها. «يسعدنا صعودك كل هذه المسافة من الولايات الثمانية والأربعين المنخفضة».

«عندما علمت بقدومك وبانعقاد مؤتمر حول السكان الأصليين، ظننتني سأكون الفتاة البيضاء الوحيدة هنا. لكنني أرى عكس ذلك».

لم ترمش إيرين لسماعها هذا.

جلستا في الحانة، بإطلالتها الشهيرة المفقودة على جبل ماكينلي. شعرت إيرين بالإجهاد عقب النقاش الجماعي. فكرت بالمرأة صاحبة النظارات كالطيارين، وبعث هذا الإحباط في نفسها أيضاً. أفرغت كأسها الأولى من الويسكي الإيرلندي وطلبت الثانية. وعندما نظرت إلى أنستازيا، بشعرها المضفور إلى جدائل مربوطة بالريش والشرائط الجلدية، وعيناها تتراقصان بكل معنى الكلمة، بدا لها كأن أنستازيا تتلاشى، تتلاشى، تتلاشى، في المشهد الضبابي. لكن تلك كانت رؤية لحظية ثملة، ازْدَردَّت إيرين خلالها رشفةً أخرى من مشروبها.

«إذاً»، قالت، «لا أحد يعني شيئاً».

«سمعت أنك تعيشين حياة زوجية سعيدة»، قالت أنستازيا، متجاهلة تلميح إيرين.

«كنّا سعيدين. أنا على شبه يقين أننا كنّا سعيدين. تعلمين أن سرّ السعادة يكمن في قدرتك على افتراضها. لقد هجرني، على أيّ حال».

«أحب أنني بيضاء»، قالت أنستازيا مقتحمة الحديث وعلى وجهها فائض سرور زائف أفسد ملامحها. «اسأليني عن السبب».

«لماذا؟»، قالت إيرين.

«لأنني كسوداء افتقرت إلى روح الدعابة!»، ضحكت، واختلط وجهها المضحك مع ضحكتها.

«ليس بوسعي إنكار ذلك»، قالت إيرين، «ثم إن الانتقال إلى

صفوف البيض فيه الكثير من الألوان». قصدها الحقيقي أنه أصبح موضةً باطلة.

«لا، لا»، قالت أنستازيا. «ذلك *تقليدٌ للحياة* - وما اسم الفيلم المبتذل الآخر؟ زهري؟ ليس حتى إحدى روايات جيسي فوست أو نيلا لارسين، حيث أنْ يكون المرء أبيضَ ليس إلا طريقة لاختيار الألوان المناسبة حالياً لبشرتك. كانت هناك الظلال التي ألقاها كتاب سيرة ذاتية لرجل ملوَّن سابق في بادئ الأمر - تعلمين ذلك، أيمكن لامرأة تمتلك مقوِّمات العظمة كسوداء أن تجد السعادة كامرأة بيضاء عادية؟ - لكن ذلك أصبح من الماضي»، ضحكت. «على أيّ حال، لست بصدد الانتقال إلى صفوف البيض؛ كل ما أفعله أنني أحاول تصحيح آراء الأخرين».

انتاب إيرين، التي كانت تحدِّق مباشرة في عيني أنستازيا، الشعور الأغرب على الإطلاق. هاتان العينان تبدوان الآن كعينَي شخص أبيض. ما معنى ذلك؟

«أحببت الحياة الزوجية»، قالت إيرين خافضةً نظرها إلى كأسها. «شعرت أخيراً بالهدوء الكافي للنظر إلى نفسي من دون هلع». هزّت كتفيها. قليلةٌ كانت لحظات الهلع التي اجتاحتها طيلة سنوات زواجها، لدرجةٍ بدت كأنها غطَّت في نوم عميق. فإذا ما سألتها عمّا حدث بين عامي 1965 و1968، لعلها على الأرجح ستتذكر أن الأعوام الثلاثة تلك يمكن اختزالها في يومٍ واحد، وأنها في ذلك اليوم تلقَّت من جيرانها دعوةً لمرافَقَتهم إلى صيد السمك، وأنها رفضت تلك الدعوة.

«هكذا هو الأمر»، قالت أنستازيا، «نوعاً ما. عندما لا تعيشين برفقة أحَدهم، تبدو جميع جوانبك مكشوفة دفعة واحدة. صحيح؟ أما عندما تعيشين برفقة أحدهم، يصبح جانب واحد فيكِ مستوراً على الأقل. ما زال بوسع الهلع أن يجتاحك، لكن ليس من ذلك الجانب». رغبت بالتأكيد على مدى صحة ذلك في الحالة العرقية خصوصاً. وأنها

بتنحيتها للعرق كمصدر للقلق، بات بوسعها التركيز على الهجمات القادمة على الجوانب الأخرى من ذاتها. لكن إيرين ستقول بالتأكيد إنها لم تُنَحِّ العِرقَ جانباً، بل اختارت منه جانباً مختلفاً تعيش وفقاً له. فالسود الذين لم يخوضوا تجربتها إلا نادراً ما كانوا ميَّالين إلى تقدير وجهة نظرها؛ ورغم فهمها ذلك، بقيت على تفكيرها أنّ ذلك يعبّر عن تقييدٍ من ناحيتهم.

«ماذا عن «مصدر» و«سلام» و«هادئ» و«نعيم»، وشركاهم – أميركا الجنوبية؟ هل الطفل برفقتك هنا؟»، سألت إيرين، وهي تنظر في أرجاء الحانة كما لو أنها تتوقَّع رؤية «نعيم» يحبو نحوهما من تحت الطاولات.

بدت أنستازيا كئيبة. لاحظت إيرين أنّ خدّيها يترهَّلان عندما لا تبتسم. لكن ذلك لم يكن أسوأ مما فعلته السنين بوجه إيرين نفسه.

أصبحت أنستازيا تشرب كوكتيل «ماي تاي»، ففي ذهنها، ألاسكا وهاواي شديدتا القرب من بعضهما – وشديدتا البعد عن بقية الولايات الثماني والأربعين. وبينما ارتشفت رشفة من مشروبها الصغير مفرط الزينة (إضافة إلى المظلة التقليدية، تضم الكأس أحذية ثلج صغيرة)، قالت بتجهُّم: «تصيبني رجفة دائمة تحت عيني – أتعلمين؟ لقد أصابتني مُذْ كنتُ أعيش في سان فرانسيسكو. تأتي وتغيب. وبما أنني ذكرتها الآن، انتبهي إليها. لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تظهر».

بدأت عينُها اليمنى، أسفل العين، بالارتعاش.

«أكرهها»، قالت وضربت براحة يدها فوقها. «أجهل مكانهم. ربما سافروا إلى أميركا الجنوبية، حسب علمي. أجهل مصير نعيم». قهقهت ضاحكة.

«شيءٌ ما حدث للنعيم»، قالت إيرين وقهقهت أيضاً. هتفتا معاً، وضربتا كأسيهما على الطاولة وركلتا بقدميهما تحتها. سألت نادلة قلقة إنْ كان بوسعها فعلُ شيء».

«اعرفي ما الذي أصاب النعيم»، قالتا ضاحكتين في وجهها وطلبتا كأسين مزدوجتين.

«بدأت بالانهيار مجدداً بعد بضعة أعوام»، قالت أنستازيا. «تشنجات في الوجه، نزلات برد متواصلة، إسهال، وكل ما قد يخطر في بالك. ليتك رأيتني. بدا شعري كالأسلاك النحاسية، ثارت في بشرتي نوبات طفح جلدي أكثر من براكين إندونيسيا. بدأت أسناني تتخلخل... فإن كنت على ذلك القدر من السكينة، ما الذي حدث؟ وأعجز عن تذكر آخر مرة حظيت فيها بنوم ليلة كاملة».

«لكنني لم أرغب بالرحيل عن «مصدر»، أوه لا! اسمعي، كان الجنس عادياً، لكن مع المخدرات الرائعة، وقليل من الموسيقى، وفوقك أحدهم يتضرع إلى الرب، ويصبح العالم خارج حدودك المباشرة شيئاً لا يعنيك البتة».

«همممممم»، قالت إيرين.

«الرحيل عن «مصدر»؟ لا قسماً بحياتك! أو بحياتي في تلك الحالة. ثم جاء والدي - كنت على الحال الفاسدة التي كنتها، لكنّ عثّةً نشرتْ أخباراً أنني اكتسبت عادةَ محادثةِ نفسي بسهولة التحدُّث إلى الغرباء في الشارع». هزّت كتفَيها. «إلى أركنساس. بضعة أشهر من الحجز المنزلي، لا مخدِّرات، موسيقى كنائسية (اسمعي، يكمن السبب الوحيد لمقدرة شهود يهوه على الغناء في سرقتهم للعديد من المعمدانيين) وإدراكي لجهل البيض والسود على حدٍّ سواء لما يمكنهم فعله بنا في أركنساس. كنا ممسوخين. والتناقض الذي عانى منه والدي، ككل شيء آخر، دفعنا جميعاً إلى الجنون. كانا يرتعبان إن صادقت أناساً من الفقراء والسود، ويخيب أملهم بذوقي إن كانوا سوداً من الطبقة الوسطى، ويتكدَّران إن كانوا من البيض؛ بأيِّ عِرقٍ سأفتخر إذاً؟».

«اقترنتُ بأوَّل رجلٍ يحصل من أركنساس على عقدٍ للعمل على خطّ أنابيب ألاسكا. وجدتُ وظيفةً. طلَّقْتُه. وهأنذا».

ذهبت أفكار إيرين إلى فانيا، التي أشبعت اهتمامها بالقراءة أخيراً بحكايات العبيد من النساء السود، اللواتي شعرت بتشابههن معها، والتي كانت ستقرأ باهتمام بالغ القصة التي ترويها أنستازيا الآن.

- هل كانت أمُّك بيضاء؟

- أجل، بيضاء جميلة، ليست بيضاء بالقدر الكافي بالنسبة للبيض. شعرها طويل، لكنه كان متموِّجاً إلى حدٍّ ما...

- أرُزِقتِ أطفالاً خلاسيِّين؟

- كلَّا يا سيدي! بشرتهم بيضاء بالكامل. كانوا يشبهونه تماماً... ثم أخبرني أنه على وشك الموت... وقال إنه سيمنحني وأطفالي الحرية إن وعدته بالذهاب إلى نيويورك... أخبرني أنه ما من أحد سيعلم ذلك (أنني ملونة) إنْ لم أخبر أحداً[10].

«أسَبَق وحدَّثتُك عن فانيا إيفانز؟»، سألت إيرين. «كلا؟ كانت واحدة من النسوة اللواتي حاولتُ تعليمهنّ قراءة الصحف. واجهت صعوبة لأنها رفضت تعلم قراءة أي شيء قد يسبب لها الألم. وبما أن العالم على حاله، قليلة جداً كانت الأخبار التي بقيت».

«أوه نعم، أعتقد أنني أتذكر شيئاً عنها»، قالت أنستازيا، من باب الروح التي سادت الحديث. لم تتذكر كلمة واحدة. «لكن مهلاً»، قالت، «دعيني أطلعك على أحدث المستجدّات. الرجل الذي أعيش بصحبته الآن هندي، من الأليوتيين. هل أخبرتك بذلك؟».

«حاولت على الأرجح»، قالت إيرين، «لكن أرجوك، أعفيني من ملحمة التفوق الجنسي، الرقة الأنثوية أو العضلات المنتفخة».

«لديه كل ذلك»، قالت أنستارَيا، بسعادة، «لكنني لن أتطرق إلى ذلك».

10- الموقَّر إتش ماتيسون، *لويزا بيكيت*، *الهجين: قصة حياة عبدٍ جنوبيّ (نيويورك 1861)*، *كما ورد في كتاب «النساء السود في الحياة الأمريكية في القرن التاسع عشر»*، *محرَّر مع مقدّمة كتبها بيرت جيمس لاونبيرغ وروث بوغين (مطبعة جامعة ولاية بنسلفانيا، منتزه الجامعة، بنسلفانيا. ولندن 1976).*

«شكراً»، قالت إيرين.

«نعيش في قرية صغيرة لصيد السمك، حيث الصناعة الوحيدة هي تدخين السلمون. هذا ما تتقنه جميع النسوة هناك. ولكن كامرأة بيضاء...»، ابتسمت ابتسامة عريضة عبر الطاولة لإيرين، التي كانت الآن تشعر بحموضة مزعجة، «أو عساي أقول امرأة من غير السكان الأصليين؟ على أي حال، لم يتوقعوا مني إتقان تدخين السلمون. وشعروا بالسرور عندما ساعدتهم في ذلك. كأنني قد تطوَّرتُ. ما زالوا يجهلون ذلك، لكنني على وشك أن أصبح واحدة منهم». صمتت لبرهة. «أعتقد بحق أن «مصدر»، كان فاشياً. وحده الفاشي سيقول إنّ لا أحدَ يعني شيئاً. الجميع يعنون شيئاً. شخصاً. ولم يكن بوسعي أن أشعر بنفسي شخصاً ما مِن دون لون. باعتقادي، ما من أحد في أميركا بوسعه ذلك... وهذا بالفعل مثيرٌ للشفقة. بكافة الأحوال، وبناء على مظهري، ليس للأسود خصوصية كافية. فقد استدعى الأمرُ شرحاً لساعتين لقاء كل ثانيتين من المرح». صمتت من جديد. «ثانيتان فقط».

«أمسكت بك»، قالت إيرين. كانت الآن قد ثملت لدرجة أتاحت لها فهم كل ما قالته أنستازيا كأنها فكرت به بنفسها. لكنها نسيته على الفور أيضاً.

«أتخبرينني الآن عن فانيا فلان؟ أود معرفة كل شيء عنها». قالت أنستازيا.

«كلا»، قالت إيرين، «أنا في حالة سُكرٍ شديد».

«سأطلب القهوة»، قالت أنستازيا؟ «أحتاج أيضاً للذهاب إلى المرحاض».

«وأنا كذلك»، قالت إيرين، ينتابها شعور كأن عضلات معدتها ثارت على جواربها الطويلة الضيقة من الأعلى.

عند عودتهما، كان بانتظارهما إبريقُ قهوة على شكل رأس أيل. كانت

إيرين تمسح وجهها وعنقها بمنديل ورقي مبلَّل، بينما تناولت أنستازيا عبوة عسل صغيرة من حقيبة يدها. كانت تمتنع عن تناول السكر.

شربا القهوة القوية بصمت لمدة عشر دقائق. وأخيراً، بدأ الصحو يتغلغل في رأسيهما.

للمرة الأولى، أدركت إيرين وجود أناس في المقصورة خلفهما مباشرة. «*منذ خمسة عشر عاماً*»، قال صوت رجوليّ، «*حُظر عليهم دخول مثل هذه الأماكن. حُظر دخول الكلاب والأسكيمو والهنود. هذا رهيب*»، أجاب صوت نسائي. «*خاصة وأنها موطنهم*»، قال شابٌ متهكماً. «*لكننا طوّرنا الموضوع*»، قالت شابة بتوضيح أخوي. «*أوه، قطعاً*»، قال الشاب. «*كيف لامرأةٍ أنْ تتلفَّظ شيئاً بهذا الغباء؟ لقد خضعت بنفسك للتطوير، لكنك حمقاء لدرجة التفكير بإعجابك بذلك*»، ارتفع صوت المرأة الأكبر سناً، في محاولة لتهدئة الأجواء، وغيرت الموضوع. «*أهي فعلاً أكبر بكثير من تكساس؟*». «*أوه، أكبر بكثير*»، قال الرجل الأكبر سناً بفخر.

كل الأشياء التي عرفتها إيرين عن ألاسكا كانت قد قرأتها في إحدى روايات إدنا فيربر[11]. أصبحت الآن تعرف اللّفت العملاق، والبطيخ الهائل، والماريجوانا المسموح بزراعتها قانونياً، بل وحصادها واستخدامها، وعادة ما وصل طولها عشرين قدماً في فصول الصيف الحارة كثيفة الإنتاج. علمت أن قيمة معاطف الفرو تفوق ميزانيتها بكثير وأن الأحذية الجلدية المبطنة تتسبب بتعرُّق قدمَيها. وكان أبناء الأسكيمو والهنود الذين صادفتهم في الشارع يشبهون أيّاً من سكان سان فرانسيسكو الشرقيين. علقت في ذهنها الآن عبارة *منذ خمسة عشر عاماً*، وأنها بنفسها كانت شاهدة على إزالة لافتات مشابهة في الجنوب. لكن اللافتات كانت قد أدَّت الغرض المطلوب منها. وطوال حياتها، عرفت أن المطاعم الفاخرة والفنادق وحتى المكتبات ستروِّعها، فجميعها أماكن كانت محظورة عليها سابقاً.

11- Edna Ferber (1885 – 1968): روائية وقاصَّة أمريكية.

«يسعدني النظر إليكِ. وأن أخبرك بإعجابي بالطريقة التي تنظرين فيها». مطّت أنستازيا نفسها وداعبت خدّ إيرين. ثم نهضت، انحنت فوق إيرين، وقبَّلتْها بتأنٍّ، ضاغطة شفتيها على بشرتها البنية الدافئة الفوّاحة برائحة الياسمين، وقالت: «لطالما حسدتك، فيما مضى».

«ينبغي أن يكون العكس صحيحاً»، قالت إيرين مبتسمة.

«كنت في غاية البؤس أثناء نشأتي، لا أشبه أيّاً من أصدقائي. بل أشبه الناس الذين يكرهون! أوه، والسود أيضاً كانوا مشوَّشين للغاية. فقد أظهروا لي بكافة السبل أنهم يحسدونني لأن بشرتي وشعري يسهلان أموري، أما الآخرون مِمَّن لديهم شعرٌ وبشرةٌ مثلي، فقد احتقروني، ولم يوفّروا فرصة لإخباري بذلك. شيء آخر؛ أنا قبيحة نوعاً ما، حتى أنّ مظهري مضحك. لكنني اقتنعت في مرحلة مبكرة جداً أنني حسناء. ولم يسمح لي قط بصورة دقيقة تعكسني».

«لمَ أظنّ أنك استمعت بالموضوع، ولو قليلاً؟»، قالت إيرين.

«سررت بالطبع لكوني الأميرة لتلك المدّة الطويلة»، قالت أنستازيا. «لا أنكر ذلك، لكنها لم تخلُ من مشاعر ذنبٍ مشابهة. لماذا تم اختياري لتمثيل «بياض الثلج»، أو «سندريلا»، وأية سيدة بيضاء أخرى في محنة، في حين كانت زميلات صفي كلّهن ممثّلات أفضل؟ لماذا توافد الصبيان نحوي في الثانوية رغم عدم إتقاني للرقص، وخوفي من إلقاء النكات، وعندي أمٌّ تخبرهم أن درجات الأسود الأكثر قتامة غير مقبولة؟ أوه، سئمت أخيراً من السود، ولهذا قررت الالتحاق بالجامعة في الشمال. وأخيراً اتضحت صورتهم أمامي - ببساطة: رُعَنَاء وأنانيّون ومهووسون باللون إلى حدٍّ محرج. ثم شرعوا في الستينيّات ينادون طالبين «الحرية»، لكنها بالتأكيد لا تشمل أشباهي».

«امتلكت حريتك سلفاً»، قالت إيرين، «حرية الاختيار بين الطرفين».

«تقصدين حرية التعرض للتقاذف بين الطرفين»، قالت أنستازيا، «حتى أن المرء يعتاد على التعرض لذلك».

كغالبية البشر الذين يعتقدون أنهم أفضل مما هم عليه، امتعضت إيرين من فكرة عجزها عن التسامح. فاستقامت في جلستها للإنصات.

«أتذكرين نات تيرنر[12] في كتاب ستيرون؟»، سألت أنستازيا.

«ليس بدقة»، قالت إيرين التي اجتهدت لتمحو الكتاب من ذاكرتها لمدة تزيد عن العقد.

«حسناً، أذكره جيداً. فقد تجرَّأ أحدُ أساتذتنا على تدريسه لصفّنا، وعندما عجزتِ عن حمله على رؤية كم كان الوحش الذي خلقه ستيرون مهيناً بحق نات تيرنر الحقيقي، كان الغضب يتملكك لدرجة تمتنعين فيها عن محادثة أحد في الجامعة لأيام. حينها بدأت بالإفراط في الشرب. وكنت أيضاً ذاك النموذج المشعّ للسود الأذكياء الصاحين»، ضحكت أنستازيا، «لا ثملةً كلَّ مساءٍ وحسب، بل ثملةً حدّ القرف. تستفرغين، تفتعلين الشجارات، تطلقين ألقاباً مقذعة على الناس. وما كان بوسعهم طردُك في واقع الأمر، إذ كنت الطالبة السوداء الداكنة الوحيدة في جامعتهم. وكانوا يعشقونك. لكنك وصفت ذلك بالهراء، إذ ليس بوسعهم عشقك وتدريس نسخة ستيرون عن تاريخك في آن معاً. وكان في هذا كل المنطق في نظري».

«منافقون، الثلّة كلها»، قالت إيرين.

«وهكذا كنتِ بحد ذاتك. أعجبك أن تكوني معشوقة. استثنائية. تمثلين عرقاً كاملاً. أدركت نفاقهم من التهكم الذي عاملوني به. أقصد أنني كنت سوداء، لكن مظهري ليس كالسود. ما حظيت بأيٍّ من الاهتمام الذي حظيتِ به، وكنت بحاجةِ شيءٍ منه، فأولئك البيض عاملوني بالمقدار ذاته من الغرابة الذي لاقيتُه. لكنك ظننت أنَّ كلَّ شيء على خير ما يرام حتى لامسك النفاق».

12- رواية «اعترافات نات تيرنر»، للروائي الأمريكي وليم ستيرون والتي تتناول أحداث ثورة العبيد في فرجينيا عام 1831.

«أوه، ليتنا ما كنا مجبرين على العيش وفقاً لعِرقنا». فكَّرت إيرين، بينما تجتاحها موجةُ قرف من ذاتها. فما قالته أنستازيا كان حقيقةً في الأساس؛ لكن الأسوأ كان إدراكها أنها نظرت إلى أنستازيا بالنظرة «التهكمية»، ذاتها لدى أساتذتها. وفي واقع الأمر، لطالما عجزت عن اعتبارها سوداء بالكامل، وأظهرت تجاهها قلّة تقدير وثقة بطرق ماكرة.

«خرجنا في نزهة على الأقدام لمساعدتك على استعادة صفاء ذهنك»، كانت أنستازيا تقول. «أدركت ما تشعرين به، لأنني وللعجب العجاب، شعرت بالإحساس نفسه. تبعتك إلى غرفتك - أتدركين أنك كنت الطالبة الوحيدة التي تمتلك غرفتها الخاصة في الكلية بأكملها؟ أتذكرين ماذا قلت لي؟».

لم ترغب أساساً بالغرفة الخاصة، هذا جلّ ما فكرت به، لكنه ليس الجواب عن السؤال. فكرت إيرين وفكرت. عجزت عن التذكر. فقد تم منحها الغرفة الخاصة لأنها «مختلفة»، هذا ما تذكّرته.

«أثناء دخولنا غرفتك، قلتُ «يا إلهي، أدرك شعورك تماماً». واستدرتِ، هناك بالضبط عند المدخل، ومنعتني من الدخول، وبينما أغلقت الباب في وجهي ببطء، قلت بمنتهى الوضوح، وكأنك كنت قد فكرت بالموضوع زمناً طويلاً: «كيف يمكنك؟»».

شعرت إيرين كأن أحدهم ألقى فحماً مشتعلاً في ظهرها.

«مهلك، انتظري لحظة»، قالت بارتياح لإيجادها قشة تتعلق بها. «حينها لم يكن كتاب ستيرون قد صدر بعد. كان ذلك بعد عامين أو ثلاثة!».

نظرت أنستازيا إليها، ودفعت براحتيها نحو حافة الطاولة أمامها.

«إذاً؟»، قالت، «كان الكتاب ذاته بعنوان مختلف. يُنشر سنوياً كتابٌ عِنصريٌّ واحدٌ على الأقل ويحقِّق أفضلَ المبيعات».

تأوَّهت إيرين. «كنت ثملة».

«ليس سبباً كافياً»، قالت أنستازيا.

«كلا».

شعرت أنستازيا بالسرور لتمكُّنها أخيراً من قول تلك الأشياء. أحست طيلة حياتها، بأنها مجبرة على أن تأخذ وتأخذ وتأخذ من السود، أيَّ شيءٍ قدّموه. المجاملات والشتائم بالصمت اللَّبق المتفهِّم ذاته. ففي نهاية المطاف، كانت مستثناةً من المعاناة المرجّحة لهم، وعليها ألا تتجرّأ على توكيد ذاتها. انتهى ذلك الآن، ونهايته مريحة.

أدركت حدوث تغيير ما أثناء حديثها مع إيرين. ما زالتا مرتبطتين، لكن هذا الرابط لم يعد اليوم رابط العرق الذي كان ضعيفاً أساساً، وعجز عن الصمود. ببساطة، كانتا امرأتين اختارتا العيش على هواهما في هذا العالم. تساءلت ما إذا كان الشعور نفسه يراود إيرين.

«كنتِ المتلازمة الموضوعية بالنسبة لي»، قالت إيرين. واجهت صعوبة في إخراج كل كلمة، كأنها سترفع القناع عن اعترافها بهذا الموضوع، وإلا. «أترين، تجسد خوفي الأكبر في الجامعة في صعوبة تفادي التحول إلى قصة نجاحٍ برجوازية عادية. كنت ذكية، مفعمة بالطاقة، جذابة، خالية الذهن من أفكار الفشل، بصرف النظر عما يقوله علماء الاجتماع. أولئك الطلاب الذين كتب عليهم أن يعرفوا في غضون عشرة أعوام أسماء مصمِّمي أحذيتهم وأمتعتهم، قضاء عطلة في أوروبا مرّة في السنة، وقراءة أفضل الكتب مبيعاً كل خمسة أعوام - أثناء قيامهم بعملهم السيء حدّ الشناعة في تعليم أطفالنا - كانوا يخيفونني حدّ الرعب. تلك الحياة، لا التي يضرب بها المثل في «الحمل والتخلف عن المدرسة»، مثّلت «مصيراً أسوأ من الموت».»

«كانت معضلتك جليّة. حتى أنك، وأتحدث بموضوعية، لم تعلمي من تكونين. وما الذي ستفعلينه لاحقاً؛ أيّة نسخة منك ستبقى على قيد الحياة. وفي الوقت نفسه، أدنتك أنا لضعف التزامك بأيِّ شيء اعتبرتُه أنا مفيداً، استخدمتك تجسيداً لمعضلتي الداخلية. وبأغرب السبل، جاء اعترافي ضئيلاً أمام اعترافك بالمقارنة. فمثلاً، أدركت أن المرحلة مع «مصدر»، عبارة عن طريق مختصر بالنسبة لك، لذلك المجتمع المتناغم

متعدد الثقافات الذي تسعدين وسطه، والذي آمنت أيضاً بإمكانية بنائه في أميركا. لكن هذه الرؤية متقلقلة من الناحية السياسية. بشكل من الأشكال، كان مريحاً لي أن أفكر بمدى تقلقل برنامجك القائم على «المخدرات والمعلم الروحي». تطعلتُ إلى مساعدة «الحكومة»، بينما تطلعتِ إلى «مصدر». وفي الحالتين، كان الاتجاه خاطئاً - أيُّ اتجاهٍ يبعدُنا عن أنفسنا هو اتجاهٌ خاطئ».

«أفٍّ، أفّ»، قالت أنستازيا بينما هزّت رأسها من جهة إلى أخرى، رغم أنَّ «أفٍّ، أفّ»، كانت توكيدية، «جذبتْني لأن قدرك بدا شديد الاستقرار. وبصرف النظر عن أي شيء آخر، ستبقين امرأةً سوداء. النساء السود، حتى الناجحات البرجوازيات منهن، لا يهجرن».

«بل يعجزن عن الهجر. سيفعل بعضهن بالتأكيد إنْ استطعْن».

ضحكت أنستازيا، وكذلك إيرين.

شعرت أنستازيا بالاعتداد بنفسها الآن. وفكَّرت أنَّها مهما كانت، سيكون طفلها الذي تأمل إنجابه يوماً ما من الأمريكيين الأصليين، مجدداً وأخيراً وفي بداية الأمر.

«تعلمين»، قالت بتمعُّن، وهي ترفع أغراضها وتجمعها، لأن الوقت تجاوز منتصف الليل رغم أن الضوء في الخارج ما زال ساطعاً إلى حدٍّ مقلق. «جعلنا «مصدر»، نستخدم اسمه كتعويذة أثناء التأمل، كي لا يبقى في وعينا جزءٌ يستثنيه. ولكنك تعلمين أن التعويذات لها في البداية وقعُ اسم أحدهم، ويتبادر إلى ذهنك دائماً. لكن سرعان ما يصبح الاسم مجرَّد صوت. بالنسبة لي، أصبح الصوت حنيناً ثم توجهاً لحياتي»، هزّت كِتفيها، «علمت بضرورة دمج تلك الذات مع شيءٍ جوهري ومستقر، وإلا ستتحطم وتحلّق مبتعدة». ابتسمت، متفكّرة بالرجل الذي تحبّ.

«سعيدة أنت بالعودة إلى المنزل لرؤيته، أليس كذلك؟»، قالت إيرين.

«منشرحة الصدر قطعاً»، قالت أنستازيا مشرقة.

«راسليني»، قالت إيرين، «لقد افتقدتُك».

«حقاً؟»، سألتْ أنستازيا.

أسكتَتْها إيرين بعناقٍ لم يكتفِ باحتضان الكتفين، بل عانقتها بجسدها كلّه، ركبة تلامس ركبة، فخذاً يلامس فخذاً، صدراً يلامس صدراً، عنقاً تحتضن عنقاً. أصغت إلى قلبيهما يضربان، قويّان وتتدفَّق فيهما الدماءُ بحيوية.

عبرا عند مغادرتهما الحانة بمجموعةٍ من السياح الذين كانوا يشيرون بمرحٍ إلى البعيد. نظرت إيرين وأنستازيا في الاتجاه الذي أشاروا إليه وبدأتا تبتسمان. اعتقدوا أنهم يرون أخيراً الجبل الضخم المتواري، على مسافة مئة ميل. كانوا مخطئين. كان ذلك سفحَ جبلٍ ضخمٍ آخر أكثرَ قرباً، تلفُّ الغيومُ كاحليه الهائلَين، وهذا ما أسعدتْهم رؤيتُه.

المحتويات

عبر سطور هذه المجموعة القصصية، تروي آليس ووكر الحائزة على جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب الوطني عن روايتها الشهيرة «اللون أرجواني»، 14 حكاية لنساءٍ تخضن معاركهن على جبهتين: أولاهما الصورة النمطية عن المرأة، وثانيتهما العنصرية. وبأسلوب محفز تشوبه روح الدعابة، تسرد بطلات ووكر حكاياتهن المفعمة بالأمل عن الحب والرغبة والشهرة والسرقة الثقافية وبهجة الالتقاء بعشاق جدد وإعادة سبر أغوار شخصيات الأصدقاء، لتخرجن من رحم هذه القصص بعزيمةٍ قوية عجز الاضطهاد عن كسرها.



وإضافة إلى تسليط الضوء على معاناة النساء السود في مجتمع تحكمه العنصرية، تستعرض ووكر، الناشطة الحقوقية والنسوية، ما لاقته المرأة البيضاء أيضاً من عنفٍ وتمييز من بعض الرجال السود خلال الحركات المناهضة للعنصرية.

في جعبة آليس ووكر أكثر من ثلاث عشرة رواية ومجموعة قصصية وعشرة مجموعات شعرية والعديد من المقالات والأعمال الفكرية، نشرت منها دار المدى مؤخراً روايتي «اللون أرجواني» و «امتلاك سر البهجة».

ISBN 978-2843-0917-3-5